

القسم الرابع

الحضارات خارج أوروبا

اذا كانت اوربا مدينة لتوسمها الخاص بارتفاع مستوى معيشتها واثراء ثقافتها ، فانها قد اوجدت بدورها مجتمعات جديدة على صورتها وزعزعت اكثر الاوساط البشرية اختلافاً عن وسطها . الا ان هذه الاوساط - المتنوعة جداً - لم تتطور الا ببطء ، وقد استساغ كل منها على طريقته ، وبنسبة متفاوتة ، ما أتى به الاجنبي . فان العالم الشمالي ، وافريقيا السوداء ، وشطراً كبيراً ممن اطلق عليهم بصورة عامة ، اسم البدائيين قد تقبلوا ما أتاهم دون ان يصدر عنهم ردة فعل تذكر . واخذ الاسلام ، بكليته تقريباً ، يزرع تحت سيطرة اوربا ، ولكنه لم يتغلغل عن شخصيته المميزة القوية . وسلمت آسيا الرياح الموسمية تسليماً متفاوتاً بدخول الحضارة الاوروبية وقاومت جماهيرها الكثيفة طرائف اوربا بتقليدية متصلبة ؛ واذا ما أخذت اليابان تدعن في النهاية لطرائق البيض ، فانها قد فعلت ذلك وكأنها تقصد مقاومتهم مقاومة أجدى . وكاد العالم اللاتيني الاميركي ، الذي كان بالامس اسبانيا وبورتغالياً ، لا يخفي الملامح التي تكون شخصية هذه الارض المميزة . ويجدر لفت النظر اخيراً الى ان العوالم الانكلوساكسونية نفسها في اميركا وافريقيا واوراليا ، لم تكن ، ولم تستطع ان تكون ، صورة صحيحة لبريطانيا العظمى القديمة .

الفصل الأول

المجتمعات الشمالية الحقيقية ..

ادت الاستكشافات والتجارة ، حول الحوض القطبي الشمالي ، المتوسط الامبراطورية الروسية واميركا الشمالية ، الى اخراج شعوب اقصى الشمال من عزلتها . فكان هنالك الشعوب الرعاة التي اعتمدت في معيشتها على حليب الرنة ، لحمها وجلدها ، والتي وفرت لها الاحراج الشمالية بعض الموارد الاضافية : الى هذه الفئة انتسب قبائل الآسيويين القدامى ، الـ « اوستياك » ، و الـ « ساموياد » ، والـ « تونفوز » ، وقبائل الـ « اتاباسكيين » ، الاميركيين . ولكن سواد هذه الشعوب قد تماطى في الوقت نفسه تربية الرنة واستثمار الموارد البحرية . ونخص بالذكر منها شعب الاسكيمو الذي امتدت املاكه من غرينلند ، حتى « الابرادور » ؛ وقد اتاح له انتقاله الموسمي من منطقة الى منطقة اقتناص الكاريبو او الرنة الكندية والحيوانات الغريبة وحيوانات المضائق الخاصة ؛ وكان يحسن استعمال الحياطوف ويستخدم المزليج الذي تجره الكلاب ، والكايك او زورق الصيد الجلدي ايضاً . وكان يمسح جسمه بالادهان ويمتلئ من اكلها ؛ ويعيش منفرداً في الايغلو ، او الكوخ الثلجي المؤقت ، طيلة فصل الشتاء البالغ القسوة في هذه المناطق .

ثم جاء الاجنبي ، وقد استهوته الحيوانات الغنية بالفرو والادهان والزيت والجلد والمواد القرنية والعاجية . فجلب معه للسكان السلاح الناري ، والاداة المعدنية ، والتلفظ الذي سهل الطهي والاضاءة ، والطحين والسكر والشاي مما جعل الغذاء اكثر تنوعاً ولذة ، والكحول وبعض الامراض ايضاً . وزاول القنص بوحشية فأفنى بعض الأنواع الحيوانية وقلب طرائق الحياة ظهراً على عقب . وهكذا فان اسكيمو الابرادور قد اهملوا صيد الفقمة وبجثوا اكثر فأكثر عن الرنة الكندية والثلج القطبي واستطابوا المأكولات الجديدة ، ولكن اوبئة الجدري والسل والداء الزهري فتكت بهم فتكاً ذريعاً ؛ فاضمحلوا اضمحلالاً تاماً في آلاسكا الشمالية . وكان ان السلطات الكندية والاميركية ادخلت الى مناطق الشمال الفسيحة الرنة السيبيرية التي اخذت تتكاثر تكاثراً فائقاً مطرداً وفكرت بتنمية الرنة الكندية والثور الممسك في الارخبيل القطبي ؛ وذهبت الدانمارك الى ابعد من ذلك فمزلت « غرينلند » لتضمن فيها حماية العناصر الخلاسية المنحدرة من الاسكيمو والسكندينافيين معاً .

الفصل الثاني

التقدم السريع في العوالم الانكلوساكسونية الجديدة

«... هذا العرق المحيط منذ اليوم بالكرة الارضية والمقدر
له ان يلاهما كلها يوماً...»
(تشارلز ديكنز ، ١٨٦٨) .

الاعمار : مشابهاً واختلافات
ليس في القرن التاسع عشر ، في اعتقادنا ، من احداث اكثر إثارة
للانتباه من تكون عالم انكلوساكسوني يشمل اميركا الشمالية
كلها وبمجموع القارة الاسترالية وارخبيل زيلندا الجديدة وشطراً واسع الاطراف من افريقيا
الجنوبية . واننا نطلق على هذا العالم صفة الانكلوساكسوني لان أناساً ينتسبون الى الارخبيل
البريطاني او البلدان الاخرى المحيطة ببحر الشمال قد عمروا هذه المساحات الشاسعة ومهروها
بطابع حضارتهم .

وهي اوستراليا وزيلندا الجديدة ، في الارجح ، ما تقدمان المثل على خير اعمار تجانساً .
لقد تأخرت بريطانيا في استعمارهما ، ولكنها استعمرتهما بسرعة ، دون غيرها ، في النصف
الثاني من القرن . ففي الفترة الممتدة من السنة ١٨٥٠ حتى السنة ١٩٠٠ ، بينما لم تتجاوز نسبة
تزايد عدد السكان سنوياً ٠.٨ بالمائة في اوروبا ، بلغت ٢٤٤ في الولايات المتحدة ، و ١٦٦ في
كندا ، و ٤٤٤ في اوستراليا ، و ٦٤٨ في زيلندا الجديدة . ولم تكن اوستراليا لمدة طويلة سوى
منفى يبعد اليه المجرمون ، ومن جهة ثانية ، لم يبد مناخها ملائماً الا لتربية المواشي التي لا
تستلزم يدأ عاملة وفيرة . فحدث آنذاك ما عرف بالـ « اندفاع » وراء الذهب الذي جاء بُعيد

الجماعة في ايرلندا وحررك الهجرة تحريكاً فجائياً : فارتفع عدد السكان الى المليون في السنة ١٨٦٠ ، وسوف يبلغ الخمسة ملايين في السنة ١٩٠٥ . واذا تُدُنّت نسبة الولادات في هذه البيئة ، فان نسبة الوفيات قد سقطت الى ١٠ بالمائة ، والبلاد قد نعمت بنمو طبيعي محترم . ولم يبلغ البدائيون او الآسيويون الا ١٠٠ الف نسمة في البلاد . اما (ماوري) الذين انخفض عددهم الى ٤٠ الفاً ، فلم يكن لهم شأن يذكر في السنة ١٨٠٠ إزاء ٩٠٠ الف مهاجر مستعمر . ولكن هذه الدول الأوروبية الجديدة التي قامت في الجهة المقابلة لاوروبا على الكرة الارضية قد تميزت ابدأ بطابع ضعف الكثافات البالغ .

في افريقيا الجنوبية كان البيض اقلية ازاء السود . فكان هناك اقل من ٥٠٠ الف بويري في جمهوريتي اورانج وبرانسفال ، وزهاء ٣٠٠ الف اوروبي ، ثلاثة ارباعهم من البريطانيين في «الراس» و«ناتال» ، حوالي السنة ١٨٥٠ . ويجب انتظار التهاافت على المناجم حتى تؤلف العناصر الآتية من الخارج خطراً جدياً على مراكز المهاجرين الاول الذين كانوا يتباهون بأنهم «افريقيون» . ومهما يكن من الامر ، فان اتحاد جنوبي افريقيا ، لم يضم غداة تكونه سوى ١١٣٢٠٠٠ ابيض مقابل ٤ ملايين ملون (يدخل في عدادهم ١٢٢ الف آسيوي) . اما كثافة السكان فكانت اعلى منها في اوستراليا (٤ انفس في الكيلومتر المربع مقابل ١) ، على نقيض المهاجرين الاوروبيين الذين كانوا دونهم في اوستراليا بصورة محسوسة ، والذين لم يستطيعوا السيطرة عددياً .

ان أوجه الشبه كثيرة بين كندا والارض الاوقيانوسية الكبرى : اتساع الارحاء ، اقامة في مساحة ضئيلة من الارض قبل وصول مهاجري العالم القديم ، إعمار تدريجي متأخر دونه في اوستراليا بالنسبة الى المساحة . وكما في افريقيا ، شعبان متقابلان : الشعب الفرنسي الاقدم استيطاناً والشعب البريطاني الذي لم يلبث ان تفوق عدداً ؛ الا ان مصالحة واتحاداً مجدياً قد تحقق هنا لمصلحة الفريقين . اجل ان جاذب الولايات المتحدة الملاصقة قد اخسل المنطقة من بعض سكانها (اجتاز الحدود قرابة مليون نسمة بين السنة ١٨٦٠ والسنة ١٩٠٠) . الا ان عدد سكان البلاد ، التي اعلنت «مملكة» في السنة ١٨٦٧ ، قد ارتفع من اقل من مليونين في السنة ١٨٥١ الى اكثر من خمسة ملايين في السنة ١٩٠٠ . وصحيح كذلك ان مساحات شاسعة ما زالت شبه مقفرة بين الولايات القريبة من نهر «سان - لوران» وبين المحيط الهادي (بحيث لم تكن الكثافة العامة سوى ٠،٦) ، كما امتدت مساحات مقفرة واسعة في اوستراليا بين الولايات الشرقية والولاية الغربية . ولكن منطقة المروج الكندية كانت مدعوة لمستقبل لامع ارتسم في اواخر القرن بفضل تزايد عدد المهاجرين تزايداً مطرداً . وقد تجمع الناطقون باللغة الفرنسية في كندا السفلى حول كيبك ، ثم تكاثروا بسرعة وتقدموا نحو كندا العليا ، ممثلين نسبة ٣٠ بالمائة من مجموع السكان ، بينما حمت اللغة الانكليزية الولايات البحرية وسيطرت في مقاطعة اونتاريو وملكت سعيده في الغرب .

اجتذبت الولايات المتحدة وحدها سيلاً بشرياً دونه السيل البشري الى كافة المناطق التي

خفق فيها العلم البريطاني . ومرد ذلك الى امكاناتها الاتمانية النادرة ، وربما الى استقلالها . سار الاستعمار فيها ، كما في كندا ، من الشرق الى الغرب ، وانطلاقا من الشواطئ البحرية ، على ان كل منطقة اميركية قد استعمرت قبل المنطقة الكندية المقابلة . وقد اثار فيها وجود الزوج والجماعات الآسيوية مسائل تميد الى الذاكرة مسائل افريقيا الجنوبية ، كما ارتدى الصراع ضد الهنود ، في بعض الاحيان ، الطابع الوحشي نفسه الذي ارتدته الحرب الماورية . ولكن اذا لم تنتشر لغتان في الولايات المتحدة كما حدث في كندا ، فان عناصرها البشرية المتنوعة قد خضعت لعملية مزج حازمة اعطتها وجهاً مميزاً .

حوالي السنة ١٨٥٠ ، وعلى الرغم من أن المهاجرين أتوا من الارخبيل البريطاني وحده تقريباً ، كان مثال الـ «يانكي» الاميركي قد برز بصورة واضحة . وتفسير ذلك ان تكاثر سكان الولايات قد فاق المهاجرين الجدد منذ القرن الثامن عشر ؛ فلم يدخل البلاد اكثر من مليون شخص حتى السنة ١٨٤٠ ، ولم يتجاوز الداخلون الـ ١٠٠ الف شخص الا منذ هذا التاريخ . ولكن سكان الاتحاد كانوا قد بلغوا ٢٣ مليون نسمة ، حين ارتفعت نسبة الهجرة ارتفاعاً سريعاً بعيد الازمة الأوروبية بين السنة ١٨٤٦ و ١٨٥٠ : ففي العقد السادس من القرن التاسع عشر ، بلغ عدد الداخلين ٢ ٥٠٠ ٠٠٠ نسمة مقابل ١ ٧٠٠ ٠٠٠ في العقد السابق ، و ٢ ٤٠٠ ٠٠٠ في العقد اللاحق ، على الرغم من الحرب الانفصالية ؛ وقد بلغ عددهم ٢ ٨٠٠ ٠٠٠ خلال العقد الثامن . وقد نجم عن ذلك ان نسبة زيادة الولادات للداخلين قد تدنت ، فأصبحت ٧ مقابل ١ بدلا من ٩ مقابل ١ في السنة ١٨٥٠ . وهي أوروبا الشمالية التي ما زالت تصدر أغلبية المهاجرين ؛ غير انها ، بالإضافة الى البريطانيين ، أرسلت الايرلنديين والفلمنك والسكندنافيين والامان . وقد حدثت آنذاك هجرة واسعة الى داخل القارة الاميركية ولا سيما الى المنطقة التي سيطلق عليها اسم « الغرب الأوسط » . ففاقت الجمهورية آنذاك كافة الدول الأوروبية باستثناء روسيا . منذ السنة ١٨٨٠ ، باتت الهجرة أكبر حجماً وأكثر كثافة ايضاً : فأدخلت ٥ ملايين نسمة في العقد التاسع و ٣ ٦٠٠ ٠٠٠ في العقد العاشر . ولكن نسبة الشماليين تدنت الى اقل من ٥٠ بالمائة وارتفعت نسبة اللاتين والسلافيين واليهود الشرقيين الى ٥٠ بالمائة . وقد ارتفعت نسبة المهاجرين الايطاليين وخدم من ٦ بالمائة في السنة ١٨٩٠ الى ١٧ بالمائة في السنة ١٩٠٠ . وسيلغ مهاجرو أوروبا الجنوبية والشرقية ٨٠ بالمائة من مجموع المهاجرين الذين يعبرون الاطلسي . وامام هذا العدد من المهاجرين الاجانب الجدد ، انخفضت نسبة المقيمين الى ٥٤ بالمائة ؛ وحتى الى ٢٠ بالمائة في نيويورك وشيكاغو .

في السنة ١٩٠٠ بلغ عدد سكان الولايات المتحدة ٧٥ مليوناً ، ولم تتجاوز كثافتهم الـ ١٠ في الكيلومتر المربع . ولكن لم يبق سوى سنوات معدودة امام الهجرة الحرة اذ ان الدلائل كانت تشير الى تصميم « يانكي » على مقاومة تتيح استمرار عمل البوتقة التوحيدي والتمثيلي .

المساحات المسيحية والحريات العامة :
الحكم الذاتي والاتحادات

اذن ضمت الولايات المتحدة مساحات شاسعة يقابلها عدد قليل من البشر . ولكننا لسنا هنا امام امبراطوريات .
أسستها قوة فاتحة تولت هي الوصاية عليها ووزعت فيها المهام .
وقد ساد الاعتقاد ، منذ « توكفيل » ، بأن اميركا لا يمكن ان تكون الا ديموقراطية لأن كل شيء فيها يؤول الى السماح للفرد بالتصرع على هواه الى الله ويجمع الثروة دون اضرار بالفير .
وكانت انكلترا قد اعترفت ، فيما يعينها ، بأن المؤسسات التمثيلية توافق ممتلكاتها التي تنمو بدورها على غرار المستعمرات الثلاث عشرة التي كانت مغمورة في القرن السابق .

اعطت الولايات المتحدة اول مثل عن كيان اقليمي كبير يرتكز الى المبدأ الاتحادي . فقد بدأ دستورها ، الذي كان بمثابة تسوية بين حاجات الدفاع المشترك واثرة الجماعات المحلية والاقليمية التقليدية ، وكأنه مثال الحكمة . وقد عرف الديمومة على الرغم من بعض التعديلات التي جعلتها الظروف ضرورية والتي لم تغير منه الروح . فجاباه محنة الحرب الاهلية دون ان تتعين اعادة النظر فيه . وبات نفوذ السلطة الاتحادية منذئذ واقعا لا يمكن انكاره او الاعتراض عليه ؛ وبدا كل انفصال مستحيلا في المستقبل . فتواصل التوسع الاقليمي دون هزات جديدة ؛ فكان هنالك ٣٦ ولاية و ١٢ اقليما في السنة ١٨٦٧ ؛ وسوف تنشأ الولايات الـ ٤٨ في السنة ١٩١٢ .

بعد ان مرت كندا في ازمة شباب خطيرة ، حققت وحدتها ونعمت في الوقت نفسه بالحكم ذاته الذي منحها اياه « وثيقة » السنة ١٨٤٠ . وفي السنة ١٨٤٧ ، اقدم اللورد « إلجن » صهر اللورد « دورهام » ، على إسناد الوزارة الى الزعماء المصلحين في بورجوازية الاحرار ؛ وكانت هذه الاخيرة راغبة في بذل مجهود كبير للتجهيز ، فتاقت الى تحمل مسؤولياتها . فبدأ حينذاك عهد عمل بناء استهدف تخفيف حدة الخلاف تدريجيا بين الناطقين باللغة الانكليزية والناطقين باللغة لافرنسية . فاتجه الكنديون من ثم نحو فكرة الاتحاد التي تقبلتها لندن في النهاية بمحسن الرضى وطيبة خاطر ، لاسيما وان هذه الصيغة قد بدت ، بعيد الحرب الانفصالية ، قادرة على إحباط بعض مقاصد الولايات المتحدة التوسعية على حساب كندا .

جمعت « وثيقة اميركا الشمالية البريطانية » - وهي وثيقة ولادة « المملكة » الاولى في السنة ١٨٦٧ - بين الحكم الذاتي على الطريقة الانكليزية والنظام الاتحادي على الطريقة الاميركية . فقد اتحد ، بموجب ميثاق ، شطرا كندا وسكتلندا الجديدة وبرونسويك الجديدة ، ثم كولومبيا البريطانية ؛ وكما تقرر في الولايات المتحدة ، يمكن ان يقبل في الاتحاد كل اقليم يتقدم بطلب لهذه الغاية ، على ان تؤخذ بعين الاعتبار درجة إعماره وتقدمه . فمن جهة تحافظ كل ولاية على حكومتها الخاصة ، ومن جهة اخرى يكون على رأس الاتحاد حاكم يمثل الملك ، وبرلمان ، شبيه بالكونغرس الاميركي ، يتألف من مجلس الممثلين ومجلس الشيوخ . ولما لم يكن هناك رئيس

تنتخبه الأمة ، فقد اسندت ادارة الشؤون ، على الطريقة البريطانية ، الى رئيس وزارة يختاره الحاكم ويكون مسؤولا امام المجلسين .

عرفت اوتارا ، عاصمة المملكة الجديدة ، منذ ذلك الحين ، نظام الحزبين نفسه المعمول به في لندن وواشنطن . وهم المحافظون - تحالف الملاكين المقارين والبورجوازيين الكاثوليك والبروتستانت ، المعادين كلهم للراдикаلية - من احرزوا الغلبة وتسلموا زمام السلطة اولاً . ثم قرب « الخط الحديدي الكندي الباسفيكي » المسافات بين الولايات السان - لورانية وبسين كولومبيا البريطانية . وفي السنة ١٨٧٠ ، ادى الاتفاق مع خلاسي النهر الاحمر وال « اسينيبويا » الى ادخال « مانيتوبا » في الاتحاد . ثم وضعت شرطة اوتارا يدها على الاقاليم الشمالية الغربية حتى « الجبال الصخرية » بينا قضي على ثورة قام بها الخلاسيون والهنود ؛ فهد ذلك لقيام ولايتي « ساسكاتشوان » و « ألبرتا » . وعندما تسلم الاحرار بدورهم زمام السلطة ، تقدموا بمشروع تسوية تجيز استخدام اللغتين الانكليزية والفرنسية و اخذوا نار الخلافات الدينية والمدرسية ، واعدوا مشروعاً لإعمار الغرب واستثماره بسرعة ، وحافظوا على الملائق الطيبة بالوطن الام . ولكن المساواة في الحقوق ، في نظر الديموقراطية الكندية - كما في نظر الديموقراطية الاميركية - لا تستلزم الحق في الحياة الا بقدر تأمين الفرد هذا الحق لنفسه بصفه الشخصي .

كانت المستعمرات الاوسترالية الاولى ثمرة نشاط مربي الاغنام . وعلى غرار ولاية « وايساز الجديدة » في الجنوب ، قامت في ولاية فكتوريا ، التي انفصلت عنها ، ولايات اوستراليا الجنوبية و اوستراليا الغربية و كوينسلند ، مؤسسات تمثيلية عملت عملها لمصلحة اغني المهاجرين المستعمرين . الا ان اكتشاف الذهب أثار بين السنة ١٨٥٠ والسنة ١٨٦٠ حركة اجتماعية كبرى ؛ فقد تزعت سيطرة المهاجرين المستعمرين ، وبرز الاقتراع العام الى الوجود ، واعتمدت بعض المستعمرات نظام الوزارات المسؤولة . فقامت الى جانب اوستراليا الاولى ، اي اوستراليا قطمان المواشي الكبرى في المساحات الشاسعة ، اوستراليا اخرى انتظر فيها المأجورون القليلو العدد ، المتحالفون مع صغار المزارعين ، مساندة الدولة المطلقة ، لا سيما وان الحياة في اوستراليا اقل تعريزاً منها في اميركا الشمالية . ولم يستطع الحكام ولا المجالس العليا احتباس التيار الديموقراطي الذي اتاح للمجالس المنتخبة بارادة الشعب تأليف وإقالة الوزارات التي زاد من ضعفها عدم وجود الاحزاب التقليدية . يضاف الى ذلك ، من جهة ثانية ، ان المجالس العليا باتت تعين ، منذ السنة ١٨٩٠ ، لفترة محدودة ، بواسطة هيئات انتخابية متزايدة العدد تدريجياً . وان مؤسسات اوستراليا المقتبسة عن مؤسسات الوطن الام قد تطورت بزييد من السرعة ، وجاء النشاط التشريعي القوي يستجيب لانتظار حركة عمالية تطالب بتشريع اجتماعي . ولكن ذلك لم يبلغ حد التنارل عن الانانيات الاقليمية . لذلك فان الميثاق الاتحادي لن يبرم قبل السنة ١٩٠٠ ، كما ان « كومونولث » اوستراليا ، الذي تكون في هذا التاريخ ، قد تمتع بصلاحيات اقل اتساعاً منها في المملكة الكندية .

كانت زيلندا الجديدة قد رفضت عرضاً بالاتحاد مع أستراليا خشية منها ان تكون ضحية هذا الاتحاد . فاقترنت هي أيضاً مؤسساتها عن مؤسسات بريطانيا العظمى ، ولكنها كانت خلوا من الارستوقراطية ، وسوف تعين الوزارة مجلسها الاعلى لمدة سبع سنوات . وقد عقد الاحرار البورجوازيون تحالفاً مع العمال في السنة ١٨٩٠ ، ففتحوا النساء حق الاقتراع والماوري حق التمثيل والمأجورين حماية اجتماعية واسعة . وسترتقي زيلندا الجديدة في السنة ١٩٠٧ الى مصف « المملوكة » فتصبح مساوية في الامبراطورية لكندا واستراليا ، بينما تكون افريقيا الجنوبية في طريقها الى هذا النظام .

على نقيض الكنديين الفرنسيين ، رفض المهاجرون الهولندي المنشأ ، هنا ، التعايش السلمي مع البريطانيين . وعبثاً اقترح السير « جورج غراي » ، بعد رحيل البوير على نطاق واسع ، اتفاق شراكة بين الجمهوريتين البويريتين والناثال والراس لم تباركه لندن نفسها . ولكن المشروع سيبرز الى الوجود مرة أخرى : فسوف يتحقق الاتحاد الجنوبي الافريقي في اعقاب قتال دام ، وسوف تنظم المملكة الجديدة نهائياً في السنة ١٩١٠ .

حالت الاوهام العنصرية في كل مكان دون اتحاد الانكلوساكسون
مع الاعراق الملونة ؛ ونادراً ما تغلبوا عليها باعتبار المنتمين الى هذه
مسير الاعراق الملونة
الاعراق مساوين لهم .

كانت في اميركا الشمالية أناس تميزوا بقامة رفيعة وشعر اسود واملس وانف اقنسى وجلد اصفر اخطأ المهاجرون بأن اطلقوا عليهم اسم الهنود الحمر . زاولوا صيد الحوت وقنص الرنة الكندية ، في الشمال الغربي ، وقنص البقر الوحشي والزراعة في الوسط (وقد ظهرت حضارة الذرة الصفراء بين البحيرات الكبرى والجبال الصخرية الوسطى) ، وكانوا اهل حضر في الجنوب الغربي ؛ فتنوعت نظمهم السياسية تنوعاً عظيماً ، ابتداء من القبيلة المنعزلة وانتهاء بالاتحادات العسكرية الكبرى . وربما بلغ عددهم المليون « متوحش » عند وصول المهاجرين .

فلا مناص من ثم من احد امرين : نقلهم الى منطقة أخرى أو تقييلهم . ولن يقر للمهاجر المستعمر قرار حتى تحل مسألة الحدود هذه . ثم جاء قانون السنة ١٨٨٧ الذي استهدف التهدة بهبة الاراضي وتحسين الحالة الصحية والتعليم : فحدثت الثورة الاخيرة في السنة ١٨٩٠ ؛ وزال « الاقليم الهندي » الاخير من الوجود في السنة ١٩٠٥ . اما الباقيون على قيد الحياة - أقل من نصف مليون - فقد خضعوا للقانون العام او انفردوا في « مناطق خاصة » .

وكذلك لم يخضع الماوري ، البولينيزي المنشأ ، المتوحش والفنان ، للسلطة النيوزيلندية ، الا بعد معارك ضارية . فزرع الذرة الصفراء والبطاطا في اراضٍ مشاعية وتزيا بطبيبة خاطر بالزي الاوروبي واعتنق المسيحية وتعلم التكلم باللغة الانكليزية .

وأبعد البدائيون الاوستراليون ، البانسون والودعاء بالسليقة ، عن المناطق الكثيرة الصيد

الى الصحاري . ثم طاردهم البيض مطاردة فعلية بمساعدة شرطة من الزوج . وهم لا يشككون اليوم سوى اقلية لا اهمية لها الا في نظر العلماء .

وصل الاوروبيون الى افريقيا الجنوبية اثناء هجرة قبائل الـ « بانتو » من المنطقة الحساسة الى الجبال والهضاب المرتفعة الحالية من الذبابة الناقلة مرض النوم والموافقة لتربية المواشي والكثيرة الصيد . فقاوم زنوج افريقيا الجنوبية احتلال البيض لاراضيهم مقاومة طويلة وضارية . ولكن كلما خفت حدّة المقاومة المسلحة تكاثرت عدد الزوج الذين خضعوا للشروط المفروضة عليهم ، ورفع المنجم كذلك عدد الكادحين من الاعراق الملونة . ومن جهة ثانية اجتذبت المهن الشاقة هنوداً وماليزيين عوملوا المعاملة نفسها ونظرت اليهم العناصر الأخرى كما الى دخلاء . وكان للخوف من الاعراق ، التي اعتبرها البوير والبريطانيون متدنية واستغلواها ، قسطه الكبير في التقريب بين هؤلاء واولئك .

وظهر عند الاستراليين والنيوزيلنديين قلق مماثل أثاره فيهم الآسيويون - وجلهم من الصينيين - الذين لم يكن عددهم مرتفعاً ، ولكنهم كانوا مهرة في التجارة والحرف الصغرى وحتى في الزراعة . فأدى ذلك منذ السنة ١٨٥٥ الى فرض القيود الاولى على دخول الصفر ؛ وقد نعت احد رجال السياسة النيوزيلنديين منافستهم بـ « القذرة والمنافية للطبيعة والجائرة » . ويشاهد القلق نفسه كذلك عند امير كيبو الغرب امام تدفق سيل الصينيين . فقد ظهر هؤلاء إبان الاندفاع وراء الذهب : فقد جمعتم بعض الوكالات من ماكاو وهونغ - كونغ ، ثم اشتغلوا في اعمال بناء الخطوط الحديدية . ولكنهم اشتهروا كطهاة وخدام منزليين واتقنوا غسل الثياب وكانوا اهلاً لتربية دودة القز وتجاراً اذكياء . فلم تترد كاليفورنيا في السنة ١٨٨٢ في منع الهجرة ناقضة بذلك الاتفاق الموقود مع الصين ، وقد صادق المجلس الاعلى على هذا المنع . وسوف يتعرض التشريع لليابانيين في عهد لاحق .

اعتق الزنجي الاميركي منذ حرب الانفصال فاصبح من حيث المبدأ مواطناً على غرار الآخرين . ولكن الرق والحلاف الدامي تركا آثاراً وذكريات دائمة . فخلال عهد « التجديد » الناقم ، عاد رجال الانفصال الى صوابهم وملكوا انفسهم ، فقابلوا بالعنف والارهاب بعض اعمال العنف التي اتاها الارقاء السابقون (ويعرف هذا العهد بعهد « كوكوكس كلان ») وسيطروا مرة اخرى على المجالس التشريعية وحدوا ما استطاعوا الى ذلك سبيلاً من الحقوق المنووحة للاعراق الملونة بالتعديلات المدخلة على الدستور . فتجانب من ثم عرقان ، احدهما متبشع ابداً من تفوقه ومعاد لكل امتزاج وفارض على الآخر تمييزاً عنصرياً مذلاً . وعلى الرغم من ان عدد الزوج قد انخفض نسبياً بالقياس الى مجموع السكان العام (١٢ ٪ في السنة ١٨٩٠ مقابل ١٤ ٪ في السنة ١٨٦٠ وزهاء ٢٠ ٪ في السنة ١٧٩٠) ، فقد ارتفع ، بعد مرور ثلاثين سنة على الحرب الاهلية ، الى ٦ ملايين ونصف المليون يضاف اليهم زهاء مليون من الخلاسين . وقد

مالت هذه الاقلية طبعاً الى التجمع في الولايات القريبة من خليج المكسيك : فجاء تجميعها هذا تمييزاً جغرافياً اضعى على التمييز الآخر مزيداً من الخطورة .

عاد معظم الزوج الى العمل في مشاريع استثمار الاراضي بصفة مكثرين او مياومين . ولما كانوا يميلون طبعاً الى الانتقال من مشروع الى آخر ولا يعطون انتاجاً كافياً ، انتشرت شيئاً فشيئاً اشكال مزارعة شدتهم الى الارض . وقد فضل اصحاب الاملاك « العامل بالخاصة » الذي لا يتوجب عليه سوى تقديم سواعده ويتقاضى اجره عينا ، « والشريك » الذي يقدم الحيوانات والادوات ويحتفظ بثلاثة ارباع الحصيد ، على المكثري الذي غالباً ما كان يعجز عن الوفاء .

الزنجي يزرع القطن

والزنجي يجمعه

والابيض يقبض المال

والزنجي يستغني عنه

السيدة تسكن القصر الجميل

والام الزنجية تقم في الزريبة

والسيدة تحافظ على بياض ايديها

والام الزنجية تتولى كافة الاعمال الشاقة

والابيض يرتدي قميصه المنشأة

ويجلس في مكان ظليل بارد

انه أكل انسان خلقه الله .

اجل لقد ارتسمت حركة تستهدف السماح للزوج بالدفاع عن مصالحهم في المعركة الاجتماعية . فقد كان باستطاعة النخبة ، بفضل العلم ، مزاولة المهن الحرة . ولذلك فقد قبل الزنجي في الهيئة الطبية في السنة ١٨٨٩ ، وفي الهاماة في السنة ١٨٨٩ . وقد نجح احياناً في الاعمال فاقتنى المساكن والمقارن التي اجرها بدوره . وبدأت رسالة المربين - واشهرهم « بوكسر واشنطن » مؤسس جامعة « توسكيجي » الزنجية - تمطي ثمارها حوالي السنة ١٩٠٠ . ولكن الكثيرين من الزوج هجروا الارض بحثاً عن الثروة بين البيض في المناطق الاخرى ، فلم تفقد الروح المنصرية شيئاً من حدتها ، بل انتشرت حينئذ حيلوا . ومهما يكن من الامر فان العالم الاميري كان متشعباً بهذا الوجود غير المرغوب فيه والمهتوم معاً ، ولن يستطيع التمالك عن اقتباس « الجاز » الافريقي وعرض ملاكمي العرق المستحق .

في مجتمعات ارياف البلدان الانكلوساكسونية ، حل محل استثمار الارض البدائي استثمار واسع حقاً ولكنه مبني الآن على توزيع العمل توزيعاً مفرطاً . ولكن ما زالت هناك بعض النشاطات الابتدائية في اواخر القرن .

استثمار الاراضي الجديدة :
من الاشكال البسيطة الى
الاقتصاد التجاري الاكبر

يجب هنا ان نضع جانباً مناطق الاقليم الحار حيث عرف المثال الاستعماري الديمومة وحيث

لم يستغن الأبيض بسهولة عن المساعدة التي وفرها له الملونون . وخير مثل هام على هذه المناطق هو جنوبي الولايات المتحدة . فالاقتصاد المنزلي يؤمن فيها الحاجات اليومية ، بينما يتيح محصولان أو ثلاثة محاصيل أساسية - القطن والتبغ قبل كل شيء - المقايضات مع الخارج . ولن يحدث فيها التحويل الجزئي إلى الصناعة أي تبديل ؛ فذلك لن يزيل فقر فلاحين - بيض وسود على السواء - غير متململين ، ومفتقرين إلى رؤوس الأموال وواقعين ابدأ تحت رحمة الحصائد السيئة وانخفاض الأسعار .

لم تمارس زراعة الاصناف الكثيرة ، الأوروبية المنشأ ، إلا بين كندا وبنسلفانيا . يضاف إلى ذلك أن تطوراً حدث فيها نحو اقتصاد الألبان والبقول والفاكهة . فظهرت هنا القرية كما عرفها العالم القديم . ولم يلبث المهاجر المستعمر الأميركي أن استهوته مساحات المروج الفسيحة حيث اصلاح الأرض أقل صعوبة منه في المنطقة الحرجية ، وحيث تسهل تربية المواشي وزراعة الحبوب . ولكن ضرر الجفاف في ما وراء المسيسيبي كان كبيراً جداً .

أما في نصف الكرة الأرضية الآخر فإن جبهة الاستعمار ما لبثت أن بلغت حدود المساحات الجافة الكبرى . فبرز من ثم « المستعمر » الأسترالي الذي مارس عمل الصوف ، وهو العمل المثمر الوحيد ، أخذاً بعين الاعتبار المناخ والحاجة إلى اليد العاملة وطريقة « وايكفيلد » واحتل أعلى السلم الاجتماعي عدد محدود من كبار الملاكين : فقد امتلك أربعة منهم حوالي السنة ١٨٥٠ أقلها توازي مساحته مساحة بلجيكا ، كما امتلك بعضهم بين ٥٠٠٠٠ و ٧٠٠٠٠ رأس من المواشي .

قامت في « الراس » فئة من الأشراف الريفيين البريطانيين المنشأ ، نظراء « المستعمرين » الأستراليين ، ولكن الـ « فلد » عاد المهاجرين المستعمرين الهولنديين الاصل ، الأوفياء للاعراف البطريركية . فالعائلة البويرية لا تقرأ على العموم سوى التوراة ، وتسعى لأن تكفي نفسها بنفسها ، وتضحي بكل شيء من أجل الماشية . إنه لشعب نمطي ، لا يخضع ولا يقهر ، ساذج وكثير آراء سبق الوهم ، معاد للأسمالي والزنجي اللذين ينازعانه مسالكه وطرقه .

منذ السنة ١٨٦٠ تمازجت مشاريع الاستثمار الحيواني في الولايات المتحدة . فبرز آنذاك « راعي البقر » ، رجل « مناطق الأبقار » ، أي المناطق الواسعة الواقعة وراء المسيسيبي التي اقتاد مواشيه عبر مسالكها في اتجاه خطوط الطول جامعاً بين حرارة ورطوبة الـ « تكساس » ومراعي « بلات » الصيفية . وبعد أن يسلم حيواناته في إحدى « مدن الأبقار » التي يلمع نجمها ويأفل بسرعة ، كان يقامر ويحتسي الحفرة بما ادخره من اجسوره ، ويعتمد على مسدسه الذي يجعله ابداً في جيبه لبلص المسافرين وتوقيف و سلب القطارات الحديدية ؛ أما ما أتته فقد دونها كتاب « مشهد الغرب المتوحش » لـ « بوفالو بل » . ثم اضطر المثال الراعي البعث إلى أن يهاجر أبعد إلى الغرب في الجبال الصخرية .

تقدمت الزراعة الكبرى على غيرها من الزراعات تقدماً حاسماً في منطقة المروج الاميركية وفي الـ « اوتاريو » . فقد حدد قانون السنة ١٨٦٢ المساحة التي يتناولها عقد المزارعة بـ ٤٠ الى ٦٠ هكتاراً . الا ان الجزء الاكبر من الارض باعته اما شركات الخطوط الحديدية واما الولايات والحكومات الاتحادية انصبه اوسع مساحة الى حد بعيد . ولكن محاصيل الارض لم تكن جيدة في اي مكان ؛ فسمى المزارعون بالتفضيل وراء اختيار الاحسن من النباتات والحيوانات ؛ واتسع نطاق الزراعة في المناطق الجافة بواسطة « الزراعة البعلية » ونشط انتاج الالبان في منطقة جديدة حول البحيرات الكبرى . اما الوادي الكاليفورنية ، التي كانت بورة في أمس ، فقد تحولت الى زراعة الحنطة قبل ان تكتشف انها مدعوة لأن تصبح حديقة غناء .

في اواخر القرن تناول التشريع الاسترالي مناطق تربية الغنم الواسعة ، ولما تعاطمت حاجات السكان المتزايدة عدداً ، شوهد ، الى جانب المستعمر المستعمر ، المستعمر « المنتقمي » الذي تعاطى التجارة ببيع « مزرعته المقلدة » حيناً واستثمرها حيناً آخر ؛ يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان الدولة قد حاولت تشجيعه بـ « سياسة مائية » انطوت على حفر الآبار الارتوازية وبناء السدود لاعمال الري . وفي « وايان الجديدة » اتاح المناخ المتميز بمزيد من الرطوبة تربية المواشي الكبرى التي بيعت لحومها في مراكز التبريد في الموانئ ، وقيام صناعة الالبان تراقبها السلطات العامة . بيد ان زيلندا الجديدة هي البقعة التي شابته خير مشابهة دولة اوربية مثل الدانمارك .

اجل لقد تمتع صاحب المزرعة على العموم برفاهية هي اقرب ما يكون الى الرفاهية البورجوازية . ولكنه كان مضطراً لبيع كل شيء حتى يشتري كل ما يحتاج اليه تقريباً ، فارتكزت موازنته في اغلب الاحيان الى الدين الذي جعله يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالقطاع الرأسمالي . ولذلك فرضت المدينة شريعتهما على هذا المجتمع الريفي بتجبر لم يعرفه العالم القديم نفسه .

لم ترصد الظاهرة العمرانية طابع الاتساع العظيم الا في النصف الثاني من مدينة العالم الجديد القرن التاسع عشر . ففي السنة ١٨٥٠ ما زال ١٩ مليوناً من السكان من اصل ٢٣ ، يعيشون في الارياف . وكانت كافة مدن المناطق الجنوبية متواضعة جداً . اما في السنة ١٩٠٠ فقد عاش في المدن ٣٠ مليوناً اميركياً من اصل ٧٥ ؛ وكان هناك اكثر من ثلاثين مدينة يزيد سكان كل منها على ١٠٠ ٠٠٠ نسمة ويبلغ مجموع السكان فيها كلها ١٢ مليون نسمة . ومنذ السنة ١٨٧٠ قفز سكان شيكاغو من ٣٠٠ ٠٠٠ الى ١ ٧٠٠ ٠٠٠ ، وتجاوز سكان نيويورك الـ ٣ ملايين وسكان فيلادلفيا المليون . وفي هذا المجال كان التطور متواضعا في افريقيا الجنوبية ، وناشطاً في كندا ، وسريماً جداً في استراليا حيث جمعت سيدني وملبورن وادلايد ، في السنة ١٨٩٠ ، ربع مجموع السكان العام ، وحيث ضمت ملبورن وحدها نصف سكان ولاية فيكتوريا تقريباً .

فنحن من ثم امام ظاهرة تكاثر المدن الجديدة السريعة النمو . وكانت المدينة ، على الجبهة الاستعمارية ، مجموعة اولية تضم الحانات والكنايس والمدارس ودور البريد لكل تقسيم اداري . فكانت من ثم استجابة لوظيفة المقايضة التي لم تلبث ان فرضت نفسها على اهالي الارياف . ولكن غالباً ما كان المنجم او المصنع سبباً لقيام المدينة . وفي مثل هذه الحال نرى ان اعتماد الاسماء بعيد الفكر الخلاق بقوة الى الذاكرة : بسمر ، اتنا ، كرنجي ، مونسن (استن ومونونفاهيدا) - حول بتسبورغ ، وايرونتون ، وايرونمونت ، وايرونود في اماكن أخرى . وهناك كذلك عواصم تأسست لايواء المصالح الحكومية والادارية ، كواشنطن مثلاً .

لقد ولّى الزمان الذي كان ممكناً فيه ابتياع « كل مستنقع شيكاغو اللعين » بزوج احذية عتيقة ، كما زعم بعضهم في عهد لاحق . وقد اعطى المثل « جون استور » تاجر الفراء بسرائمه بعض الاراضي في نيويورك ؛ فان احد ابناؤه ، الذي توفي في السنة ١٨٧٥ ، قد خلف وراءه ثروة تقدر بـ ١٠٠ مليون دولار تشمل من جملة ما تشمل ٧٠٠ عقار على ضفاف نهر هودسن ؛ وفي السنة ١٩١٢ ، اصبح رأسمال آل استور ٤٥٠ مليون دولار بفضل ابتياعات جديدة وارتفاع الدخل العقاري . وفي شيكاغو ارتفع ثمن الـ ١٠٠٠ متر مربع من ٢٠ دولاراً في السنة ١٨٣٠ الى مليون دولار في السنة ١٨٩٢ .

ان في انتساق تقسيم المساحات الواسعة ، المصوحة هندسياً ، ما يفسر التصميم الشبيه برقعة الشطرنج . فالى الشرق من الاطلسي يسير الشارع كما تسمح بذلك المنازل ، لأن تصميمه يفرضه رسم الاملاك غير المنتسق ؛ اما هنا فالمنزل يشيد على جانب الشارع . وينجم عن ذلك وحدة سياق مفرطة يتعري الانتباه اليها ترقم الشوارع . فان كثافة السكان في شيكاغو ، البالغة مساحتها ٤٤٠٠٠ هكتار ، وفي فيلادلفيا البالغة مساحتها ٣٥٠٠٠ هكتار ، هي ربعها في لندن الاولى وخمسها الثانية .

كانت نتيجة هذا الاتساع المفرط تشتت المساكن التي كانت على العموم قليلة الارتفاع ومبنية بالقرميد . ولم تظهر الابنية المرتفعة الا بعد السنة ١٨٨٠ في الاحياء التجارية حيث اكتسبت الاراضي قيمة كبيرة جداً : وهكذا انتصبت ، حوالي السنة ١٨٩٠ ، عند رأس مانهاتن في المدينة المنخفضة ، القريبة من المرفأ ، زهاء ثلاثين بناء يتراوح عدد طبقاتها بين ١٠ و ٣ ؛ وقد شيدها بعض الافراد الاثرياء او شركات التأمين او المصارف . وعلى مسافة قريبة من هذه الابنية الشاهقة التي اوت الحازن والمكاتب ، انبسطت منطقة من المساكن المدخنة والمهلمة التي تحلّي عنها تدريجياً للمساكين الفقراء ؛ فكان ان الكوخ الخشبي قد جاور ناطحة السحاب في بعض الاحياء ؛ ثم انبسطت بعد ذلك مدينة صناعية جديدة احاطت بها احياء سكنية . فالقسم الشرقي من المدينة المنخفضة في نيويورك هو حي العمل الشاق ؛ وتكون مركز ثقل للاعمال والسكن في وسط المدينة . فتجاوبت مجموعات مختلفة قطعت مناظرها العامة الخطوط الحديدية

والمؤسسات الصناعية . اما في ادلايد فكانت مدينة العمل ومدينة السكن منفصلتين تحيط بكل منهما الحدائق والرياح . وبدت المدن الاوسترالية من جهة ثانية احسن نظافة وافضل تنظيماً : فقد رصفت شوارعها بالاشباب ، ولم تكن مساكنها المتشابهة لتظهر الفوارق الاجتماعية ، على نقيض مدن الولايات المتحدة حيث تميزت احياء الاغنياء عن احياء الفقراء تميزاً جافاً . وقد وصف المسافرون باعجاب مساكن الاثرياء الجميلة في بوسطن وفيلادلفيا ونيويورك ؛ وهكذا فان البارون « دي هوبنر » قد دهش حوالي السنة ١٨٧٥ في شيكاغو من « جادة ميشيفان الشهيرة ... » ، حي كبار الاثرياء ، ومساكنها البذخية الزاهية ، الحشبية كلها ، والمسقوفة بالجلس ، والمبنية وفاقا لشق الانماط ، الايطالي ، والكلاسيكي ، والمستحسن ، والقوطي والروماني ، والمحاطة كلها ، اقله من جهة المدخل ، بمحذات جميلة صفراء ... ولكن غبار الصيف واوحال الشتاء كانت آفات حقيقية . فقد لاحظ احد من الجادة الخامسة في نيويورك تكاد لا تفضل غيرها تمهداً وعناية ونظافة ؛ اقدار في كل مكان ؛ وحاجة ماسة في كافة الفصول الى استعمال احذية من المطاط . اما في كندا ، فقد ذكر احد من ان الشوارع الوحيدة المرصوفة بالبلاط هي شوارع تورونتو و « وينيبغ » . ولكن الاثارة افضل منها في المدن الاوروبية ، على ان البواليع ما زالت في حالة سيئة والمياه تنقطع احياناً . ومنذ السنة ١٨٧٨ ، دشنت « بوفالو » تدفئة مركزية بخارية ما لبثت ديترويت ونيويورك ان اعتمداها بدورها . وتعددت وسائل الانتقال ، وعلى نقيض المدن الاوسترالية ، الهادئة نسبياً بفضل مركباتها العامة التي تجرها الاحصنة ، اذهلت المدن الاميركية الاجانب بضخيم السير في شوارعها .

تميزت المدن الاميركية كذلك ببرقشة سكانها العنصرية . ففي نيويورك ، كان للايطاليين والاييرلنديين واليهود والزوج احياءهم الخاصة . ولم تزل « البوتقة » قط هذه الخصوصيات ؛ ولكنها خلقت وازافت الى كل مثال خاص مثلاً اميركياً هو المثال المشترك .

احتلت الولايات المتحدة بين العوالم الانكلوساكسونية
حضارة الآلة في الولايات المتحدة
والاعمال الكبرى
مركزاً خاصاً متفوقاً حقاً . ولم تكن مدينة به للامكانات
الكبرى التي وفرتها البيئة الطبيعية فحسب ، بل لطبيعة
شبهها الخاصة ايضاً . وقد سقى « توكفيل » ولاحظ ان « المصلحة هي الرابطة » الجامعة بين
العناصر « المختلفة جداً » التي يتكون منها هذا الشعب . فان هذه الامة ، التي لا ماضي لها
والتي لا وثق تشدها الى الارض ، تألفت من جماعة من البشر وضعوا نصب اعينهم الرفاهية
المادية التي حققوها بخير الطرائق فمالية . وقد تميزت بغلواء الشباب المقتحم مغامرة كبرى والعامل
في كل ما هو جديد .

حضارة جماهيرية ، كما هو محتوم . فالجغرافية نفسها قسمت القارة مناطق واسعة متشابهة .
فقابل تشابه الطبيعة تشابه العمل البشري . اضيف الى ذلك من جهة ثانية ان الخيار لم يكن جائزاً .

فاما يحكم هذا المجتمع على نفسه بالاملاق ، واما يقبل بالمنتجات « الموحدة » .

في كنف التعريفات الحامية ، وبفضل مجهود تقني كبير استهدف تخفيض النفقات العامة وزيادة الانتاجية ، وبواسطة الاعلان الذي دعا الجماهير بالحاح الى زيادة استهلاكه ، اصبحت اميركا بالتالي بلاد الصناعة النسقية وانتاج القطع القابلة للتبديل . ثم اتضح مكان كل من النشاطات جغرافيا ، بعد ان سهّل تمييزه بناء شبكة خطوط حديدية واسعة جداً . ورافق تجمع رؤوس الاموال انتاج الكميات الكبرى ، بينما تكاثرت الى جانب المشاريع الكبرى وفي ظلها الحرف المنزلية الصغرى التي تجمعت في حي العمل الشاق .

جرت اوروبا شيئاً فشيئاً الى الاستفادة من خدمات الآلة ؛ ولا غرو فان سكان العالم الجديد مدينون لها بكل شيء . فهي التي تزرع الحنطة وتحلج القطن وتقتل الحيوانات في المسلخ وتقطعها . فهم سوف يستلمون منها بملء رضام المواد الغذائية والملابس والاحذية النسقية ، وسوف يأتمنونها على بناء منازلهم التي ستكون متشابهة بالضرورة . وهي توفر الكمية وتسهم في الوقت نفسه في تخفيض الاسعار . ان عملها لعمري لعمل استبدادي . ولكنه عمل مفيد في نظر الجماهير التي تطالب بحاجيات تكون في متناول ايديها .

لنتصور انطلاقة الصناعة . لقد ضمت ١٤٠٠٠٠ مؤسسة في السنة ١٨٦٠ ، و ٣٥٥٠٠٠ في السنة ١٨٩٠ ، و ٥١٢ الفاً في السنة ١٩٠٠ ؛ وربما بلغ رأس مالها ٤٧ ملياراً في السنة ١٨٩٥ ، مقابل ٢١ في بريطانيا العظمى ، و ١٧ في المانيا ، و ١٤ في فرنسا . ومن المسلم به من جهة ثانية ، ان ثروة الولايات المتحدة قد تضاعفت اربع مرات بين السنة ١٨٦٠ والسنة ١٨٩٠ (في حال ان الدخل قد تضاعف مرتين فقط) . ولم تعرف اية دولة اوروبية مثل هذا التقدم في حقول التجيز وصناعة مواد الاستهلاك . وان علم الاحصائيات الذي دون هذه النتائج المرضية قد أصبح هو نفسه موضوع عبادة : فقد اخذ الاميركي يقدم الارقام كخير البراهين الثابتة على تفوقه . ووطن نفسه على انه تقبل نصيب « الاعظم في العالم » ، وعلل نفسه منذ ذلك الحين بأبه سيممكن قريباً من ان يكون موطن العالم كله .

الا ان هذه التقنية المتطورة تطوراً دائماً قابلتها منافسة حادة جداً اعتبرت ضرورة حتمية . اجل تقدمت الارستوقراطية بعض التقدم ، ولكن بورجوازية اعمال كبرى نمت في النصف الاول من القرن ، فألفت طبقة منفتحة لأعداد كبرى تتجدد وتزداد ثروة في كل جيل . وقد نال اعجاب الناس « الرجل المكون نفسه بنفسه » : يولد فقيراً ويتصرف ، حين يصبح من اصحاب الملايين ، - وستتكلم قريباً عن اصحاب المليارات - تصرف « النحلة العاملة التي تودع القفير الصناعي العسل الذي ان يتأخر سكان القفير ، والمجموع بصورة عامة ، عن الاستفادة منه » . هكذا تكلم « كرنجبي » .

كان اتساع الحقل المفتوح أمام النشاط ، واهمية المشاريع ، وحتى نزعة السكان المسرفين

الى استخدام المصنوعات الموضوعة تحت تصرفهم استخداماً سريعاً ، عوامل مؤاتية كلها لتقدم الاعمال . فأميركا بلذ المصارف العنيفة والارتفاع المدوخ في الاسعار ؛ فلا عجب من ثم اذا ما تحركت المبادعات ، وتضخم حجم الوسائل النقدية تضخماً فجائياً ، وارتفعت الاسعار ، وارتفعت المكاسب بمزيد من السرعة أيضاً : كل شيء مرجو وجائز كما يبدو . وطبيعي ان مثل هذا الدور لا يمكن ان يدوم طويلاً : فكما في أوروبا ، لا بل اكثر من أوروبا ، حدثت انهيارات مفعمة ؛ وحدثت بالتالي عملية اختيار طبيعية ، سقط الضعفاء خلالها الى الحضيض ، وتلتها عملية تمكين كانت نقطة الانطلاق لمرحلة صعودية جديدة .

كانت النتيجة الطبيعية لمثل هذه الحركة السريعة (على الرغم من التبذير الصناعي) تقوية سيطرة رؤوس الاموال الكبرى . فمن أصل ٥١٢ الفاً ، استخدمت ٤٥٤ الف مؤسسة مليون اجير ونصف المليون ؛ ولكن ١٢ الف مؤسسة اخرى ضمت مليونين ونصف المليون : وربما راقب ٢٥ الف شخص نصف الاعمال الصناعية .

لا ريب في أن الحدث الرئيسي كان تقدم الصناعة الثقيلة الفروع الكبرى لملم الاعمال الاميركي تقدماً عجيباً نادراً . فمقابل مليوني طن حديد و ٤٠٠ الف طن فولاذ في السنة ١٨٧٥ ، انتجت الولايات المتحدة اكثر من ١٠ ملايين طن حديد و زهاء ٥ ملايين طن فولاذ في السنة ١٨٩٠ ، حين انتزعت الاولوية من بريطانيا العظمى . وقد توفرت لصناعة المعادن هذه موارد نادرة من الوقود والمعادن غير الخالصة . فهناك من جهة استخراج الفحم الحجري الذي ارتفع انتاجه من ٧ ملايين طن في السنة ١٨٥٠ الى ٢٥٠ مليوناً في السنة ١٩٠٠ ؛ ومن جهة اخرى مناجم المعادن غير الخالصة التي احتلت الولايات المتحدة ، بالنسبة اليها ، المركز الاول ايضاً . وقد تقاربت تجمع هذه الاعمال ، فكان في صناعة الفحم الحجري دونه في صناعة النحاس مثلاً التي اشرفت عليها خمس شركات خضعت هي نفسها لسيطرة رأسماليي بوسطن ونيويورك ، او في صناعة القصدير التي اشرف عليها « مور » ، ملك التنك ، بالاشتراك مع « شركة التنك الاميركية » . وهي ارادة روكلر ما ادارت حقل تجارة النفط ، اذ ان شركة « ستاندرد اويل تراست » قد روجت زهاء ٩٠ بالمائة من هذه المسادة في الاسواق . وقامت كذلك مشاريع كبرى في صناعة الفولاذ ؛ وكان كرنيج على رأس احدها في بتسبورغ ، ودعا الى تأليف تجمع يكون أعظم مشروع عالمي في حقل الفولاذ . وبعد خصام طويل وعسير خضع ثلثا الخطوط الحديدية لسيطرة بهض الفئات التي كان يرعاها « فاندربيلت » ، و« بيبير بونت مورغان » ، و « هاريمان » ، و « غولد » ، بينما اخرج « بولمن » من مصانمه في شيكاغو اكبر عدد ممكن من مقطورات السكة الحديدية . وترأس غولد كذلك شركة « تلفراف الاتحاد الغربي » التي كادت تحتكر صناعة الاسلاك احتكاراً فعلياً . ووزعت شركة « بل الاميركية للهاتف » ، خلال عشر سنوات ، مليوني دولار تمثل ارباح رأسمال يبلغ ١٠ ملايين دولار ، وقامت بعد انتشار الاضاءة الكهربائية ثلاث قوى اخرى : « ادسون جنرال اليكتريك » ،

و « طومسون - هوستون » ، و « وستنكهموس » . وبدأ « دوبون دي نور » عملاً واسعاً في المواد الكيميائية .

إذا انتجت صناعات الحديد والفلوآذ والآلات والادوات الاجهزة التي تحتاج اليها النشاطات الاخرى ، فهي التغذية والمنسوجات ما احتل المركز الاول بالنسبة لقيمة رؤوس الاموال الموظفة . فان صناعة معلبات اللحوم مثلاً قد عرفت شركتين او ثلاث شركات كبرى كشركة « ارمور وسويفت » في شيكاغو التي توصلت بفردتها ، في مصانفها الواسعة (٢٥٠ هكتاراً) الى تقطيع وتوزيع بين ١٠ و ١٢ مليون حيوان ، وزادت أرباحها بصناعة المنتجات الثانوية: العظام والقرون للاسمدة ، الشحوم للصابون والكليسرين ، والدم للآزرق البروسي ، وشعر الخنزير للفراشي ، وشعر الثيران للفرش . وبلغ التجمع كذلك شأواً بعيداً في تكرير السكر لمصلحة « شركة تكرير السكر » ، بينما قام « ديوك » بدعاوة فاشطة للفائف التبغ وأسس « شركة التبغ الاميركي » .

ما زال الشهاك الغربي منطقة صناعة النسيج الاولى ، وعلى الرغم من ان « شارع القطنيات » في كارولينا وجورجيا ، القريب من المادة الخام ، قد أخذ ينافس المناطق الاخرى منافسة جدية ، فان « ماساشوستس » و « رود - ايتلند » و « كونكتكت » ما زالت متفوقة في هذا المضمار . فان هذه الولايات قد تربعت مع بنسلفانيا على عرش المنسوجات الصوفية ، ولكن « باترسون » هي التي بلغت ، في سنوات قليلة ، مستوى « ليون » و « ميلانو » في صناعة الحرائر . وقد خرجت من مشاغل نيويورك وفيلادلفيا العائلية الوفيرة العدد الالبسة الجاهزة التي تسلّم الى تجار جملة يزودون بها المخازن الكبرى بدورهم ؛ وبرع المهاجر اليهودي في هذا العمل بفضل آلة خياطة انتجها مصنع « اليزابيت » ، فكان يفصل ويشرح ويصنع العنبرى ويكوي ، لحساب المخازن الكبرى .

وزادت في الوقت نفسه سرعة التجمع المصرفي . فليس هناك ، خارج الشهاك الشرقي ، سوى ١٤٠ مؤسسة من اصل ٢٧٠٠ ، وكانت الحركة المصرفية تصدر عن « وول ستريت » الذي ارتفع مجموع معاملاته المالية الى ٣٥ مليار دولار في السنة ١٨٩٠ . اضف الى ذلك ان معظم الشركات الصناعية رغبت في ان يكون مركزها في « مانهاتن » حيث يخفق قلب « الاعمال الكبرى » .

ولم يعن كل ذلك ان اميركا اهتمت اهتماماً كبيراً لاجراء مقايضاتها الخارجية في ظل علمها الخاص . وقد قال كرنجبي : « فلتترك البحر الهائج للوطن الام القائم في وسط الامواج ولتكتف بالارض التي هي تراثها القومي » ! لذلك كان الاسطول متأخراً متأخراً بينما عن اسطول بريطانيا العظمى : ففي السنة ١٩٠٠ لم يكن محموله نصف ما كان عليه في السنة ١٨٦٠ . زد على ذلك من جهة ثانية ان التجارة مع الخارج قد تماظمت وان الميزان كان دائماً مع اورروبا : فاحتسى الاتحاد بتمرفاته ووسع تجارته مع آسيا واميركا اللاتينية ، فساعد ذلك على نمو كاليفورنيا ومرفأ سان

فرنسيسكو . . . ولن تلبث الولايات المتحدة ان تصاب بداء الاستعمار الاقتصادي .

سياسة المصالح الكبرى في
الولايات المتحدة

جاز لانغز ان يكتب لاحد مراسليه في السنة ١٨٩٢ : « قد قدم
الاميركيون للعالم الاوروبي ، منذ زمن غير قريب ، الدليل على
ان الجمهورية البورجوازية هي جمهورية رجال الاعمال ، حيث
السياسة عمل تجاري كغيره . . . » ويكاد الاميركيون يعترفون بذلك في الواقع .

قدم كرنجي كتابه ، « الديمقراطية الطائفة » ، للجمهورية العزيزة التي تتيح لاي شخص كان
الارتقاء في السلم الاجتماعي يحده وكده ، وخلص الى القول : « لا تتم التسوية بازال الناس من
مرتبة الى مرتبة بل برفعهم كلهم الى كرامة « المواطنة » التي هي ارفع كرامة يمكن ان يتوق
اليها الانسان . . . لقد ولى الزمان الذي جاز ل « توكفيل » فيه القول بأن الناس كلهم يسهمون
إسهاما ناشطاني الشؤون العامة ؛ فقد ارتفعت نسبة الامتناع عن هذا الاسهام كلما ارتفعت نسبة المنتمين
الى الطبقات الجديدة من المواطنين المقترين الى مزيد من الثقافة والى الخبرة في النظام التمثيلي .
ولما كان كل شيء يرد ، من جهة ثانية ، الى الصراع بين فريقين يعرف اولهما بالفريسي الجمهوري
والثاني بالفريق الديمقراطي ، كان من الهمية بمكان ، قبل أي شيء آخر ، ان يشجع الفريق
الحاكم دائرة المصالح التي يتحرك فيها . فنجم عن ذلك ان المصالح الكبرى هي ما قررت
الاتجاه الحقيقي للتشريع والرئاسة . وصعب من ثم على اعظم الحكام نزاهة الوقوف في وجهها .
ومرد ذلك الى ان الحملات الانتخابية باهظة الاكلاف ، ولا سيما حملات انتخاب الرئيس السقي
تستلزم جهوداً اعلانياً كبيراً جداً . وان مثل « تاماني هول » الزعيم الديمقراطي الايرلندي في
نيويورك ، الذي عمل بنصيحة « تويد » ، تاجر الكراسي المفلس ، واختلس قرابة ٥ مليون دولار
في اعقاب حرب الانفصال ، ليس مثلاً نادراً . فان « غرانت » ، الجندي الطاهر الذليل ، قد
اغضى عن اختلاسات بطانة تتناول عمالاتها من الميائة ؛ كما ان كليفلند ، الرئيس الديمقراطي
الذي اكسب مدينة « بوفالو » ، بوصفه محافظها ، دعوى على متمهد البواليع ،
وتجاسر ، بوصفه حاكم ولاية نيويورك ، على محاربة « تاماني هول » ، قد انتهى الى إثارة
استياء حزبه الخاص بامتناعه عن تطبيق « مبدأ تقاسم مكاسب الانتصار » على نطاق واسع ،
واستياء التجمعات النقابية التي لم يكن موافقا على قيامها ؛ ودان خصم كليفلند ، هارسون ،
بنجاحه ، لانتقال الاصوات في ولاية نيويورك الهامة بواسطة حاكمها السريع التأثر بالعروض .

بالاضافة الى الامتيازات وتلزيات الأشغال الكثيرة التي تسند لاصحاب التعمدات الخاصة -
وهي معارك يومية - ، عادت للاتحاد كذلك المسائل الكبرى المحركة والنقدية . فكيف
تنظم العلاقات التجارية بالخارج يا ترى ؟ فضل الديمقراطيون تخفيض التعرفة لأنهم لا يستطيعون
الفوز الا بمساندة المزارعين والمستهلكين الذين اعتبروا ان السوق الاميركية المقفلة انها هي سوق
تسلط عليها الصناعة . اما المسألة النقدية ، وهي مسألة أكثر تعقيداً ، فقد فرقت بين رجال
الاعمال الذين طالبوا اما بنقد سليم واما بوفرة النقد التي تحرك الصفقات ، فقال الفريق الاول

باعتاد المعدن الواحد اساساً للنقد ، وقال الفريق الثاني طوعاً باعتماد المعدنين . وقد ضم هذا الفريق الاخير منتجي الفضة في المناطق الغربية ، والمزارعين ، الدائنين منهم والمصدرين ، الذين كانوا يفضلون التضخم . ثم انضم رجال الاعمال الكبرى الى الفريق القائل باعتماد المعدن الواحد (الذهب) خلال فترة تجدد الازدهار الممتدة من السنة ١٨٩٥ الى السنة ١٩٠٠ .

بقيت هنالك مسألة حرية العمل . فحين يمرض التشريع لتجميع النقابي ، انما يستهدف الدفاع عن الفرد . ولكن انصار التحالفات الصناعية ، بالإضافة الى انكارهم على السلطات العامة حق التدخل في هذا المجال ، تذرعوها بمصلحة المجموع التي تخدم خدمة فضل بتحسين تنظيم السوق . والحال اجاز العرف للولاية التعاقد مع المؤسسات التي تلعب دور الادارات العامة ؛ وفي سبيل اجتذاب رؤوس الأموال ، كان باستطاعة المجلس التشريعي الاجازة لاحدى الشركات بشراء اسهم اية شركة أخرى ، مشجعاً بذلك « الاحتكارات » (وقد اعطت ولاية نيوجرسي المثل في السنة ١٨٨٨ لمصلحة شركة « ستاندرد اويل » المهتدة بخطر الافلاس) . وليس « قانون التجارة بين الولايات » الذي استصدره كليفلند في السنة ١٨٨٧ سوى حق التحقيق في التصرفات السيئة المتناقضة وحرية التجارة . الا ان ولايات غربية عدة قد استخدمته ضد شركات الخطوط الحديدية . ولكن « قانون شرمن لمقاومة التجمع النقابي » اسند أمر التقرير للقاضي . ولما كان روكفلر هو المقصود آنذاك ، فقد توصل الى كسب الوقت ووجهه في مبدأ « الاحتكار » وسيلة للدوران حول القانون .

شعر سكان المروج منذ عهد مبكر جداً بارتباطهم بالمدينة ، فأثار هذا الشعور منذ عهد جاكسون خصومة بين الشرق والغرب . وكان ممكناً ان يفكر هذا الاخير بمدّ يده للجنوب الذي يرتكز الى اقتصاد ريفي ايضاً : وهو تحالف استند اليه ديموقراطيو الساعة الاولى ثم تجدد عقده بين حين وآخر . ولكن مجتمع « اصحاب المنازل » ، الملاكين المتوسطين ، كان مختلفاً عن مجتمع المزارعين الجنوبيين . وقد نفر كذلك من التحالف مع طبقة الكادحين في المدن .

معاوضة المزارعين في الولايات المتحدة

وهكذا كلما انفجرت أزمة ، قام الغرب بحركة سريعة الزوال . فبعد حرب الانفصال حدث اختلال بين اسعار المحاصيل الزراعية التي هبطت واسعار المنتجات الصناعية التي ارتفعت . فاعلن المسؤولون في احدى الجمعيات المعروفة باسم « التبّير » انهم اعتمدوا النظام التعاوني وحلوا احد عشر مجلساً استراتيجياً في الولايات على استصدار « قوانين نهريّة » ضد التعريفات التفضيلية او التمييزية التي وضعتها شركات الخطوط الحديدية . ثم تعاضمت هذه الحركة في فترة انخفاض الاسعار الكبير الذي عقب ازمة السنة ١٨٧٣ واصاب القطاع الريفي بصورة خاصة . وقد بلغ عدد « التبّيريين » ١٥٠٠٠٠٠ في السنة ١٨٧٥ ، لابل انضم شطر منهم الى « الاتحاد القومي للعمل » بغية انجاح برنامج تضخمي ، وهو برنامج الاوراق النقدية . ثم رافق تجدد الازدهار في السنة ١٨٧٩ هدوء وقتي . وانما لوحظت منذ السنة ١٨٨٣ معاودة الهيجان بادارة « التحالف

القومي للمزارعين». فقد ارتسمت مرة أخرى حركة شعبية تقدمت بمرشح للانتخابات الرئاسية في السنة ١٨٩٢. أما في السنة ١٨٩٦ فقد انضم المزارعون الى «براين» المرشح الديموقراطي وخسروا معه معركة اعادت الى الحكم لمدة طويلة الجمهوريين القائلين باعتماد الممدن الواحد، المغربين لارباب الاعمال الكبرى. وسيستفيد الجمهوريون هؤلاء من عودة السنوات الخيرة. وقد اوصى كتاب «هنري جورج»، «تقدم وإملاق»، الذي صدر في السنة ١٨٧٩، بالصراع ضد التدخل العقاري بوحاطة الضرائب التصاعدية؛ فلم تحدث هذه الاشتراكية الزراعية سوى صدى ضعيف.

بات عمال الولايات المتحدة احدى اكبر الطبقات العاليسة
 عدداً في العالم. ولكن اميركا كانت قد عانت لمدة طويلة
 من حاجة حقيقية الى اليد العاملة بسبب ضخامة الاعمال
 الواجبة التنفيذ: فتألفت من ثم طبقة اولى، «يانكية» جداً، متمسكة بالحرية الفردية وغير
 قابلة للتأثر بالمذاهب المختلفة، ومتقاضية اجوراً على بعض الارتفاع. وفي الواقع كانت لجاذب
 هذا الارتفاع الثراء الكبير في الهجرة الواسمة التي حدثت في منتصف القرن. ولكن طبقات
 جديدة برزت، متميزة بالفقر والامية والبعده عن كل رأي سياسي. وهي هذه العناصر التي
 قامت بالاعمال الصعبة لغناء اجور متدنية رغذت حي و العمل الشاق». وفي السنة ١٨٨٠ بلغت
 نسبة اليد العاملة النسائية ٢١٪ - وهي اعظم ارتفاعاً الى حد بعيد في صناعة المنسوجات -
 وشميت الصناعة ١٧٠٠٠٠٠ فقي نغراوح اعوامهم بين العاشرة والخامسة عشرة (١٨٪). وقد دروت والأم،
 «جونز»، المناضلة النقابية، ان معدل ساعات العمل في مناجم الفحم الحجري في بنسلفانيا
 كان ١٢ و١٣ ساعة، او ١٤ ساعة احياناً؛ وان لا قانون يحمي جسم عسكالم المناجم او
 حياتهم. وان العائلات تعيش في مساكن الشركة الحظيرة التي قد لا تقبل بها الخنازير نفسها.
 وان مئات الاولاد يموتون بسبب جهل وفقر آباؤهم». وقد بينت الاحصاءات ان العمال كانوا
 يعملون ستين ساعة في الاسبوع في السنة ١٨٥٠، وستارستين في السنة ١٨٦٠، ولسماً وخمسين
 فقط في السنة ١٨٩٠ (بينما ارغم المياومون الزراعيون على العمل بين سبعمين واثنتين وسبعمين
 ساعة). ولفت انظار كافة المراقبين ارتفاع عدد حوادث العمل. فقد ورد في «مذكرات،
 «جول هوريه». «انها لذايح دائمة. لا يتخذ اي احتياطات للمحافظة على حياة العمال؛ ولما
 كانت الشركات كلية الافتدار، والحاكم واذمة تحت سيطرتها، والقانون نفسه مسخراً لخدمتها
 لم تعر الامر اي اهتمام». وسوف يسجل «امتون سنكلير»، في الفترة الممتدة من السنة ١٩٠١
 حتى السنة ١٩٠٤، ١١ ألف وفاة و ٢٥٠ ألف اصابة بحروح مختلفة. واذا ما نظرنا الى مجموع
 الفترة ١٨٥٠ - ١٩٠٠، لتبين لنا ان معدل الاحور لم يرتفع بسببة ارتفاع الانتاج والارباح.
 فقد حدث ارتفاع يسير من حرب الامهصل عقبه بعض التوقف؛ لا بل تيز الممدان ١٨٧٠ -
 ١٨٨٠ و ١٨٩٠ - ١٩٠٠ بتدني القيمة الاسمية، اذ ان العامل لم يشمر بالصيق نفسه شلال

المقد ١٨٨٠ - ١٩٠٠ بسبب هبوط الاسعار الزراعية . وكانت الاجور في الغرب ، المفتقر الى اليد العاملة ، اعلى منها في الجنوب بنسبة كبرى ؛ كما ان اجور عمال صناعة المعادن كانت اعلى من اجور عمال صناعة المنسوجات ؛ وربما بلغ الفرق بين اجور العمال الزراعيين واجور العمال الاختصاصيين نسبة ١ الى ١٠ .

يبدو ان اجر العامل الاختصاصي كان اعلى من اجر اي عامل ماهر في اوربا^(١) . ولما كان المأكل والملبس اقل ارهاقاً لموازنة العائلات العالية ، فقد خصص للسكن مبلغ اكبر (ويقدر ان ١٢٪ كان لهم بيوتهم الخاصة مقابل ١٪ في اوربا) . ولكن المسكن اختلف اختلافاً كبيراً بين مدينة واخرى : فقد اشتهرت بلتيمور وفيلادلفيا بسعة الميش فيها (ويقدر ان بين ٩ و ١٧٪ من البيوت العالية كانت مزودة بغرف للاستحمام) ، على نقيض نيويورك التي كانت مساكنها متوسطة ، و « اورليان الجديدة » التي كانت تعتبر غير صحية اطلاقاً . وبصورة عامة لم يدخر العامل شيئاً من اجوره ، بل انفقها كلها يومياً وربما لجأ الى الاستدانة .

ان البيئة تعزز القناعة بان حظ كل انسان في تناول يده : وقد ابدى انغلز في رسالة يعود تاريخها الى السنة ١٨٩٢ هذه الملاحظة : « يتصور العامل الاميركي ان المجتمع السورجوازي هو ، بطبيعته ، وفي كل زمان ، تقدمي ومتفوق ولا يماو عليه مجتمع . لا يفكر بالدفاع عن وضعه الا في نطاق عمله ، ولا يهتم اهتماماً كبيراً بالنشاط السياسي . اضع الى ذلك من جهة ثانية ان السلطات العامة تقدم لارباب العمل مساعدة فعالة : فالشرطة الاميركية تتدخل بقوة ، وحتى بوحشية احياناً ، والجيش يساندها اذا ما مست الحاجة الى ذلك . واذا ما تسربت الفوضوية الى داخل الحركة العمالية ، فان هذه الحركة لا تتأثر بالدعاوة الاشتراكية .

لقد قامت قبل السنة ١٨٤٨ حركة مطالبة بالحقوق ارتدت طابعا نقابياً وتعاونياً . ثم ظهرت مرة اخرى « اتحادات عمال التجارة » اثناء الحرب الاهلية وطالبت بان تحدد ساعات العمل في اليوم بثمان واربعين ساعة . وتبنى «الاتحاد القومي» هذه المطالبة في برنامجه للسنة ١٨٦٦ ؛ ووقف كذلك موقفاً ايجابياً من التعاون وموقفاً سلبياً من التضخم ؛ ورغب في تحسين مصير الزنوج وتحرير المرأة . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان الهيجان طالما تجدد خلال « العهد المذعّب » الذي عمت فيه الرشوة وتكاثرت الفضائح المالية ؛ ولكنه استمر كذلك خلال فترة الهبوط التي عقت ازمة السنة ١٨٧٣ بسبب توسع البطالة وتدني الاجور تدنياً نسبياً . وبينما لجأت بعض الجمعيات السرية ، كجمعية « مولي ماغواير » ، الى اعمال الارهاب في منطقة المناجم في بنسلفانيا ، انفجرت اضطرابات كثيرة كان اعظمها دوبا اضراب عمال السكك الحديدية في بلتيمور وبتسبورغ في السنة ١٨٧٧ : ادخل المضررون مئات القاطرات الى مستودعاتها في بتسبورغ ، فأشعل فيها النيران بعض العملاء المحرضين ودمروها تدميراً تاماً ؛ وعلى الرغم من

(١) راجع الرسم البياني في الصفحة ٣٠١ .

اغضاء قوى الامن عن العمال ، كانت الكلمة الاخيرة للشركة التي صرفت العديد من المستخدمين واستبدلتهم بمهاجرين من اوروبا الوسطى .

في اعقاب هذا الفشل ، ظهرت « جمعية فرسان العمل » ، المنظمة التي كانت سرية من ذي قبل ، فأوصت بانهاض الطبقة العمالية عن طريق التربية والعمل على السواء . وبعد ان كانت اعضاؤها متدينين ومسالين جداً ، اصبحوا اشد ميلاً الى الكفاح تحت تأثير الاحداث . وقد تعاطف نفوذهم حين استحصولوا من « غولد » على اعادة استخدام عمال مصروفين بسبب انقطاعهم عن العمل . وفي السنة ١٨٨٦ كان عددهم قد بلغ اكثر من ٧٠٠ الف ، ويقال ان مشايخهم بلغوا الملايين . فأجاب ارباب العمل على الاضرابات التي تجددت وتكاثرت مرة اخرى بالصرف المؤقت . وحين حدثت بعض الاضرابات في مؤسسة « ماك كورميك » في شيكاغو بتأثير دعاوة الفوضويين ، اهتم عدة مسؤولين في الجمعية باقارتها وادينوا .

برز حينذاك بدوره الاتحاد الاميركي للعمل الذي اقترح اقامة مظاهرة في اول ايار من السنة ١٨٨٦ للمطالبة بتحديد ساعات العمل بثماني ساعات . وقد رغبت هذه الجمعية الجديدة ، التي امتدت فروعها الى كندا ، في تنمية نقابية على اساس المهنة ورفضت بمزج فكرة الصراع الطبقي ، كما رغبت في مفاوضة ارباب العمل في تحسين وضع العمال تحسيناً تدريجياً . ففازت بالساعات الثماني للنجارين ، ولكن اضراباً اعلن في مصانع كرنجبي للفولاذ في « هومستد » وقع بالقوة : فصرف ٢٥٠٠ عامل لانضمامهم الى الاتحاد المحلي ، فأتاح هذا النجاح للملك الفولاذ العظيم تطهير كافة المؤسسات التي كان يشرف عليها . وبعد مرور سنتين ، رفض الاتحاد مساندة اضراب اعلن في مؤسسة « بولن » في شيكاغو ، فأعدت قوى الامن النظام الى نصابه . يضاف الى ذلك ان ردة فعل ارباب العمل ستشتد بعد تحسن الاحوال الذي ارتسمت دلائله منذ السنة ١٨٩٥ .

في بريطانيا خرج حزب العمال من اتحاد عمال التجارة ؛ اما في الولايات المتحدة فليس بعد ما ينسب بترعرع اشتراكية ، حتى « بدون عقيدة » . وقد لفت الانتباه في السنة ١٨٩٢ ان مرشح اوساط المزارعين قد جمع مليون صوت وان الاشتراكي « دبس » لم يجمع سوى ٢١٠٠٠ .

فهل يجب علينا مشاطرة العالم الاقتصادي « سومبار » رأيه القائل ان مثل هذه الحركة السياسية تتحطم على « شواء البقر » ؟

ولدت في المجتمع الاوسترالي اشتراكية « بدون عقيدة » بتأثير فاتحة الحركة العمالية في استراليا ظروف خاصة . فنذ عهد مبكر ، رأى جزائر الصوف ، وعمال احواض السفن الذين يشحنون البالات ، وعمال البناء ، انفسهم في موقف ملائم للمطالبة بحقوقهم بنجاح . ولما كانت الدولة متولية اعمال فتح الطرق وبناء الخطوط

الحديدية والمدارس والمستشفيات، فقد أصبحت احد ارباب العمل الرئيسيين . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان ديون الجماعة ارتفعت ارتفاعاً سيفضي بالضرورة الى فرض الرسوم على الثروة المجموعة والدخول : وقد عزز ذلك مركز اصحاب الاجور الذين يتعذر بدون مساندتهم تطبيق مثل هذه الرسوم .

بُعيد السنة ١٨٥٠ حددت ساعات العمل في اليوم بثماني ساعات . ثم اعترف بالنقابية قانونياً . لابل جعلت الحكومة النيوزيلندية من نفسها مؤمنة على الحياة وألزمت ارباب العمل بالاعتراف بمسؤولياتهم حين يتعاقدون مع النساء والفتيان .

الا ان الفشل الذي انتهى اليه اضراب كبير في السنة ١٨٩٠ ، بينما اعطت هذه الطبقة العمالية مثل التضامن الفاعل بمساندتها عمال احواض السفن اللندنيين، وتوجه التحادات عمال التجارة شطر النشاط السياسي ، فتألفت احزاب عمالية تحالفت مع الجناح التقدمي في احزاب الاحرار . فكان ذلك نقطة انطلاق اشتراكية برلمانية شبيهة بالاشتراكية البريطانية ، وبعمدة مثلها عن كل برنامج ثوري . وكان هما الاكبر وقف هجرة الملونين بغية الدفاع عن الاجور المرتفعة .

كانت اميركا الوطن المختار والمبارك للشيخ الدينية . ويصح هذا القول كذلك في البلدان الانكلوساكسونية الاخرى

الايام والثقافة عند الشعوب
الانكلوساكسونية الجديدة

في ما وراء البحار . فان الكاثوليكية لم تتجانس مع اي

شعب ، وفي اي مكان ، تجانسها مع سكان كندا الناطقين باللغة الفرنسية ؛ وبلغ عدده اتباع الكنيسة الرومانية في الولايات المتحدة في السنة ١٨٩٠ عشرة ملايين مؤمن ساعدوها على تشييد اكثر من ٨٠٠٠ بناء للعبادة . وهذبت البروتستانتية العقول بقوة كذلك في كنفائسها التي لا يحصى لها عدد . وقال البناؤون الاحرار بوجود الله والدين الطبيعي وانكروا الوحي ، واحتلوا مراكز قوية . وكان لمذهبي التصوف والروحانية اتباع كثيرون . وتأثرت الطوائف اليهودية ، التي تعززت تعززاً كبيراً بهجرة اواخر القرن الواسعة النطاق ، بمذهب الاصلاح السياسي الذي قال به الحاخام « وايز » وبالنداءات من اجل اصلاح صهيوني . ويلفت الانتباه كذلك نجح منظمات من امثال منظمة « جيش الخلاص » (وذلك بعد ان انتصرت الرغبة في الكمال على الصوفية الرمزية الغامضة القديمة) . وقد شاهد « بيبير لروا - بوليو » ، حوالى السنة ١٩٠٠ ، تطوافاتها التي كانت تنضم اليها جماهير غفيرة « في كافة مناطق البحث عن الذهب في العالم ، في « كريبيل كريك » في الجبال الصخرية ، و « كولفاردى » في الغرب الاوسترالي ، و « جوهنسبيرغ » في الترانسفال . ويعتبر « اندريه سيفريد » انها « اسهمت اسهاماً كبيراً في طبع مدن (زيلندا الجديدة) بذاك الطابع التديني الذي يميزها » . والمقصود هنا هو الايمان العملي المطابق للتصميم على العمل في هذه الدنيا . وهو لم يدفع قط الى المهادلات اللاهوتية . ولم يفلح في معالجة عدم استقرار العائلة معالجة ناجحة ، وانما طلب منه توفير الحخير والاطار لنشاط يستهدف

مقاومة الرذيلة والبؤس . وقد تولى هذه المهمة بصورة خاصة ، بالإضافة الى « جيش الخلاص » ، بعض الجماعات من الشبان : جمعية الشبان المسيحيين ، جمعية الشابات المسيحيات ، جمعية الشبان الكاثوليك .

تمهد هذه الطوائف مؤمنوها فلم تشعر بحاجة لطلب حماية الدولة . وعملت في مناخ حرية نادرة . واعتمدت الطرائق الاعلانية نفسها التي تعتمدها المؤسسات التجارية . واوصت بخدماتها لأجل خلاص النفوس كما يوصي رجال القانون بخدماتهم من اجل الطلاق . وقد اجريت تسويات مختلفة من اجل طبع المدرسة بطابع ديني : فرجحت في الولايات المتحدة كفة التعليم « العلماني » ، بينما اسندت كل ولاية من ولايات كندا امر تنظيم التعليم الى لجتين مختلفتين ، لجنة بروتستانتية واخرى كاثوليكية . ولم يكن باستطاعة المواطن الا ان يختار بين العبادات الماثلة امامه . وقد حظر عدد من ولايات الاتحاد كل عمل في يوم السبت ، وكان هذا الحظر مشدداً في كافة المهام اوستراليا وزيلندا الجديدة . واقرت بعض المجالس الاشتراعية في الولايات المتحدة مبدأ تنافي شغل وظيفة عامة وعدم التقيد بالمبادئ الدينية . وحدث احياناً ان اعفت املاك الكنائس غير المنقولة من الضرائب . اما رحال السياسة فغالباً ما اهتموا بحماية الاله الكلي القدرة ، وحدث في السنة ١٨٩٦ ان حكومة « واياز الجديدة » الراديكالية تولت اليه بالحاح وخضوع ان يمن على البلاد بالمطر . وساند رجال المال والصناعة المؤسسات الدينية التقوية . وجامروا بان الاتحاد وحتى اللامبالاة منافيان للاخلاق . وهكذا فان « بيرونت مورغان » ، المساهم الرئيسي في اوبرا « متروبوليتان » في نيويورك ، قد منع التمثيليات التي اعتبرها متنافية والاخلاق الحميدة . وفي السنة ١٨٧٩ حكمت محكمة الجنائيات في الولايات المتحدة على الصحافي « بَنْت » بالاشغال الشاقة لمدة ١٣ شهراً بسبب مقالاته المناهضة للدين ، وقد رفض « هيس » ، رئيس المحكمة ، تخفيض العقوبة . وفي ناثال ، انتقد الاسقف الانجليكاني « كولنسو » بعض فقر الكتب المقدسة ، وكان بذلك سبب زلّة للمؤمنين ، فتحمست كنيسة جنوبي افريقيا اكثر من كنيسة انكلترا في المطالبة بتمزله في السنة ١٨٦٣ .

كان المدرس خاضعاً لاشراف الهيئة الانتخابية المحلية ، وكان يُختار من المنطقة نفسها ويتلقى دروسه فيها ، ولكنه غالباً ما شكوا من مركب نقص ولقن المبادئ التي يقرها المجتمع . وحوالي السنة ١٨٩٠ بلغ عدد المعلمين الابتدائيين المتخرجين من دور المعلمين في بنسلفانيا ١٥٠٠ فقط من اصل ٢٠٠٠٠ . وفي السنة ١٨٧٠ - كما اقر بذلك « كرنجي » - كانت نسبة الاميين ١٦٪ من المواطنين الاميركيين ، واذا تدنت هذه النسبة ، بعد مرور عشرين سنة ، الى ٧٪ لمواليد اميركا ، فلنما ما زالت ١٣٪ للهاجرين و ٥٦ بالمئة للزواج . وبينما وفرت زيلندا الجديدة بفضل الدولة ، العلم لـ ١٣٠٠٠٠ ولد من ابناء السكان البالغ عددهم ٧٠٠٠٠٠ نسمة ، فان الترانسفال لم توفره الا لـ ٨٠٠٠٠ ولد من ابناء سكانها البالغين مليون نسمة تقريباً . وكانت بعض الشيع قد اسست الدور الجامعية الاولى في الولايات المتحدة : هارفارد ويال . ثم اسست الولايات

بعض الدور الأخرى . ولكن أصحاب الملايين هم الذين لعبوا دوراً هاماً في هذا المجال : « بيدي » في نيويورك ، و « هوبكنز » في بلتي مور ؛ وهناك جامعة تعرف باسم « جامعة فاندربلت » ، وقد انقذت روكفلر جامعة شيكاغو بمنحها ١٢ مليون دولار ، بينما كرّس كرلجبي مبلغاً مماثلاً لتأسيس معهد للأبحاث العلمية .

لم تكن الأخلاق الديموقراطية لتتنافى ووجود بعض الفئات المغفلة . فقد كان منها ست في بوسطن . وكان ظرفاء نيويورك يهتمون في « سومرست » او في « نيكريوكر » . ولكن الاميركي ، فقيراً كان ام غنياً ، لم يقرأ كثيراً : فقد كانت تكفيه الصحيفة التي توفر له بانتظام الاخبار المؤثرة والابحار المتفرقة وتحمل على التقيد بالمبادئ السليمة . وقد لوحظ ان الطلاق كان اسهل منه في اي مكان آخر (طلاق من كل ١٥ زواجاً مقابل طلاق من كل ٣٠٠ في انكلترا) ، وبدأت المغازلة وكأنها نظام معمول به . يضاف الى ذلك ان كافة هذه المجتمعات المدنية قد شعرت بحاجة ملحة الى الألهي : فشغفت اميركا ببارزات الملاكمة ؛ واستراليا وزيلندا الجديدة بلعبة الكرة والصولجان ولعبة كرة القدم وسباق الجياد .

اذا افترقت الحركة الأدبية زمناً طويلاً الى صفات ذاتية مميزة في دول الامبراطورية البريطانية ، حيث تمتع المؤلفون الانكليز بنفوذ فعلي (كان لكندا وحدها مدارسها التي عبرت باللغتين عن فكر محلي خاص) ، فلا نزاع في ان الادب الاميركي قد لمع بنضارة الشعر ، ورقة التحليل السيكولوجي ، والحياة النابضة في وصف البيئة . فبرزت بين الادباء مواهب كبرى انتجت الكثير من المحاولات والقصص والروايات البالغة الأهمية .

ما كانت الولايات المتحدة من قبل لتجهل الرومنطيقية التي كان من شأن طبيعتها البكر ان تحرك اندفاعاتها . ثم جاءت الحرب الأهلية التي عظمها « وولت ويتمن » كامتحن مخصاب : « شاهدت البرق الحقيقي . شاهدت مدني الكهربائية . عشت لكي أرى ظهور الانسان ويقظة اميركا المحرابة » . اجل لقد قام ، منذ السنة ١٨٧٠ ، من يشكو من عيوب مجتمع الأعمال والواسط السياسية : وكان الغرب قاسياً ابدأ حين شكها منها . وانما يجب انتظار السنة ١٨٩٠ حتى تيمط الواقعة الستار حقاً عن المفسد ؛ وعلى الرغم من ذلك فان « كراين » قد تعثر في قضية مع « ماغي » احدى « بنات الشوارع » ؛ ولكن « مارك توين » اكتسر من رغبوه بمحاذئة معاصريه بلغة ماجنة وبالاستهزاء بالتعابير الأوروبية القديمة المتبدلة . وسوف تبرز الطبيعة في عهد متأخر معنى القصة التشاؤمي في مؤلفات « درايزر » الذي سيشدد على التسلط الجنسي . فبقي ان فردية العالم الجديد النفعية قد ارتضت بنظريات سبلسر و « وليم جيمس » . استقبل الاول بحماس في السنة ١٨٨٢ ، ووجد صدى عظيماً لدى رأي عام متفائل حقاً ؛ فدعا هذا الرأي العام الى التسليم بأن الحرية ومذهب الارتقاء يتزاوجان ويولدان التقدم . اما الثاني فقد نادى بالحاجة الى بذل الجهود ، ومثل الحقيقة بالنجاح ، وأكد ان « الدين يتصل بالحياة » وربط بين صحة الأخلاق وصحة الجسد ، واقترح مذهباً عملياً مطابقاً لمقاصد شعب مولع

بالبشكارات الممثلة .

اما بصدد الحاجات الفنية ، فقد ارتأت هذه الشعوب الجديدة ، دوفا خجل ، ارضاءها باقتباس افكار اوربا وحتى منجزاتها . فقبل السنة ١٨٦٠ شفت اميركا بالمعبد اليوناني ، فشيدت الكثير من الدور الحكومية ذات الاعمدة والمزارع ذات المثلثات في أعلى مقدمتها ؛ ثم اهدت الى النمط القوطي وأضافت بمض التفاصيل الاوسطية الى ابنية مربعة الشكل . وكل من توفر له المال اللازم اراد ، حوالي السنة ١٨٨٠ ، اقتناء مسكن على نمط مسكن « هوسن » ، او قصر على نمط الحمراء ، او بيت خشبي على نمط البيوت السويسرية . ومع اعجابه بالروائع الاوروبية فقد نصح « ويتن » بعدم تقليدها ، وفي نظر رجل الشارع ما كانت كنيمة القديس بطرس في روما لتوازي الكابيتول في واشنطن . ولكن ذلك لم يمنع « هانت » من اعادة بناء بيت « كورنيلوس فاندريلت » على النمط الايطالي مضيفاً اليه قفص سلم قد يتسع لمطبة سكة حديدية . وكان « فرانك لويد رايت » احد الاوائل الذين ابتكروا اشكالا جديدة ، واضحة ومتناسقة ، لا سياتر في بوفالو وشيكاغو .

وبنت اميركا هذه نفسها مسارح فسيحة ، ولكنها لم تتفوق الى اعطائها الزوج . وحين نزلت « راشيل » الى البر الاميركي في السنة ١٨٥٥ ، اهتزت نيويورك كلها حبوراً ، وعرضت حلويات ومخدرات وسجائر وقبمات ليلية حملتها اسم راشيل؛ وفي اورليان الجديدة طلع صاحب احد المقاهي الحاملة اسم راشيل بشراب « بوتش » (راشيل . وصفق رواد الحفلات الموسيقية لموسيقى الكلاسيكيين والرومنطيين بينما فضلت الجماهير المهزلة الموسيقية المليئة بالحوادث المؤثرة المعقدة .

لم تتمثل الفنون التصويرية بأسماء كثيرة : فـ « هويستلر » هو الاسم اللامع الوحيد بين رسامين كثيرين لم تنقصهم الموهبة ؛ ولكن ليس هناك من مدرسة جديدة حقيقية .

وجملة القول ان هذه الشعوب الانكلوساكسونية الفتية قد تفرغت بحب تفضيلي للنشاطات التي تتيج لها احكام السيطرة على الفضاء والمادة ؛ وقد بحثت اول ما بحثت عن البهجة في الحركة؛ واناطت فخرها بفتح القارات وتحقيق الرفاهية المادية .

الفصل الثالث

الأيام الصعبة في أميركا اللاتينية منذ حروب الاستقلال

اختلفت أميركا ، المعروفة عموماً باللاتينية ، اختلافاً عميقاً عن أميركا الإنكلوساكسونية . فكانت لها حضارة خاصة أقدم عهداً . وكان سكانها يقدرون بـ ١٩ مليون نسمة في أوائل القرن التاسع عشر ، فكانت هي من ثم متقدمة من حيث الأعمار ؛ ولكن معظم سكانها كانوا منتسبين إلى الأعراق الملونة ، وكان البيض منذئذ أكثر منهم عدداً في الولايات المتحدة . فلنقابل الآن إحصاءات أواخر القرن : أنها تشير إلى أكثر من ٨٠ مليوناً في القسم الشمالي من العالم الجديد ، وهو أصغر مساحة بصورة ظاهرة ، بينما لا تشير إلا إلى ٦٣ مليوناً في القسمين الأوسط والجنوبي من هذه القارة . فالزيادة من ثم كانت أقل منها في أميركا الشمالية . وعلى الرغم من أن الزيادة بلغت ٧٣ بالمائة بين السنة ١٨٠٠ والسنة ١٨٥٠ ، و ٩٢ بالمائة بين السنة ١٨٥٠ والسنة ١٩٠٠ ، مما رفع معدل الكثافة من ١ إلى ٣٤٤ في الكيلومتر المربع ، فليس أمامنا بعد سوى نسبة عددية طفيفة من مجموع سكان العالم : ٤ بالمائة بدلاً من ٢٤٥ (١) .

انطوى التوزيع من جهة ثانية على مضادات تلفت الانتباه . فقد احصي ١٥ مليوناً في البرازيل التي لم تتجاوز كثافة سكانها العامة ١٤٧ ؛ ولكن إذا هبطت هذه الكثافة إلى ٠،٠٦ في « ماتوغروسو » و ٠،٠٤ في « أمازونيا » ، فإنها ارتفعت إلى ٣١٢ في منطقة « ريو » . وقد بلغت ٥٣ في « سان سلفادور » ، و ٤ فقط في نيكاراغوا المجاورة . وكانت نسبة السكان في الانتيل ، بصورة عامة ، ارفع منها إلى حد بعيد في القارة القريبة .

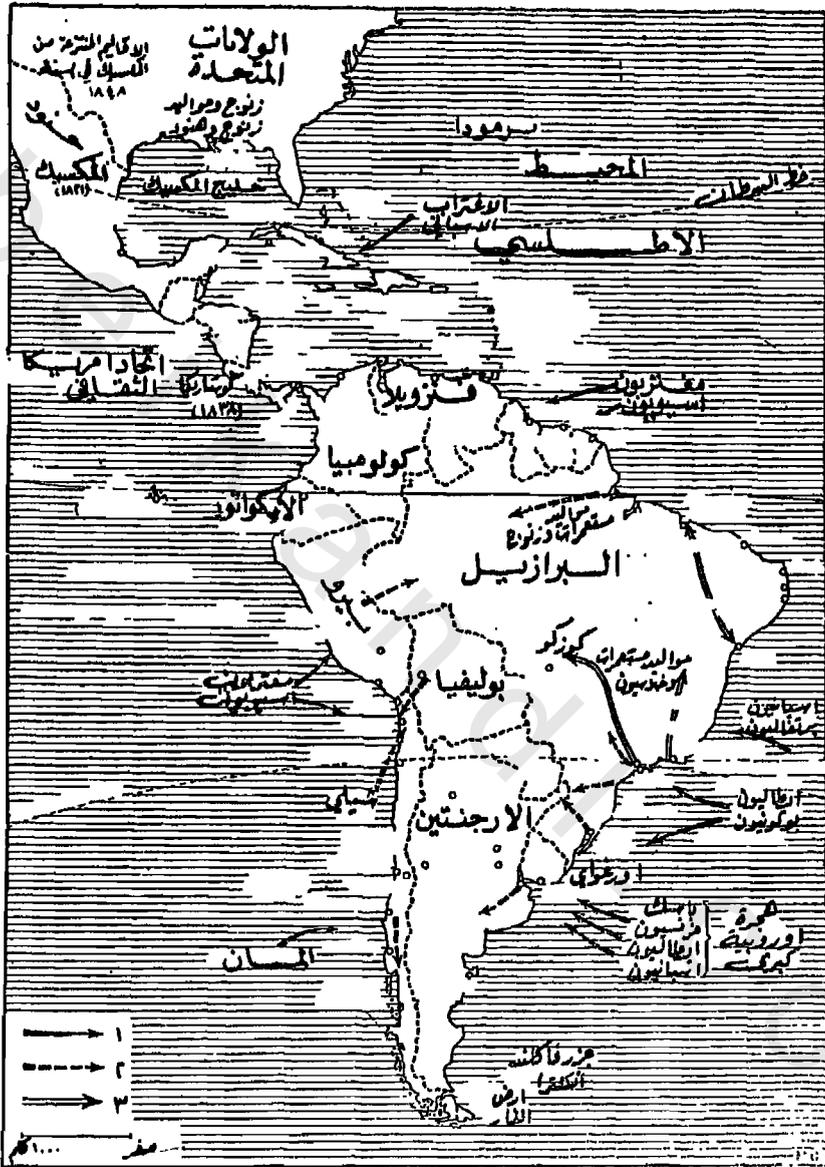
(١) راجع البيان في الصفحة ١٥٥ .

ربما كان باستطاعتنا ان نمزو هذا التدني الى وضع البلاد بالنسبة لحظ الاستواء . فنسبة
الولادات مرتفعة (٤٠ الى ٥٠ بالمائة في البرازيل) ، ولكن نسبة الوفيات مرتفعة جداً ايضاً .
ومرد ذلك الى ان المنطقة الواقعة بين خطي الجدي والسرطان هي حرم الهواء الاصفر (د الهواء
الاسود ، الذي فتك بـ ٢٨ الف ضحية في البرازيل بين السنة ١٨٥٠ والسنة ١٨٨٥) . كما يرد
كذلك الى ان الاجية والزحار تسلطوا على الاراضي المنخفضة والحارة قرب الشواطئ ، وان
الجدي والتيفوس قد عاا فساداً في الهضاب المرتفعة . فالمناطق الجنوبية وحدها هي ما
استهوى الاوروبيين ؛ ولكن الهجرة لم تتجه الا في عهد متأخر شطر هذه المنطقة الجنوبية
النائية .

سيطرة مواليد المستعمرات والهجرة
الاروبية الجديدة
خلافاً لما حدث في اميركا الشمالية ، لم يتغلب المرق الابيض
قط على المرق الاميركي بمصر المعنى - وقد اقترح بعضهم
تسميته بالمرق الاميركي الهندي او الهندي الاميركي - الذي
دافع عن نفسه بفضل المناخ والبيئة والعدد . وهكذا فقد ألف الهندي قوام سكان بوليفيا والبيرو
لانه يتحمل الـ « بونيا » أو داء الجبال الاندية العالية ، اكثر من البيض . ولكن الاوروبي توفى
في كل مكان الى اخضاعه لسيطرته . وقد تحقق اخضاع اميركا الحمراء هذا على مرحلتين : قوئ
« فاتحو » القرن السادس عشر امبراطوريات الهضاب الاندية ؛ واضطر سكان المنطقة المعتدلة ،
الـ « شاروا » في الاوروغواي والـ « آروكان » في « شيلي » ، الى الانحناء بدورهم خلال القرن التاسع
عشر . وتأسست كذلك في هذه الاثناء ، بواسطة النخاسة ، ولمصلحة البيض ، اميركا السوداء .

كان عدد مواليد المستعمرات ٣ ملايين فقط حوالي السنة ١٨٠٠ . وكانوا مصممين على الحلول
محل اسبانيا والبرتغال . وعلى غرار ما حدث في فرجينيا ، لم تمن الحرية ، في رأيهم ، الفاء الاعمال
الشاقة والرق . ولكنهم خلصوا من قراءة الفلاسفة الى العزم على انتزاع املاك الاكليروس والحد
من امتيازاته . والسبب في ذلك ان ممتلكات الكنيسة كانت على جانب كبير من الاهمية : فهي
قد شملت ، في المكسيك مثلاً ، نصف المساحات المستثمرة . وقد فرضت صفة الاملاك الوقفية
وجود الكنيسة في كل مكان .

وعرفت الديومة الاملاك المملانية الكبرى كذلك خلال القرن التاسع عشر . فعوالي السنة
١٨٨٠ كان لا يزال في المكسيك بين ٨ و ١٠ آلاف مشروع استثماري ، ولكن مساحة بعض المزارع
الكبرى قد بلغت ٦٠ وحتى ١٠٠ الف هكتار ، وقاربت نسبة الريفيين المحرومين من الاراضي
٩٥ بالمائة . ومن مواليد المستعمرات الـ ٣٠ الف في الشيلي ، امتلك ٣٠ ألفاً كافة الاراضي الزراعية
تقريباً ، و ٦٠٠ اكثر من نصف هذه الاراضي . وتقاسم السهل الفسيح في المنحدر الشرقي لجبال
الاندس الجنوبية بعض كبار الملاكين الذين ادخلوا في خدمتهم خلاسي المنطقة ، وأجروا
المهاجرين الفقراء ، لاجال قصيرة ، بعض القطع الصغرى . وفي الهضبة البرازيلية ، حدث ان



شكل ٢٣ - أمريكا اللاتينية السياسية
 ١ - تيارات الهجرة ؛ ٢ - انتقال السكان ؛ الطرق التي سلكها العبيد



شكل ٢٤ - امريكا اللاتينية الاقتصادية

١ - طرق مائية طبيعية مستعملة ، ٢ - الخطوط الحديدية الاولى ، ٣ - مناطق تبدل فيه وجه الطبيعة تبدا
 كاملا بفعل عمل الانسان ، عل حد قول جيجر .

بلغت الاملاك الكبرى مساحة تقارب مساحة دولة اوروبية كإيطاليا او انكلترا . وفي كل مكان ساد اقتصاد يستهدف تأمين الحاجات الاولية قبل اي شيء آخر بسبب ضعف المقايضات وندرة النقد .

أتاح المنجم جمع ثروات طائلة وظفت جزئياً في العقارات . واثماً لم يكن هناك رأسمالية صناعية جديدة بهذا الاسم ، لأن اميركا اللاتينية كانت تصدر خاماتها ومحاصيل زراعتها دون ان يدخل عليها اي تحويل .

اكتفى الملاك من مواليد المستعمرات بالتمتع بمحضره . ففي بلدان كثيرة ، كشيلى والبرازيل مثلاً ، احب الاقامة في المدينة حيث عاش عيشة بطالة . واذا ما حدث ان اقام في اراضيهِ ، فانه غالباً ما بكل امر ادارتها الى رؤساء خدامه . واذا جمع ثروة ، فانه يفضل النفقات المفرطة ؛ واذا حدث أزمة فانه يقلل نفقاته او يستدين ؛ يلاطف امرأته ويخضعها لوصاية غيورة بعد ان تعتنى بها المريبة ؛ ولكنها امية وسريعة التصديق على كل حال .

كانت هذه الطبقة الريفية ، البطريكية الطابع ، غير المولمة بالاستعدادات ، الانيسة والبليدة ، تثقل وظأة الضرائب على يد عاملة بائسة يفسر انتاجها الضئيل الخمود المسيطر على الحياة الاقتصادية كلها . هذا هو غن الفتح . والحال تجددت الهجرة الاسبانية والبرتغالية على نطاق واسع في اواخر القرن . ولكن الحدث الجديد هو وصول الالمان ولا سيما الايطاليين باعداد كبرى . فكانت النتيجة ان اميركا اللاتينية القديمة ، الهندية والحلاسية والزنجية عنصرياً في الواقع ، انقسمت نهائياً الى منطقتين مختلفتين كل الاختلاف : فمن جهة ، المنطقة الواقعة بين خطي الجدي والسرطان حيث توطد تفوق الدماء المختلطة والهنود ؛ ومن جهة اخرى ، اميركا بيضاء ثانية ، بمائلة للاولى ، اضيق رقعة منها واقل سكاناً ، تقابل مستعمرات الراس واورستاليا وزيلندا الجديدة . وقد تحقق هذا الفتح الاوروبي الجديد بين السنة ١٨٩٠ والسنة ١٩١٤ ، فأوجد تضاداً اقوى منه في الماضي بين الارجننتين والاوروغواي والشيلى وحتى شطر من البرازيل الجنوبي وبين باقي العالم اللاتيني - الاميركي .

هنالك مناطق واسعة لم يقيم فيها سوى الهنود البرابرة تقريباً . حياة السكان الهنود : بداءة وبؤس فكان الـ « غوياهي » ، بين « بارانا » و « باراغواي » ، يأكلون كل ما يختص بالمولد الحيواني ، بما فيه من انواع الهوام كالزنابير والنحل الذي يحشوا عن عسله ايضاً . واشتهر الـ « بوتوكودي » او « ايوري » بأقراصهم الشفوية . وتسكع في البؤس نفسه الصيادون الـ « يورانا » والـ « كارايا » في البرازيل ، والـ « شانغو » في السواحل الشيلية ، والـ « اونا » في جزر النار ، وقد افنى هؤلاء الاخيرين شيئاً فشيئاً رجال المزارع ومرضى السل . اما الـ « اباش » والـ « الكومانش » في المكسيك الشمالي فكانوا بدأوا يربون المواشي ، وقد انتشرت هذه الحياة البدوية في اقصى الجنوب ، في منطقة « باتاغونيا » . واما الـ « شاروا » القساة ، الذين

واجه البيض والجلاسيون شتى الصعوبات في اخضاعهم ، فقد اعتمدوا الحصان في صيد الحيوانات على غرار الـ « جهالتش » ، وكانوا يكتفون بضرب خيام من الجلد يحتمون بها من الرياح . وفي الشيلي ، تقاطى الاروكان ، الذين القوا المحاداً حربياً شبيهاً بالحماد الـ « ابروكوا » ، زراعة الذرة الصفراء وعربية المواشي في آن واحد .

بيد ان اهل الحضر كانوا اكثر عدداً الى حد بعيد . ويمكننا الكلام عن حضارة الذرة الصفراء التي سيطرت على المناطق الواقعة بين الجبال الصخرية وجبال الاندس الجنوبية . فهناك منطقة الذرة الصفراء الشمسية الممتدة حتى المكسيك الوسطى : حيث يسحق الحب بواسطة الهاون ويستهلك بشكل طم . وافضت هذه الزراعة الى قيام قرى ثابتة ، ونشطت صناعة الخزفيات التي استجابت للحاجات المنزلية والتزيينية . وتبدأ في بلاد الـ « مايا » منطقة الذرة الصفراء المروية التي غالباً ما تزرع في الاراضي المهرقة : فأضيف الى الطلعة معجون الذرة الصفراء المزوج بالماء فقط . اما الحبوب فغالباً ما تزرع وفقاً لطريقة بدائية جداً : ففي نيكاراغوا استعمل بعضهم اداة شبيهة بالسيف اكثر موافقة لحفر البذار منها لحراثة الارض . وفي كل مكان استخرجت من الذرة الصفراء جمعة (شيشا) مسكرة .

في اميركا الوسطى والانتيل وغويانا كان المنيهوت مفضلاً في بعض الاماكن على الذرة الصفراء . ولكن الذرة الصفراء استعادت كافة حقوقها في جبال الاندس . ففي كولومبيا زرعت مع البطاطا والقلقاس الهندي . وفي شيلي دخلت حبوبها في اعداد كافة اصناف الاطعمة واستخدم لباس زهرها للذخان . وفي هضاب البيرو وبوليفيا المرتفعة ولدت قساوة المناخ والجفاف حضارة مشتركة تمكنت من مقاومة الجذب بواسطة زراعة المنحدرات والري . وقد استمر مثال الهندي القديم ، الذي خضع فيما مضى لتنظيم دولي صارم ، ثم التحقق بالنظام السيدي في عهد الفاتح الاسباني ، فشهد تعاقب الحكام ، جامد القلب غالباً ، على مزيد من القضاة هنا ، ومزيد من الوداعة هناك ، واحب الارض ، فتمسك بالاملاك المشتركة التي كانت غير قابلة للبيع مبدئياً . ولكنه كان يخاف من الكد او لا يستطيع العمل بنشاط . ويرد ذلك الى سوء تغذيته . فاذا لم يحصل على الذرة الصفراء اكتفى بالبطاطا واللوبياء ؛ وقد احب بالفضل البطاطا المجلدة المطحونة التي دعاها « شونو » . وأعد حماء بأوراق « رجل الاوز » . وحصل على بعض الحليب من الجمل الاميركي والالبكة اللذين كان يحدث ان يربيهما ؛ ولذلك كان يقتدر الى الشحوم والمواد الأزوتية . واكثر من احتساء الشيشا ، وكان شغله الشاغل تحضير الـ « اكوليكو » ، وهي كتلة صغيرة من اوراق الكوكو يصنع منها كرية يضمها في فيه : يمضغها اثناء سيره او مزاوله اعماله فيتولد فيه النشاط . وكان بيته مبنياً بالصلصال المجفف بجمرة الشمس ، ومؤلفاً من غرفة واحدة لا نوافذ ولا سقف ولا ارضية لها ولا سرير فيها . وكان ينام على فراش مصنوع من جلود الحيوانات . وقد رآه الرحالة « موسترز » ، في السنة ١٨٦٦ ، يعد بواسطة الجبال المقعدة . اجل لقد تمكن المستعمر من تقويض امبراطورية الـ « انكا »

وتبشيرها بالإنجيل ، ولكنه لم يتمكن من تغيير طبيعة هذا الكائن الذي بقي متعلقا بشياطينه الاليفة والأرواح التوابع وآلهة الجبل والثلوج والبحيرات ، وعبد الشمس والقمر : واستغله الزعيم والكاهن والقاضي استغلالا دائما فتلهى بالرقص والعزف على الشبابة والمزمار . وإذا هو تعلم الإسبانية فلا ينسبه ذلك لفته ، إلا « إملرا » أو « كيشوا » أو « تاهواتل » أو « مايا » . وعلى الرغم من تمتعه بالحقوق المدنية ، لم تستهوه الوظائف العامة . ولم يكن من مشاركة حقيقية بينه وبين الأبيض . يضاف إلى ذلك أنه حينما كان فرضت عليه أعمال التسخير والأتاوات . وقد خضع لنظام نصف فداوي في المنجم . وكاد لا ينجو من هذا النظام إلا بمرافقة قطيع جمال أميركية أو بمواكبة القوافل أو بصناعة القبعات ، كما في الأكوادور ، بموص خاص يحاك تحت الماء .

كان عدد السكان من الدماء المختلطة أكثر من عدد السكان مصير الدماء المختلطة والزوج البيض . وكان معظمهم من الخلاسيين المولودين من البيض والهنود المتزاوجين ، يضاف إليهم نسبة دنيا من الخلاسيين المولودين من البيض والزواج و « زامبو » المولودين من الهنود والزواج . وقد نجح الخلاسي أحيانا في الارتقاء في السلم الاجتماعي . وحدث أن جمع ثروة بتربية المواشي وإدارة الأملاك وحتى باقتنائها أحيانا ، واستثمر بدوره حينذاك المولودين الفقراء أو الأرقاء . تماطى حراسة قطعان الماشية ، فأصبح في فترة من الزمن ملك الأرجنتين ، وانضم إلى البولسيين فأسهل بنشاط في أحياء الأراضي في الهضبة البرازيلية التي يمر فيها خط الجدي . وفي سالفادور تملك معظم الخلاسيين الأراضي فعرّفوا بـ « لادينوس » ومن قرع الغوارني المحدر « مملوك » المولود من أم برتغالية ، و « والد شولو » في البيرو ، و « دروتو » في شيلي ، وكلهم عناصر نشيطة . وانتسب سكان باراغواي المهربون إلى الغواراني و خلاسيهم . وقد سال الدم الهندي في عروق زعماء (كوديلو) كثيرين . ولكن عامة الدماء المختلطة لم ترتفع يوماً إلى طبقة أهل اليسار . ففي الشيلي مثلاً خضع الخلاسيون لأعمال التسخير وارتبطوا بكبار الملاكين من مواليد المستعمرات بعقود الحقت بهم المزيد من الغبن .

أقام الزنوج و خلاسيهم حيث أدخل البيض الأفريقيين أي من جهة الأطلسي ، من الانتيل حتى الريو . وفي أوائل القرن جاءت كذلك موجة من الانتيل نحو كولومبيا ومناطق غويانا ، وموجة أخرى من غيليا نحو « بارا » و « مارانهاو » ، وموجة ثالثة من الكونغو وبنغويلا والموزامبيك نحو « باهيا » . واعتق ١٠٠ ألف عبد في منطقة غويانا الانكليزية في السنة ١٨٣٨ ، و ٦٠ ألفاً في المنطقة الهولندية في السنة ١٨٦٣ . ولكن الجماعات الكبرى عاشت في البرازيل . ففي السنة ١٨٧٠ ، كان في البرازيل البالغ عدد سكانها ١٠ ملايين نفس ، ١ ٢٠٠ ٠٠٠ زنجي بينهم ٩٠٠ ألف معتق ، و ٤ ملايين خلاسي من أبوين أسود وأبيض بينهم قرابة ٥٠٠ ألف عبد ، ولم تتركز على الخلاسيين والبيض زيادة تذكر حتى السنة ١٩٠٠ .

كان الرق ، على ما يبدو ، اقل قساوة منه في الولايات المتحدة : فقد كانت البرازيل في نظر الاميركيين الشماليين بمثابة « فردوس الزوج » . ومهما يكن من الامر فان الحصول على الحجرية كان هنا اقرب منالاً . ولكن الغاء الرق سيتطلب وقتاً اطول . واما في المزرعة فكانت العبد يشتغل من مشرق الشمس حتى مغربها ولا يتوقف عن العمل الا ساعة واحدة يتناول فيها طعامه ؛ وغالباً ما تُضرب بالسوط على ظهره العاري ، وطلب منه عمل اضافي في الليل . فلا عجب من ثم اذا كان انتاجه ضئيلاً . وقد شكوا اصحاب مزارع البن من الاجور الباهظة التي تدفع لليد العاملة المتوانية .

اضطر الزنجي والخلاسي الزنجي ، بعد تحررها ، الى العمل كمزارعين او كمهال زراعيين ، ما لم يفضلوا العمل في المنجم . ولكن مستوى حياة هؤلاء المساكين ، المعجيين بأنفسهم ، الارقاء الكلام ، السريمي التهبج ، لم يتحسن قط . فقد حافظوا بمناد على عاداتهم ومعتقداتهم الافريقية . وقد استطاع بعضهم تبيان اوجه الشبه بين حضارة ال « ياروبا » وحضارة زوج كوبا و باهيا ، وبين العادات في هايتي والعادات في مارانهاو في داهومي ؛ وفي غويانا ، ربما اعتقد الانسان بأنه عند ال « فاني » او ال « اشانتي » . ولم تخف المسيحية الطقوس الوثنية اخفاء تاماً : فقد دخل بعض الآلهة الافريقيين في عداد القديسين او بقوا موضوع تكريم وتعظيم ، وبقسي للعبادات الافريقية تأثيرها الغامض .

التغلغل الاقتصادي ومزال وسائل النقل

كانت اشكال النشاطات متحركة لأنها كانت بدائية . واتصف عمل احياء الارض بطابع الوقتية لأن الاحراج لا تلبث ان تستعيد الاراضي التي ينتزعها الانسان منها . ولكن الزراعة نفسها مسرفة ؛ وقد قام الخلاف ابداً بينها وبين تربية المواشي والمنجم . فاذا تراحم الناس على العمل في المنجم هاجر السكان المغارس وتركوا القطعان . واذا استخرج كل ما في المنجم عادوا الى الاعمال الزراعية والراعية . وكانت هنالك في البدء برازيل السكر والمناجم حول محور باهيا و « ميناس جيريه » ؛ ثم تدنت زراعة قصب السكر ، بينما حلت محلها زراعة القطن وشجرة الكاكاو والتبغ او اجتذبت الناس الى ابعد من مواطن هذه النباتات ؛ وبالمقابلة عرفت « غويان » و « ميناس الازمة » فان مصاهر تنقية المعادن المشاة في جوار الاحراج حول « اورو - برينو » قد اخذ نيرانها الحط الحديد الذي نقل الحديد الاجني . فعاد رعاة البقر الى قطعانهم في الهضاب الداخلية ، وعاد من تبقى من عمال المناجم والمصاهر الى « ساو باولو » التي كانت بحاجة ماسة الى اليد العاملة في مغارس شجر البن ؛ وبين السنة ١٨٨٠ والسنة ١٩٠٠ عرفت المناطق الواقعة على خط الجدي بدورها ثروة مفاجئة . اما شيبي الراعية فقد اكتشفت حوالي السنة ١٨٥٠ رسالتها الزراعية بامارتها الباحثين عن الذهب في كاليفورنيا بالحبوب . وأما السهل الارجنطيني فقد تغير وجهه تكرر اذ تعاطى فيه السكان على التوالي تربية المواشي الكبرى وتربية الاغنام ثم تقسم الى عدة مناطق تميز كل منها بنشاط يميز .

بصح القول نفسه في سرعة التغيرات التي طرأت على الصناعة الاستخراجية . فعلى الرغم من أن مناجم الفضة في « بونوسي » و « سرو دي باسكو » ما زالت مثاراً للفتنة ، فإن دلائل النقص في المعدن كانت سبباً ، في منتصف القرن ، في انتقال الجماهير الى « الجبال الملكية » و « اورورو » من جهة ، والى جبال « كريبيا » من جهة اخرى حيث اكتشف الذهب على ارتفاع ٥ آلاف متر . واستأثر استخراج الفضة في البدء باهتمام شيلي ثم توجهت الاطماع شطر النترات والنحاس . اما في المكسيك فقد تعاقبت فترات ارتفاع حمى البحث عن المعادن وهبوطها تعاقباً مطرداً .

كانت مسألة النقل احدى المسائل المعيرة جداً . لقد جعلت الطبيعة من قطع المسافات عملية طويلة وشاقة ، فبرز ذلك اهمية الطريق المائية الطبيعية للجماعات البشرية والعصبيات السياسية . فبينما وقفت مناطق البرازيل الشرقية سداً في وجه الساحل الاطلسي ، اتاحت الشبكة الامازونية بلوغ لحف جبال الاندس من الشرق وغوياز و « مانو غروسو » . وحين اقل « روزاس » البارانا بين السنة ١٨٤١ والسنة ١٨٥٢ ، تحولت حركة النقل الى الاوروغواي ، فكان ذلك فاتحة ازدهار الجمهورية الشرقية . ولم يكن الهدف من حرب الباراغواي سوى امتلاك شبكة الطرق الطبيعية المؤدية الى « لابلا » .

فما العمل للانتقال من حوض الى آخر ؟ ما زال العائق الاكبر الجبل الذي يحاذي المحيط الهادي . ولذلك استخدم النقل الكولومبي نهر « ماجدولينا » ووجه الدولة الكولومبية شطر بحر الاتيل . وكذلك وجهت الطريق التقليدية الى هضاب البيرو شطر الاطلسي الجنوبي : على هذه الطريق الفضية تمكنت « توكومان » من تنمية مزارع قصب السكر بتصريفها السكر في مناطق المناجم المرتفعة ، واستخدم الملح للقريب من « بونيا دي اناكاما » لحاجات قطعان جبال الاندس قبل ان ينقل الى سكان ال « بامبا » . ويتضح من ثم ما كان للزوامل ، ولا سيما للبالغ ، من اهمية كبرى . فهي قوافل البغال ما كانت تؤمن النقل في جبال الاندس والهضبة البرازيلية . اما في السهل فقد امكن استخدام العربات التي تجرها الخيول او الثيران : فالارجنتيني كان يمتطي الحصان اذا كان مستعجلاً او يستخدم العربة الثقيلة التي يجرها حتى سبعة حيوانات والتي اتاحت عجلاتها الكبرى اجتياز المخاضات .

ان الاسبانيين والبرتغاليين المتوسطيين نقلوا معهم الى ما وراء الاوقيانوس ميولهم المدنية . وعلى الرغم من نموها البطيء ، لعبت المدن دوراً عظيماً جداً في هذه الحضارة

جانب الحياة في المدينة
وبسطه تطور الوظيفة المدنية

الاييرو - اميركية .

ذكرت مدينة العهد الاستعماري تذكيراً مدهشاً بمدينة شبه الجزيرة ، وذلك بكاتدرائيتها الفخمة ، وابنيها العامة العظيمة ، وبنائيعها الجميلة . وعرضت ليا باعزاز « ساحة الاسلحة » ، و « سانتياغو » الشيلية شوارعها الاربعة التي تنتصب على جنباتها اشجار الحور الظليلة ، والاقنية

التي تمر فيها وتسمح برش الشوارع ؛ وتباهت « ريو » القديمة بمساكنها البرتغالية الانيقة ذات الشرفات . الا ان الحجر نادر بصورة عامة: ولم يكن بالحجر الجميل الصلب سوى ريو و«كوزكو» . فواد البناء المستعملة عادة هي القرميد المشوي بحجارة الشمس الذي يجب طليه لاعطائه بعض البهرج . ولم تسقف البيوت الصغرى في اغلب الاحيان الا بالطين الطويل ، وقد حدث ان الامطار المتساقطة بغزارة في ليا قد تسببت في انهيار السقوف . يضاف الى ذلك ان الناس كانوا يخشون الزلازل : فزلزال السنة ١٨٢٨ قد دمر عاصمة البيرو ، وزلزال السنة ١٨٥٤ دمر سان سالفادور . وفي كافة المناطق الحارة جمعت الغرف حول فناء تشاهد فيه بعض الطيور والحيوانات المؤلفة كالبيفاء والقرود ؛ اما الالاث فكان قليلا . وافتقرت المدن الى النظافة ، لا سيما وان شوارعها لم ترصف رصفاً جيداً بالبلاط . وفي عهد مكسيميليان فتحت في مكسيكو جادة كبرى جديدة تؤدي الى سابولتبيك زرعت على جانبيها اشجار الكينا وانشئت فيها ، بين مسافة واخرى ، مستديرات ازدانت بالمائل . ولكن ما ان تهطل الامطار الاولى حتى يتعرق السير بسبب الاوحسال . اما التدابير الصحية فغير متوفرة ، لا سيما في الاحياء المنخفضة من الموانئ البحرية ، وهو الاطار الطبيعي ما اوجد الفتنة ، اذ ان النوامي قد حجبت الكثير من القباحات ، وقد اشتهر جون ريو منذ تلك الايام بجباله الفتان .

ان القرن التاسع عشر لم يحمل قط ، بل بنى بسرعة وبدون ظرافة . فالمدينة الجديدة في ريو عادية ومبتدلة على الرغم من اتساع شوارعها وظهرت بوينوس ايرس لمدة طويلة بمظهر حقير . فالمدينة نمت بسرعة فائقة وابنتها شيدت في مساحات ضيقة . اجل لقد تم توسيعها وفقاً لمخطط هندسي على طريقة المدن في اميركا الشمالية ، وانتقلت مساحة رقعتها من ٤٠٠٠ هكتار في السنة ١٨٨٠ لـ ٣٠٠٠٠٠ نسمة فقط الى ١٩٠٠٠ في السنة ١٩٠٠ لـ ٧٠٠٠٠٠٠ . ولكن الاربئة فتكت فيها بالسكان فتكثرت زرعياً (١٣٧٠٠ في السنة ١٨٧١) ، ولم يتحسن تبليط الشوارع قط قبل السنة ١٨٩٠ . فمنذ هذا التاريخ انجزت اعمال كبرى لتزويد المدينة بمياه الشفة ولتجهيزها بشبكة بواليع ؛ وبدأ استخدام الغاز والكهرباء .

كان للمدينة وظيفتها الاقتصادية ، كما في اي بلد آخر . فقد استخدمت مستودعاً (هذا هو دور «لاباز» للكينا ، ودور ساو باولو للين) ؛ ودانت توكومان و«سالتا» بالكثير لاسواق تجارة البغال ؛ ولم تم الموانئ الا بنسبة نمو التجارة البحرية . ولكن بصرف النظر عن جهودها وعن تصميم البيض لها بغية ابواء الادارات العامة وتأمين حاجات الحياة الاجتماعية ، فقد طبعت ابداً بطابع اداري وسكني بارز . وبين سكان المدن كثر هم الذين تفرغوا للسياسة والمهن الحرة : فان نصف الذين تلقوا دروساً عالية قد فكروا بمزاولة المحاماة . ولكن الهجرة قد ضخمت الطبقة الكادحة الامية بنوع خاص .

تخلفت العواصم الكبرى تخلصاً محسوساً عن العالم الانكلوساكسوني ، وهي ان تبرز حقاً الا في اواخر القرن ، دون ان يبلغ سكان اي منها المليون نسمة . ويجدر لفت النظر مرة اخرى

هنا الى اننا نتكلم عن عالم يجاوز سكانه الـ ٦٠ مليون نسمة .

ان الطابع العقاري الصريح الذي طبع به الاقتصاد قد سيطر
طيلة القرن على كافة أرجاء اميركا اللاتينية . فكان هناك
اغنياء اثرتهم الحنطة في شيلي، او اثرتهم الجلود واللحوم المملحة
ولادة رأسمالية اميركية جنوبية
وتدخل الرأسمال الاوروبي
في مناطق « لابلا » . وبرز شيئاً فشيئاً في البرازيل بعض المستفيدين من زراعة البن : فان اول
آل « برادو » المشهورين قد زاول تجارة البنغال ، وتوصل احد ابنائه الى تملك مقصبة فسيحة ؛
وبين اولاد هذا الاخير اكتشف احدهم بدوره « ارضاً حمراء » جيدة جداً واصبح في السنة
١٩١٢ رب مزرعة تحتوي على ١٧٦٧٠٠٠ شجرة . واشترك معه احد اخوته في تأسيس شركة
الخطوط الحديدية البولسية لخدمة المنطقة ؛ وضمت هذه الشركة بين كبار مساهميها رب مزرعة
كبرى اخرى هو البارون « ايتابورا » ، وقد اصبح باروناً بانعام من الامبراطور « بدرو الثاني » .
وأسهم المنجم كذلك إسهاماً كبيراً في توسيع عدد الاغنياء . ففي البرازيل ليس « مانا » وحده
من برز وبرهن بين السنة ١٨٥٠ والسنة ١٨٦٠ عن انه صير في ورجل اعمال ماهر واسس العديد
من شركات النقل والعمل في المناجم . ولكن التوفير ما زال ضئيلاً لان المال ينفق على شراء
المواد الباهظة الاكلاف او يبذر في الميسر والمراهنات . يضاف الى ذلك وجود الكثير الكثير
من الوسطاء الاردباء : كالمختار الذي يبيع بالتقسيم لقاء سندات توليه حق استيفاء ديونه بتملك
المواشي او البيوت ، و « المرصور » الذي يزيغ صكوك التملك .

ما كانت اميركا اللاتينية ، والحالة هذه، لتستطيع التجهز بدون مساعدة الدول الرأسمالية .
فهي المؤسسات الاوروبية ما انشأت معظم الخطوط الحديدية . ويجب الاعتراف هنا بأن خط
ساو باولو رائمة من روائع التقنية البريطانية : اذ ان القطر تتسلى خمسة منحدرات متعاقبة زوت
كل منها يجهاز خاص للجر . وهي « شركة البيرو التعاونية » ، التي كان مركزها في لندن
واستخدمت مهندسين اميركيين ، ما بنت خط « مولندو » و « اريكونيا » باتجاه كوزكو
وتيتيكاكا . اما الخط الذي يمر عبر الاندس فقد بني قسم منه في البامبا في السنة ١٨٨١ ثم
اسند « بارنغ » التزامه الى الـ « كروزو » بعد ان امن مبلغاً من المال ، ولكن الالتزام رسا
اخيراً على « كوكريل » .

في التجارة الخارجية احتلت بريطانيا مركز الطليعة الاول بعد ان تراجعت الولايات المتحدة
نهائياً حوالي السنوات ١٨٤٠ - ٥٠ . وباستطاعتنا ان نعتبر ان اميركا اللاتينية تعلقت اقتصادياً
بريطانيا العظمى .

لم يكن الوضع المالي في الدول الفتية وضعاً سليماً : فالوظيفة العامة باهظة الأكلاف ، على
انها لم تكن في مأمن من الرشوة بسبب تدني الرواتب . زد على ذلك ان الحكام لم يحافظوا
على مراكزهم الا بتمهيد انصار يتأكلهم الجشع . لابل كان من شأن برنامج التعليم العام وحده،

بسبب ما انطوى عليه من طموح ، إلحاق المعجز بميزانية تنفيذها بكل صعوبة الجدارك والضرائب المفروضة على مواد الاستهلاك . فتوجب من ثم اللجوء الى التضخم الذي خفض قيمة النقد والى القروض الباهظة . ولذلك فان تاريخ الجمهوريات هو ، على وجه التقريب ، تاريخ التزاماتها نحو الادارات المالية الأوروبية .

وافقت هذه الاخيرة على السلفات الاولى ابان الحروب الاستقلالية . ثم توجب عليها الاستمرار في مسانقتها لتجنب الافلام التي ستجعل مدينتها عاجزين عن الوفاء . وهكذا استدان شيلي من لندن بفائدة ٦ بالمائة في السنة ١٨٢٢ ؛ وتوقفت عن الدفع بين السنة ١٨٢٦ والسنة ١٨٤٠ ؛ وفي السنة ١٨٤٢ عُقد اتفاق حصلت سانتياغو بموجبه على مال جديد ؛ وفي السنة ١٨٥٨ ، استحصلت من آل بارنغ على قرض ثالث ؛ وفي تاريخ لاحق ولت البلاد وجهها شطر مؤسسة « مورغان » . وفي البيرو ، رهندت الشيلي الثورات الذي وضعت يدها عليه خلال الحرب الباسيفيكية عند مؤسسة « دريفوس اخوان » . ولم يندر ان حصلت الدولة الدائنة على رقابة الجمارك او رقابة الخطوط الحديدية . ونذكر هنا قضية مشهورة جداً هي قضية دين « جكر » على المكسيك الذي كان سبب التحالف بين انكلترا واسبانيا وفرنسا ، ثم تدخل هذه الاخيرة تدخلًا متادياً . ولم تكن النزاعات بين الدول من اجل النفوذ نادرة الحدوث ايضاً . وباستطاعتنا ، من اوجه كثيرة ، ان ننظر الى الحرب الباسيفيكية وكأنها مبارزة بين المصالح البريطانية وراء الشيلي ، والمصالح الفرنسية والاميركية وراء بيرو وبوليفيا ، كان النصر فيها حليف المصالح الاولى . وتقع على رأس المال الاجنبي كذلك مسؤولية اختلافات مدينة كثيرة .

ان من شأن الطابع الايبيري في حضارة اميركا الوسطى
وحدة الثقافة والتضام بين التقليد
واميركا الجنوبية ان يخلق فينا وهما خادعاً . فلا ريب في
وفكرة التقدم
ان ربع السكان يتكلمون الاسبانية أو البرتغالية ، ولا يزال
هناك عدة آلاف من اللهجات البلدية . وعلى الرغم من ذلك فان هذا الجزء من العالم مدين للغة
الفاتح بوحدة ثقافية معينة : لغة العلاقات من اجل المقايضات الاقتصادية وتبادل الافكار في
مناطق شاسعة . وبلغت الانتباه ان الاشكال القديمة قد استمرت في الارياف دون المدن التي
خلقت اشكالا جديدة .

على الرغم من ان الانجيل نادراً ما نجح في الحلول نهائياً محل المعتقدات القديمة ، فان الكنيسة قد لعبت دوراً كبيراً في نشر اللغات والعادات الايبيرية . والمقصود بالكنيسة هنا كاثوليكية متسلطة ترغب في رقابة الحياة الخاصة والشؤون العامة على السواء . وحين استطاع الاكليروس الى ذلك سبيلاً ، ابطل حرية المعتقد واخضع الحقون المدنية للمعتقد الكاثوليكي واحتفظ لنفسه بحق التعليم . ولكن اعداء الاكليروس حملوا الكنيسة مسؤولية امية الجماهير . وهكذا فان نسبة الذين عرفوا القراءة من الاحرار في البرازيل لم تتجاوز ٢٣ بالمائة في السنة

١٨٨٠ ، ومن العبيد ١ بالمائة .

بيد ان التمتع بلغة رفانة جميلة والميل الى ملاذ الفكر قد اعطيا الشعوب اللاتينية الاميركية مدارس ادبية غنية بالانتاج . ففي البدء قدّر كلاسيكيو شبه الجزيرة حق قدرهم ، ثم جاءت الرومنطيقية ، ونظم الشعر ، واكتشفت الواقعية والطبيعية بدورها حقلا فسيحا للتوسع والانتشار . فصدرت مؤلفات شخصية مبتكرة كثيرة تعبر عن الاهواء وتنطوي على وصف رقيق جداً للطبيعة البديعة . وقد تجانب في هذه المؤلفات انسلال الوقائع ووصفها الدقيق ، كما ان الشاعرية لم تضر بالنضارة .

عصفت بالنخبة المثقفة مثالية متأججة . فبرزت بقوة مقاومة الوصاية الكنسية (ضد اليسوعيين ومحكمة التفتيش بصورة خاصة) ، وكان لفكرة التقدم في الحرية سحرها الاخاذ . ومعمل بالقانون المدني الفرنسي في الجمهوريات بعد ان ادخلت عليه تعديلات تجعله يتفق والعادات الاسبانية ؛ اما القانون الجزائي في البرازيل فقد لعدده خير اعداد حقوق كبير اختصاصي في القضايا الاجرامية هو « برناردو دي فاسكونسلوس » . وبكل جدية حرر الحقوقيون ، من قراء « روسو » و « بنجامين كونستان » ، البنود الصريحة للنصوص الدستورية ؛ لقد قابل عدم الاستقرار الفعلي توق الى تثبيت القانون .

انتشرت الماسونية وانضم اليها الناس بأعداد كبرى . فان « سارمينتو » ، حامل لواء التعليم العام في اميركا الجنوبية ، ومؤسس الدار الاولى لتخريج المعلمين - في شيلي ، في السنة ١٨٤٢ - ومؤسس المدرسة النموذجية في يونوس ايرس ، ورئيس حزب الاحرار في الارجنتين ، ورئيس هذه الجمهورية بين السنة ١٨٦٨ والسنة ١٨٧٤ ، قد برز بين كبار باعشي محفل « الشرق الاكبر » ومحفل « المجلس الاعلى » . واشتهر الماسوني « غاريلدي » باشتراكه في القتال من اجل استقلال اوروغواي . وعن طريق الماسونية الانكلوسا كسونية تسربت الروح النفعية الى مذهب الاحرار . ولكن الفلسفة الوضعية هي التي احرزت اعظم النجاحات اثارة للدهشة في اوساط المثقفين الذين كانوا يبحثون عن قاعدة يسلكون بموجبها . لا بل ان تعاليم « كونت » ، التي فسرت تفسيراً حرفياً ، قد دفعت الى تأسيس بعض الكنائس ، ككنيسة « معبد الانسانية » ، وحدثت بعض النهضة في العلوم الاجتماعية . وسعى الشيلي « لاستاريا » الى التوفيق بين كونت و « جون ستوارت ميل » وتوكفيل . وفي البرازيل والمكسيك ادى الخوف من الفوضى والمذهب الوضعي مشتركين الى ولادة حزب « علمي » ابتغى نوعاً من الاستبداد المستنير القادر على تحقيق امور عظيمة .

كان سبب الخلاف في النزاع بين الكنيسة وخصومها نفوذ الاكليروس على المجتمع والمدرسة والسلطات العامة ؛ ولكن « الكفاح الثقافي » قد استهدف كذلك الممتلكات الكنسية التي اتاحت للكنيسة ان تكون دولة داخل الدولة ، والتي طمعت بها هذه الاخيرة لان كاهل ميزانيتها كان متفلاً بالديون . فقابلت اعمال العنف التي اتاها هذا الطرف اعمال عنف اخرى اتاها

الطرف الآخر . اما التسويات القليلة التي تحققت فلم تدم قط طويلا .

تمذر الوحدة الاقليمية لم تضع حروب الاستقلال حداً للسيطرة الايبيرية فحسب : فهي قد كرس تجزئة الممتلكات الاسبانية الواسعة الاطراف . وهي البرازيل وحدها التي استطاعت المحافظة على اراضيها : ولو ان الاوروغواي انفصلت عنها . ثم توفي بوليفار منهوكا في السنة ١٨٣٠ بعد فشل مشروع كولومبيا - الكبرى . ولن تسفر المؤتمرات من اجل تحقيق الوحدة ، التي ستدعو اليها المكسيك ثم البيرو ، الى اية نتيجة ؛ فقد نشبت منذ ذلك التاريخ نزاعات دامية بين الجمهوريات الجديدة . وهكذا فان ١٦ دولة قد تقاسمت في النهاية اراضي البر الاميركي الجنوبي حتى رأس هورن ، قبالة الاتحاد الشبالي الاميركي .

نجد تفسير هذا التفتت في الجغرافية . فقد كتب « مبولدت » ان « الدول المتجاورة لا تتصل في معظم الاحيان الا بالمضائق الاستعمارية » . ولما كان للبحر جاذبه ، فان التجمعات الطبيعية قد جرت بدلالة اقرب ساحل اليها . وكان للاحراج الامازونية نصيبها الاكبر في قيام فنزويلا على بحر الانتيل وفي الحد من توسع الممتلكات الفويانية الانكليزية والهولندية والفرنسية التي تمكنت من البقاء ، للسبب نفسه ، على حدود البرازيل ، وعلى هامشها اذا صح التعبير . وارتقت الصحراء زمناً طويلا التوسع الشبلي في الشمال . وتكونت باراغوي وراه الحسوط المائية والمستنقعات واشجار الغابات الشائكة في « شاكو » . فالحدود تعني من ثم منطقة لا خطأ واضعاً ، وقد تجددت المنازعات حولها تكراراً .

لم تقم سوى فوارق جزئية بين خريطة التقسيمات الادارية الاسبانية (نيابات ملكية وقطانيات) وبين خريطة الجمهوريات . فان عواصم الامس قد احتفظت بوظيفتها الجاذبة ؛ ولكن المنافسات القائمة بينها ، على غرار الاثرة الاقليمية التي عانت منها اسبانيا في العهد نفسه ، قد زادت حدة التنازعات الاقليمية . فقد عجزت الوحدة الثقافية والتيارات التجارية التقليدية عن الحؤول ، في جو اقتصاد لا يزال بدائياً ، دون تفرق السكان بفعل المسافات . لا بل اذا كانت الدولة واسعة نسبياً ، أصبحت وحدتها قصيمة جداً . فان المنازعات تنفجر حينذاك بين العواصم والولايات ، وبين المدن والارياف ، وبين الوجوديين والاتحاديين : ففي فنزويلا مثلاً ظهرت نزعة سكان السهول الاستقلالية عن سكان كراكاس ، ونزعة رعاية المواشي المماثلة في البامبا الارجنطينية عن بوينوس ايرس . وغالبا ما رجحت كفة الحل الاتحادي في النهاية : الولايات المتحدة المكسيكية ، والولايات المتحدة الكولومبية ، والولايات المتحدة البرازيلية ، والولايات المتحدة الفنزويلية ؛ وقد اتخذت الارجننتين كذلك شكلاً اتحادياً .

كانت الحرب شبه دائمة بين هذه الدول الفتية التي تأكلها التحاسد وانجر حكامها الى خوض المغامرات الخارجية بداعي النفوذ وتنازعوا الطرق النهرية النادرة والهاممة وثروات المناجم

الثمينة . وحدثت هذه النزاعات في كل مكان: بين كولومبيا والاكوادر ، وبين الاكوادر والبيرو ، وبين الجمهوريات الصغرى التي نشأت عن تفكك اتحاد اميركا الوسطى . وكان مسرح ثلاثة او اربعة منها نيابة لابلاتا الملكية القديمة التي كانت مناطقها النهرية الشمالية مطمع الطامعين؛ وانتهى ام هذه النزاعات هولا ، بين السنة ١٨٦٥ والسنة ١٨٧٠ ، الى افساء شعب باراغواي الصغير . ويعيد ذلك نشبت الحرب المعروفة بالحرب الباسيفيكية التي انتزعت الشيلي خلالها من بوليفيا والبيرو المقاطعات الغنية بالنطرون واقصت الاولى منها عن الشاطئ .

في اواخر القرن فقط ، اخذت هذه الدول تنصرف شيئاً فشيئاً عن طريق اللجوء الى القوة الى الاجراءات المعمول بها بموجب الحق الدولي . واوحت الاضطرابات التي عانى منها هذا الجزء من العالم بتقارب اميركي شامل اعتبر ضرورياً .

دانت الجمهوريات مبدئياً بالحريات وحتى بالديموقراطية ، ولكنها في الواقع كانت فريسة احزاب تنازعت الحكم بعنف . فنادرا ما توفرت الشروط التي تسمح بقيام نظام دستوري . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان حروب الاستقلال ابرزت دور الزعيم ، اي الـ « كوديلو » . فان بوليفار «وسان

مرحى آخر واسع الانتشار :
الاضطرابات الدافئة في قلب الامم
الفتية . حكم الزعيم الفرد وصعوبة
ولادة النظام الدستوري

مارتين » ، اللذين سيخلد ذكرهما ، قد تركا بعدها خلفاء ومقلدين . وقد تجلت رومنطيقية ادبية مجدت العزائم الفردية : فان « اندراد » قد ذكر بآتي نابوليون ، كما ان « مونتالفو » ، في « المعاهدات السبع » ، قد احل بوليفار فوق بطل العالم القديم . وليس هناك من حكومة تولت الحكم الا في اعقاب انقلاب او انتخاب افسدت فيه ارادة الناخبين ، ثم كانت ضحية اللاشعرية والاضطرابات . ففي المكسيك تولى الرئاسة شخص كل سنة تقريباً خلال السنوات الست والثلاثين التي عقت سقوط زعيمها الاول « ايتورييد » . وفي فنزويلا نشبت ٥٢ ثورة في اقل من ١٠٠ سنة . وكانت بوليفيا مسرح ستين عصياناً عسكرياً ، وغيرت دستورها عشر مرات ، وامامت او سمحت بامانة ستة من رؤسائها . ولم تعرف باراغواي نظاماً غير الدكتاتورية . ويروى ان ضحايا ثورة السنة ١٨٧٩ في كولومبيا بلغوا ٨٠٠٠٠ .

ان حسم الخلافات على هذا النحو اتاح لبعض الملونين ان يلعبوا دورا هاماً . فان الرشوة والنداءات المهيجة والحقد المزمع على مواليد المستعمرات الاغنياء قد دفعت العامة الاممية وراء المغامر الجسور . اصف الى ذلك ان الكوديلو قد بدا وكأنه مواصل عمل الزعيم الهندي . فك من وجه اثار الاعجاب ؟ والى جانب بعض مواليد المستعمرات المهذبن تهذيباً ارسوقراطياً ، من امثال « روزاس » الشبيه بأشارف الاسبانيين ، « وبورتاليس » المحافظ على القيم التقليدية ، كم من ملون غريب الاخلاق ؟ واننا نكتفي هنا بذكر راعي الخنازير الهندي ، « كاريرا » ، الذي حكم غواتيمالا حكماً استبدادياً طوال خمس وعشرين سنة . واي انتقام كذلك حين يحكم المكسيك هندي من امثال « بنيتو جواريز » او خليفته الخلاسي « بورفيرو دياز » ، او حين

يحكم فنزويلا « بايز » الاتمي الطويل القامة الذي كان فارساً ماهراً نظير روزاس !

ورقة تولي الكوديلو السلطة وورقة اخرى تنتزعها منه . اليوم هو رسول العناية الالهية الواجب الوجود ؛ وغدا سوف تلحق به كل شنيعة ؛ واذا ما استلم دفعة الحكم مرة اخرى ، اعتماد شعبيته . ومن غريب التناقض انه انما ينتهك حرمة القانون بغية فرض احترامه احتراماً افضل . اما الكنيسة فترضى عن ايده او من هو بحاجة اليها ، وتعاين من النظام الذي تكون هي ضحيته .

ولكن مهما يكن من قساوته ، فان هذا النظام ، الذي كان وليد الفوضى ، كان علاجها ايضاً . يتغل الصرايب لمصلحته ، ولكنه يتقلها لمصلحة الدولة ايضاً . وقد ظهر ممثله بمظهر الموحد حين دعسي روزاس في الارجننتين وبورتاليس في شيلي وجواريز في المكسيك . لقد تمثل باليمين ولكنه اهتم اهتماماً كبيراً بالتعليم العام ؛ وتمثل بالمسكربين والحقوقيين ، ولكنه كان واسع الآفاق ، وفور العمل بتأسيس المشاغل والمصانع . وجملة القول انه اعاد وصان وأمن للمستقبل الوحدة الوطنية ، وان تخلى عن بعض حقوقه للأسماليين وللدول الاجنبية .

الاستمرار والتنوع البرازيليان من عويانا الى مشارف لابلاتا، ومن جبال الاندس الى الاطلسي امتدت سيادة واحدة ، كما في عهد السيطرة البرتغالية ، على اكثر من ٨ ملايين كيلومتر مربع . وعلى نقيض ما حدث في الاقاليم الاسبانية السابقة ، استمرت هذه الوحدة في كنف السلالة الشرعية ، سلالة « براغانس » فكان للبرازيل من ثم وجهه ميز خاص .

لم يستلزم ابقاؤها على سلالتها الاوروبية اي ارتباط بالوطن الام القديم . وقد حافظ « دون بدرو » على كرسية في ريو لانه برهن في برهة من الزمن انه برازيلي اكثر منه برتغالي . وعرف كيف يقتنع بنظام دستوري ترك له ، من جهة ثانية ، سلطة حقيقية ، ولا سيما الإشراف على ادارة مركزية ؛ وتحمل بالفطنة ابدأ فاستقال في الوقت المناسب ، تاركاً ادارة شؤون البلاد لوصاية ، وفي الواقع للطبقات المسيطرة التي سرت بالحكم طيلة قصور ابن الامبراطور الشرعي وبالتمهيد لولاية ملك برازيلي حقاً . فلمب بدرو الثاني دوراً شبيهاً بذلك الذي لعبه في الماضي ماركوس اوريليوس ، وذلك بفصله في الخلافات السياسية وباهتمامه بالتحقيقات العملية قبل اي شيء آخر .

كانت هناك في الواقع اربع دول برازيلية متجانبة اكثر منها متضامنة : برازيل الاحزاج الامازونية منتجة الاخشاب الثمينة ، برازيل الهضاب الواسعة حيث يستمر النشاط المنجمي ، برازيل مشاجر المناطق الحارة (هذه هي برازيل قصب السكر والقطن في باهيا وبرنوبوك وريو) ، واخيراً البرازيل الجنوبية التي اخذت منذ عهد قريب تتعاطى تربية المواشي . واذا اخذ المهاجرون الاوروبيون ، وجمهم من الالمان ، يستوطنون هذه المنطقة الاخيرة ، فان الهنود ما

زالوا يسيطرون على المنطقة الاولى ، بينما تميزت المنطقتان الاخريان بعمل الارقاء في خدمة الارستوقراطيين من مواليد المستعمرات والخلاسيين . وكانت النزعة الانفصالية خافية ابدأ حين لا تظهر بمحاولات انفصالية معلنة : حيناً في سيريا او برنمبوك ، وحيناً في بارا أو باهيا ، وآخر في ميناس ؛ وطوال عشر سنوات ، القت « ريو غرانده دو سول » الاهاية والخوف في جيوش ريو . كلها ازمات اضرت بالنمو الاقتصادي واثقلت كاهل الخزينة ، واوجبت تمهد قوة عسكرية وبحرية هامة . وكانت الكلمة الفصل الاخيرة للاسطول الذي يحاصر الثائرين . وقد اعتمدت في الوقت نفسه - في سبيل النفوذ والسيطرة على مداخل حوض « بارانا - بلاتا » - السياسة التوسعية البرتغالية القديمة باتجاه الغرب ، الى ما وراء خط « تورديسيلاس » ، فأقحمت البرازيل في نزاعات دائمة باهظة الاكلاف لم تؤد الى اشباع مطامعها اشباعاً تاماً . فان الفشل الذي انتهت اليه الباراغواي مثلاً لم يكن تمويضاً كافياً عن فقدان الاوروغواي .

توطدت الدولة البرازيلية شيئاً فشيئاً باستعانتها برؤوس الاموال البريطانية ، وبمبعا المواد الغذائية والحامات وتشغيلها العبيد ، وتمويلها اصحاب المغارس والمناجم . ومنذ السنة ١٨٥٠ ، وطيلة ١٥ سنة ، ارتسمت انطلاقتها بمزيد من الوضوح : فقد تضاعف دخل التجارة الخارجية وتوسعت عمليات احياء الاراضي ، وظهر الخط الحديدي والتلغراف . وكان ذلك العصر الذهبي للقطن والسكر . ولكن حرب الباراغواي الرهيبه كلفت اموالاً كثيرة بلغت المليار ، فمقبتها مرحلة هبوط : ازمة سكر وازمة مناجم زادت من شدتها ازمة الرق . فبين قانون السنة ١٨٧١ ، وقد اقرت بموجبه حرية الزوج الذي سيولدون (قانون البطن) ، وقانون الاعتاق الشامل الذي صدر في السنة ١٨٨٨ ، تفاقم الهيجان والاضطرابات . فتخلى عن الامبراطور اسياذ الارقاء ، كما تخلى عنه الاتحاديون والجيش نفسه الذي شكاً من ضالة الرواتب ، فتخاذل امام انقلاب السنة ١٨٨٩ .

كانت الخطى الاولى التي خطتها جمهورية الولايات المتحدة البرازيلية عسيرة جداً . وقد ترتب على كل ولاية ، منذ ذاك التاريخ ، ان تعيش لنفسها . فتجهزت « ساو باولو » بالادوات ونجحت في بيع بنها وازدهرت ، بينما عاشت باهيا وبرنمبوك في ضيق ؛ واستفاد الجنوب من الهجرة الاوروبية الثانية وربى المواشي وزرع الحبوب ؛ ولكن منقطة المضاب اعتمدت الاقتصاد الراجع ببعض الصعوبة . وأثار زوال اليد العاملة العبدية مسائل خطيرة دارت حولها حول اعتماد اقتصاد جديد مبني على نظام الاجور . الا ان تزايد الطلب الاوروبي والاميركي الشمالي قد ساعد البرازيل الحديثة على النهوض . وقد اجتاحت حمى المضاربة مجتمع اصحاب المزارع وتجار اللحوم والجلود ؛ ثم ما لبثت هذه الحمى ان امتدت الى مناطق احراج امازونيا الفنية بالمطاط فتعسّن التجهيز واتسعت المدن ، ولكن تفنخل الفئات الثرية قابله بؤس الجماهير التي كان الجوع رفيقها الدائم . وقابل نخبة من كبار الحقوقيين والكتاب المنتجين من جهة سيطرة امية واسعة من جهة اخرى . وقد طبعت التناقضات الاجتماعية والاقليمية الجمهورية الكبرى الخاصة لنظام

الانتخاب العام المباشر بطابع مميز لم تعرفه من قبل .

كما في القارات الاخرى ، وفي المناطق المتقابلة بالنسبة لخط
الاستواء ، تمتد جنوبي خط الجدي مساحات واسعة جرداء ،
وتصبح الارض جافة والمناخ منشطاً ومقرباً . تنعزل المجموعة
السكنية في البامبا ، شبيهة بالمزرعة البويرية او الانكلوسا كسونية ، ويتعاطى اصحابها تربية
المواشي . ويذكر نمو المدن الجديدة بالاراضي الجنوبية المقابلة ايضاً : فمنذ السنة ١٨٧٠ اقام في
المدن زهاء ٤٠٪ من سكان الارجنتين ؛ وفي السنة ١٨٩٥ ضمت « بوينوس ايرس » ٦٠٠ . ٠٠٠
نسمة من اصل ٤ ملايين ونصف المليون . وهنالك نسبة اعلى من هذه : فان ال ٢٠٠ . ٠٠٠ شخص
الذين عاشوا في « مونتفيدو » كانوا يمثلون اكثر من ربع سكان الوروغواي . وبذكرنا مرفأ
تصدير الاصواف واللحوم والجلود هذان بمرفأَي ملبورن وسيدني .

ويبرز التضاد خصوصاً مع البرازيل ، غير المتجانسة ، والمتشعبة بفعل التوتوات : فنحن
نتصور دولة كبرى واحدة في اطار واسع جداً وخال من التوتوات هو اطار السهل الذي تتجه
مياهه كلها الى لابلاتا . والحال لم يتجاوز سكان بوينوس ايرس ال ٢٥٠ الف نسمة حين قررت
انكلترا فيها لإبطال الميثاق الاستعماري الاستاني وأولتها كل اهميتها . وحتى في السنة ١٨١٦
اعلن سان مارتين في تو كومان استقلال ولايات لابلاتا المتحدة قبل ان يذهب الى « ليا » لبحث
فيها عن مفاتيح مسكنه . وسبقى حدود الجمهورية زمنياً طويلاً بدون تمييز . ففي سبيل
استمالة اقليم ال « شاكو » وأقاليم المغارس والملح في منطقة جبال الاندس ، كان يقتضي الانتصار
على البامبا التي لم تكن حلقة اتصال بل عائقاً جدياً . وقد اصاب سارمينتو حين قال : « ان
المصيبة التي تعاني منها الجمهورية الفضية هي امتدادها ؛ الصحراء تحيط بها من كل جانب وتدخل
الى قلب البلاد ؛ العزلة والمسافات الخالية من اي مسكن بشري تؤلفان الحدود المسلم بها بين
الولايات المختلفة » . وهكذا فان البورة التي يسيطر عليها الجفاف واسراب الجراد وقر فيها
مسالك نادرة للعربات ، قد تحمكت بوسط البلاد وحتى بمشارف العاصمة وعزلت الولايات
وخلقت الفوارق الاقليمية . ولكن الحقيقة التي يجب قولها هي ان البلاد افتقرت الى السكان
الذين لم يبلغوا المليونين في السنة ١٨٧٠ .

تخطى المفكر « ريفا دافيا » اهل زمانه الى تجرية محاولة ديموقراطية تكون على رأسها نخبة
سكان العاصمة . فحدثت ردة فعل انفصالية عنيفة كادت تؤدي الى قيام ثلاث او اربع دول
مستقلة مكان الارجنتين المتفككة لولا شدة عزم « روزاس » . سار روزاس على رأس عمال المزارع
ورعاة المواشي وسحق الزعماء المحليين او فاوضهم واقترح على الارجنتينيين احتلال المناطق النهرية.
وتحدى اوروبا . اجل لقد انتهت فظاظته بقتله ، ولكن عمله بقي من بعده .

كانت ارجنتين السنة ١٨٥٠ من حق مواليد المستعمرات والخلاسين الذين اسسوها . فكل

شيء فيها كان مرتبطاً بالرعي الذي يراقب ويطارد ويسلم القطعان التائهة؛ وقد عظمه سارمينتو في كتابه «فاكوندو». ولكن بورجوازية اعمال نمت في بوينوس ايرس واتصلت بأوروبا ونازعت المزارعين المكاسب التي وفرتها لهم تربية المواشي. فان «اوركوزاء» الذي دشّن المعهد الاتحادي ما زال أشبه بسيد عقاري كبير؛ اما سارمينتو فقد أنبأ بتسلم البورجوازيين زمام السلطة.

وكما جرى في البرازيل، حدثت ثورة بين السنة ١٨٧٠ والسنة ١٨٩٠. فمن جهة رفعت الهجرة الأوروبية عدد السكان من مليونين الى اربعة ملايين؛ مما زاد نسبة البيض في لونت الأرجنتين. ومن جهة ثانية تعاضم شأن الاقتصاد الرعوي تماظماً كبيراً؛ فنمت في الوقت نفسه القطعان المدة لانتاج الاصواف والقطعان المدة لانتاج اللحوم؛ وعقبت تسليكات اللحوم المجنفة تسليكات اللحوم المملحة، وبني البراد الاول في السنة ١٨٨٢. ثم بوشر تنفيذ بعض المشاريع ببناء الخطوط الحديدية، فارتسمت الشبكة التي ستنشأ في المستقبل وتوثقت روابط الاتحاد. وزاد نفوذ بوينوس ايرس الفخورة بمجتمعها الانيق وبنشاطها؛ وبرهنت ارجنتين سارمينتو وألبردي عن حرصها على التعليم الالزامي والدروس العالمية؛ وفي السنة ١٨٩٥، عادلّت التجارة الخارجية بأهميتها تجارة البرازيل التي كانت تفوقها سكاناً.

بينما كانت الباراغواي عائشة في ضيق تحت سلطة دكتاتوريتها الذين دافعوا بلا مرأى دفاعاً حريصاً عن شخصيتها العنصرية، ولكنهم جروها الى كارثة لن تنهض منها قبل القرن العشرين، استفادت الاوروغواي من حسن طالع الأرجنتين. فالرعاة سنوا فيها الشرائع على غرار ما جرى في الجهة المقابلة وراء لابلاتا، وتوصلوا في السنة ١٨٩٠ الى جمع ٢٣ مليون حيوان مقابل ٧٠٠ الف نسمة. ولكن بورجوازية مونتفيدو، المدينة الجميلة القائمة على رأس داخل في البحر نظير قرطاجنة، اتصفت بافتتاح فكري عظيم. اجل كان الصراع عنيفاً بين البيض، الاسبانيي المشأ والكاثوليك عموماً، من جهة، وبين المولنين، الخلاسين المستندين الى المحافل الماسونية عموماً، من الجهة الثانية؛ ولكنه لم يمنع انفصال الكنيسة عن الدولة، وإلغاء عقوبة الاعدام، وقرار قاون العمل.

لم تسمح جبال الاندس بأن تحتل دولة واحدة كل عرض الشيلي: غرابة جغرافية ونجاح قومي البر عند المناطق المتوسطة البعد عن خط الاستواء. يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان قبطنية الشيلي العامة كانت تابعة لليما؛ وعلى شواطئ الباسيفيكي قام الجسم المسيخ الذي تحاذت ولاياته، على طول ٤٢٠٠ كيلومتر و ٤٠ درجة من درجات العرض كما تتحاذى خرزات السبحة، وتميز بمواصلات برية بعيدة التصديق وبسواحل تكثرت فيها الرؤوس والخلاجان. فكانت البلاد أشبه ما تكون بجزيرة تحيط بها المياه والقمم المرتفعة وأحراج المناطق الباردة في الجنوب—حيث تقطع الأخشاب الضرورية لبناء السفن—والصحراء

الحارة في الشمال ، ويمتد في وسطها واد معتدل المناخ وخصب التربة ،

تسلم وادي سانتياغو هذا زمام السلطة مستفيداً من مرفأ كبير هو فالباريزو ومن مجاز الـ «كومبر» المؤدي الى البامبا الغنية بالحيول التي اولع بها أصحاب المزارع. وأضافت بعض العائلات الغنية من مواليد المستعمرات مكاسب زراعة الحبوب الى تربية المواشي . وتحقق الاستقلال بساندة الانكليز . ومنذ ذلك الحين ، أمن الحزبان المتنافسان ، المحافظون والاحرار - اللذان يعبران عن التجهين مختلفين في الرأي العام الارستوقراطي - تسيير عجلة الشؤون العامة دون صعوبات هامة .

ولكن الشيلي ما كانت لتحتل مركزاً هاماً في هذه المنطقة الضيقة . ففي سبيل السيطرة على الاحراج الجنوبية توجب عليها اخضاع الاروكان ، فدخلت صراعاً لن ينتهي الا في السنة ١٨٨٣ ارغها على البقاء في حالة حرب دائمة. واستغلت كذلك صفاتها الحربية بشنها على بوليفيا والبيرو، بغية الاستيلاء على الصحراء الشمالية الغنية بالمعادن ، حرباً لم تكن دون صراعها مع الاروكان عنفاً .

على الرغم من ان عدد سكانها قد تضاعف ، افتقرت الشيلي الى اليد العاملة ، وكانت الاجور فيها اعلى منها نسبياً في البلدان المجاورة . ولستنا نعني بذلك زوال البؤس ؛ فاستثمارات المناجم كانت أشبه بالجحيم . ولكن النترات والنحاس قد وفرا مداخل اتاحت تجهيز البلاد بالخطوط الحديدية والمرافىء . وتمازمت طبقة بورجوازية فازعت الاوليغارشية العقارية السلطة : فان ثورة السنة ١٨٩١ التي نهض بها الاسطول واستفاد منها رجال المال ، انتهت باستقالة « بالماسيدا » آخر رئيس سلك سلوك الاشراف . واذا ما اخذنا بعين الاعتبار النهضة الاقتصادية وحسن ادارة الاموال العامة وتقدم التعليم وتقسيم الاملاك الكبرى تقسيماً تدريجياً ، بدا لنا ان مستوى الحياة العام كان أخذاً في الارتقاء .

بعد تواري بوليفار وتبخر حلمه -وحدة النيابتين الملكيتين
الجمهورية الاربع في جبال انديس
القديمة ، غرناطة الجديدة وليا - اشرف خلمائه على ولادة
المرتفعة : نموها المسير
خمس جمهوريات خصيمة وفقيرة . ولكن الطبيعة نفسها قد
ساعدت على التجزئة : فان قيام النيابتين قبل مشروع التوحيد كان مطابقاً لتضاد كلي
الوضوح بين المناخات الرطبة والمناخات الجافة في الجبال التي لم تتأثر بها تأثراً كبيراً ؛ فلن
يتمكن اي مركز من فرض نفسه بعد انهيار السيطرة الاسبانية .

جمع البيرو بين المناطق المنخفضة التي يتعذر زرعها الا بواسطة الري وبين وعورة الهضاب التي تعتبر بين اكثر هضاب الكرة الارضية ارتفاعاً واقفاراً . انها ارض الهندي والحشروف والجلل الاميركي والمعادن الثمينة .

اما الكتلة الكثيفة ، التي ارتبطت ببنياية لابلاة الملكية بعلائق تجارية وانضمت اليها في

عهد متأخر ، فقد حملت اسم « ليرتادور » الهيد . ولكن اسمها لم يحمل منها دولة قوية : اذ لم يتجاوز سكانها المليوني نسمة في اكثر من مليون كيلومتر مربع في السنة ١٩٠٠ . وقد بلغ السيل الزبى عندما فقدت بوليفيا منفذها الضيق الى البحر وانتزعت البرازيل منها بعد ذلك اقليم « اكر » الغني بالمطاط . اضيف الى ذلك ان سكانها الفقراء والمتخلفين لم يستفيدوا استفادة كبرى من ثروة الفضة التي ما لبثت ان انضمت اليها ثروة اعظم شأناً هي مناجم القصدير الوفيرة .

لم تكن البيرو اوفر حظاً . فان ليا ، العاصمة الغشالية الساحرة ، كانت آخذة في التدهور بسبب بعدها عن « الاراضي الباردة » أي عن المنطقة الهندية المرتفعة ، وقد مالت طبعاً الى اعتبارها كاحدى ملحقاتها . وقد اضرت بها « اريكويبا » بفضل حسن موقعها بالنسبة لمراكز الغوانو ، ومناجم النترات ، و « كوزكو » وحتى منطقة مونتانا الامازونية الطابع التي اجتذب « مطاطها الغشالي » العديد من المهاجرين في اواخر القرن . اجل لقد اعتق الكوديلو « كاسميلا » الزوج والهناد ، ولكن مسألة اليد العاملة اصبحت مسألة عسيرة ، لا سيما وان الـ ٩٠ الف صيني الذين نزلوا الى البر بين السنة ١٨٥٠ والسنة ١٨٨٠ لم يلبثوا ان اعتبروا غير مرغوب فيهم . ولكن الدولة يجب ان تعيش من الغوانو والمناجم : أفلم يذهب « مانويل باردو » الى حد تقرير احتكار النترات في السنة ١٨٧٥ ؟ والحال فقد عجز الجيش الشعب والمتطلب ، الذي ترتبط به السلطة ، حتى عن الدفاع عن النترات ! وفقدان النترات يعني الافلاس ، لا سيما وقد ثقلت وطأة ضريبة الملح على كامل عامة الشعب . انه لتاريخ حكم معوز تخللته ثورات دائمة شاهدها الشعب دوماً اكثر اترات .

عرفت الاكوادور ، الضيقة الرقعة ، مشاقات مماثلة . فان « كيتو » ، العاصمة الهندية القديمة ، القائمة على ارتفاع ٣ آلاف متر ، لم تتغلب على « غواياكيل » ، سوق تصريف محاصيل مغارس المناطق الحارة . وازداد هنا التضاد الذي شاهدناه في البيرو بين « الاراضي الباردة » و « الاراضي الحارة » . وادت ازمة قصب السكر الذي كان يزرعه الزوج الى افقار اصحاب المغارس ، وما كانت شجرة الكاكو بعد لتخلص البلاد من ورطتها . ولذلك فان الجبل القاسي والمتخلف قد فرض « فلوريس » وساند « غارسيا - مورينو » والمحافظين ورجال الاكليروس . وقد دخلت الاكوادور في نزاع دائم مع جيرانها ، فانكشمت رقعتها شيئاً فشيئاً وفقدت في النهاية نصيبها من منطقة « مونتانا » .

ابعد الى الشمال تزول الانجاد في جبال الاندس وتزداد الرطوبة ، فتتجزأ كولومبيا جبالات وعرة المنحدرات وودياناً داخلية سحيقة موازية لخط الطول ، بينما تعزلها عن شاطئ « شوكو » الباسيفيكي احراج كثيفة الاشجار . وذهب بعضهم الى حد القول انها اشبه بجزيرة جبلية تحيط بها الاحراج . وقد نشطت فيها تربية المواشي في « المناطق الباردة » الى جانب المغارس في « المناطق المعتدلة » ، ووجهت شبكتنا « مجدلينا » و « كوكا » حركة النقل فيها شطر بحر

الانتيل لصلحة قرطجنة . واعطاها امتلاكها لمضيق باناما مركزاً دولياً قوياً لم يخل من الاخطار .

تسلطت ذكريات غرناطة الجديدة على رجال بوغوتا الذين لم يرضوا بالتخلي عن فكرة كولومبيا الكبرى على الرغم من ان حكم كولومبيا الحالية كان من الصعوبة بمكان بسبب انقسامها . فسكان المناطق المختلفة لا يرون مبرراً يوجب عليهم الانحناء أمام توجهات سكان بوغوتا: فئات تجانبت وتآلف كل منها من مواليد مستعمرات وخلاسين وزوج ومن بعض الهنود الذين لا شأن لهم . اصف الى ذلك ان الاقتصاد كان في حالة ركود : فقرطجنة لم تكثرت لانكباس القناة التي كانت تصلها بمجدينا ، والاسهام الاوروي كان طفيفاً جداً . وكانت الاثرة الاقليمية والبؤس مصدر الاضطرابات التي ارتدت طابع الوحشية القسوى . وانتقل الحكم من المحافظة الاوليغارشية الى الراديكالية ، ومن مناهضة الاكليروس الى ردة فعل اكليروسية ، ومن الغاء حكم الاعداء الى مذابح بين انصار الفرقاء ، ومن الاتحادية بين الولايات الى الدكتاتورية العنيفة . واتضح التدخل الاميركي في النهاية وأدى الى خسارة باناما ، بينما هبنا لجحاح زراعة القطن وشجرة البن لمستقبل قريب افضل ، بانتظار ظهور البترول ، ذلك المورد غير المتوقع .

جاءت الثورة مبكرة في شطر غرناطة الجديدة المتجه نحو بحر
الانتيل والمجاور لسباسب الاورينوك ايضاً : فقد استطاع
مواليد المستعمرات الاتصال بكوراسا ووترينيداد من جهة ،
والوصول على المساعدة والحماية في السهول . وكانت هنالك حركة نقل هامة بين مناطق تربية
المواشي الداخلية الواسعة وبين المرافئ ، وكانت الجزر قد ادخلت الى مرتفعات غرناطة
الجديدة زراعة شجر في البن والكاكاو واسترقاق الزوج . فألف مربي المواشي وأصحاب
المفارس من ثم الفئتين الاجتماعيتين اللتين سيتيح اتفاقهما انهاء فنزويلا ، وربما تفسر خلافاتها
تاريخها المضطرب ايضاً .

فنزويلا بين سكان السهول
وأصحاب المفارس

هم سكان السهول ، وسواهم من الخلاسين ، القساء والامين ، الذين الفوا ، بقيادة « بايز » ،
« زعيم السهول » ، خير عناصر الجيش الذي جمعه بوليفار . ولكن الدستور الاتحادي
والاوليفارشي الذي خلفه « المحرر » ما كان ليحول دون الحروب الاهلية التي نمت ابانها الروح
الانفصالية : فان انفصال « ماراكايبو » ، منافسة كاراكاس ، استمجد التطور نحو الصيغة
الاتحادية ، فقسم دستور السنة ١٨٦٤ البلاد الى ٢٤ ولاية . وفي فترة من الزمن ادار الكوديلو
« غوزمان بلانكو » دفة الحكم بقوة : فنظم الجيش وناصر الادباء وسمى الى تنمية الاقتصاد
وعادى الكنيسة التي كانت ممتلكاتها مغرية ، ولكنه لم يرض مع كل ذلك بالخضوع لاوروبا
الاستعمارية . فقد نشب نزاع على الحدود بينه وبين انكلترا حول اراضي « يورواي » ، الغنية

بالذهب ، دام ١٣ سنة . ثم تجددت الاضطرابات ، مصادفة في الزمان حدوث الازمة التي عانت منها تربية المواشي : فوجهت الاويثة الحيوانية والحروب الاهلية ضربة خطيرة لسكان السهول الذين كانوا يرفضون الانحناء امام فنزويلا البن والكاكاو . وهناك في غير مكان تم الانتقال بصعوبة من اليد العاملة العبيدية الى نظام العمل المأجور : وعلى الرغم من ارتفاع عدد السكان ، فان الهجرة الاوروبية ما زالت غير كافية ، لا سيما وأن منافسة المزارعين البرازيليين كانت مشاراً للخوف . زد على ذلك اخيراً ان هوة سحيقة قد باعدت بين الاقلية المتعلمة والغنية وبين كبار الملاكين والسكان الآخرين ، في هذه الجمهورية المدعية بالديموقراطية .

يمكننا اجمال القول بأن النظام الاتحادي قد حد من تجزئة الجمهوريات المصرية في اميركا الوسطى الكتلّة الاميركية الجنوبية . أما في اميركا الوسطى ، فقد اخفق وعجز عن تحقيق اعادة التجميع . فقبطانية غواتيمالا العامة القديمة قد تجزأت بعد رفضها سيطرة المكسيك التي كانت متحدة بها في نيابة اسبانيا الجديدة الملكية .

دفع المناخ الحار والرطب نفسه بالانسان في كل مكان تقريباً الى « المناطق المعتدلة » . ولكن كثافة السكان متباينة تبايناً بعيداً والتكوين المصري مختلفاً جداً . فبينما كانت غواتيمالا ، ولا سيما سان سلفادور ، أكثر أهلاً بالسكان من البلدان المجاورة ، تميزت كوستاريكا بنسبة كبرى نادرة من العنصر الابيض . ولكن هذه الأخيرة انفتحت من تحمّل شريعة دول الملونين ، كما ان غواتيمالا افتقرت الى التفوق العددي الذي كان من شأنه ان يعيد اليها اولويتها السياسية القديمة . سيطرت من ثم على هذه الدول حروب دائمة كثيرة ، كما سيطر على كل جمهورية اضطراب داخلي مزمن . ولم يحقق الفناء الرق التهذئة الاجتماعية . وهو أحد كبار اصحاب مفارص شجرة البن من انشأ في غواتيمالا الطريق الجيدة الوحيدة التي تستطيع اميركا الوسطى ان تفتخر بها .

لم تستم اميركا الوسطى المهاجرين ، ولكنها اثارت اطماع الدول الاستعمارية والخلافات فيما بينها . واذا كثر الكلام عن قناة تفتح عبر غواتيمالا ، فان الخطوط الحديدية الاولى قد انشئت في باناما وتوانتيبيك ، بينما فتحت القناة في النهاية في البرزخ البانامي .

ما زال اسم المكسيك ، على غرار اسم البيرو ، يعيد الى الذاكرة ارتداء المكسيك المتأخر
اجداد الماضي العظيم .

ولكن الواقع اراد ان تكون البلاد فقيرة . فان سواد السكان - ٦ ملايين حوالي السنة ١٨٠٠ ، و ١٣ مليون ونصف المليون في السنة ١٩٠٠ - خضعوا لمستوى معيشي متدن جداً . إلا ان هنالك نسبة من الخلاسين ربما سارت نسبة الهنود في اواخر القرن . وهذا هو بالضبط سبب حدة التضاد بين الارستوقراطية البيضاء الاسبانية الاصل وبين الملونين . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان شبه الجزيرة المرفق هذا يمتد في جوار الولايات المتحدة والدول الاستعمارية

الموجودة في الانتيل . فقد سعى مواليد المستعمرات الى اطالة النظام الاسباني بشكل ملكية محافظة تؤمن امتيازاتهم ، كما رغب الاجانب ، فيما بينهم ، في قيام سلطة تضمن استثمار الثروات المنجمية استثماراً هادئاً : فكان هنالك ارتباط مزدوج . وسواء عمت الفوضى أو ساد النظام فان مصير المكسيك يخضعها لأحد هذين الارتباطين . ولم تحصل الحكومة المقيمة في مكسيكو الا بصعوبة كلية دون تجزئة نيابة اسبانيا الجديدة الملكية القديمة : فمن جهة افلنت اميركا الوسطى من يدها ، ومن جهة ثانية ، اضطرت لأن تتخلى للولايات المتحدة عن مليون كيلومتر مربع ونصف المليون ؛ وبمسد انفصال تكساس ، تغلبت بصعوبة على انفصال سونورا وشبهواها في الشمال الغربي الصحراوي ، ويوكاتان وراء احراج هوانتبيك . ومها يكن من الأمر فقد تغلب النظام الاتحادي الذي كرس ضعف السلطة المركزية .

عيناً حاول « ايتوربيد » ، باسم « اوغسطين الاول » ، ان يعكس الاباطرة بمساندة الجيش والاكليروس وكبار الملاكين في الهضبة الوسطى : فعين انقطع عن اغراء الجيش بالمال ، بدأ عهد الحركات الانقلابية والاضطرابات بالاستناد الى دستور جمهوري المحادي . واشتهر « سانتا - آنا » بغرابة اطواره وتقلبه - فتارة اعتمد على الخلاسين وأمر بأبمصاد حتى ٢٠ الف من مواليد المستعمرات ، وأخرى استند الى الاوليفارشية والاكليروس - وعاش من القروض ولقط حيثما سقط ، فسيطر على عهد بلبلة لا يمكن وصفها أدت الى كارثة السنة ١٨٤٨ . ثم عرفت البلاد فترة حكم مركزي لم يكن اوفر حظاً . واخيراً استعجل الغاء الرق فقدان تكساس .

قام الراديكاليون - « الاطهسار » - « باصلاح » على حساب الكنيسة لم يرض الهنود والخلاسين (فهم الرأسماليون من اشترى الممتلكات المصادرة) ، بل تحول الى حرب اهلية وجبر الى التدخل الاجنبي . أجل لقد حقق « جواريز » ، بعد اخفاق امبراطورية مكسيميليان المحافظة ، حكماً علمانياً أفاد منه الخلاسيون والتلميم الشعبي . ولكن الأمية كانت عميقة الجذور ، والفدائية الهندية لم تفلح ، والحكومة لم تتوفق الى فرض هيبتها نهائياً .

حين استلم نائب جواريز ، بورفيريو دياز ، زمام الحكم بدوره ، بدا الظرف مؤاتياً للعلماء ، الراغبين في تطوير المكسيك وجعلها دولة عصرية ، حتى ولو انتهت السلطة الى دكتاتور .

ولكن الكوديلو استخدم هذه الطبقة المثقفة المتأثرة بالفلسفة الوضعية وسحق كل مقاومة ولصوية مما بواسطه قوى أمن حسنة التنظيم ، واشرك في مجهوده الاكليروس ، والملاكين ، والمضاربين الذين اثروا بفضل « الاصلاح » ، وانصرف الى ايجاء الثقة للرأسماليين الاجانب . فانشئت شبكة الخطوط الحديدية ووصلت بخطوط الولايات المتحدة ، وفتحت بعض المصارف ابوابها ، وارتفعت التجارة الخارجية الى خمسة اضعافها خلال ٢٥ سنة ، وتجمعت مدينة مكسيكو واتخذت فيها التدابير الصحية الضرورية ، وجمعت بورجوازية من الخلاسين ثروات طائلة . ولكن هذه النجاحات كانت اعجز من ان تخفي المعجز المالي ، والبؤس والجهل الشاملين ، واستئثار الاجانب بالاراضي والمتاجم .

غويانا والانتيل تحت السيطرة الأوروبية من غرائب الظواهر ، بعيد الاستقلال ، ان بعض الدول الشالية قد حافظت على ممتلكاتها. وتشمل هذه الممتلكات ، بالإضافة الى هوندوراس البريطانية ، غويانا بكليتها ومعظم جزر الانتيل. لا بل حدث في السنة ١٨٩٨ ان اقصيت اسبانيا عن مستعمرتها الاخيرتين ، كوبا وبورتوريكو .

ان جبال غويانا ، المرتفعة وراء ساحل منخفض كثيف الاشجار، والمنطقة بأحراج وسبابس المناطق الحارة ، وغير المؤاتية للاستعمار الاوروبي ، قد مرت بأزمة حادة خطيرة . فقد افتقرت مزارع قصب السكر واشجار البن فيها الى اليد العاملة البديلة حين الغي الرق . بيد ان تحسناً نسبياً طرأ على الوضع حوالي السنة ١٨٩٠ بادخال الجاوانيين الى القطاع الهولندي والهنود الآسيويين الى القطاع البريطاني . اما القطاع الفرنسي فما زال يعاني من الأزمة .

ومرت جزر الهند الغربية كذلك بساعات عصيبة ايضاً .

خرجت بريطانيا العظمى بمكاسب كثيرة من التنازعات الدولية الطويلة . فعلى الرغم من ان الاسبانين ما زالوا يملكون جزيرتين كبيرتين من جزر الانتيل ، وان الهولنديين احتفظوا بكوراساو ، والفرنسيين استعادوا المارتينيك و « غوادلوب » و « ماري - غالنت » ، فانها قد احتلت مركزاً ممتازاً في الوسط بفضل امتلاكها « جامايكا » وسلسلة شبه متصلة من الجزر ، من برمودا وباهاما الى مصاب الاورنيوك ، اي انها راقبت بالنتيجة المناطق المجاورة للمتوسط الاميركي والبرازيل .

ولكن الهزة الاجتماعية التي سببها الغاء الرق قد خلخل هذا العالم الذي كونه الاستعمار الاستعماري . فان الحرب العبدية التي اجتاحت جزيرة هايتي والتي لم تتعاف هذه الأخيرة من بعدها ، قد انتقلت الى جامايكا حيث لم يضمم اعتاق الزوج جروح الاقتصاد . واذا اتاحت ثورة السنة ١٨٤٨ في فرنسا تبني مرسوم « شولسر » ، فان الامبراطورية الثانية حاولت العودة الى اشكال الأعمال الشاقة ، بينما سلمت هولندا بدورها مبدأ الاعتاق . وبعد السنة ١٨٧٠ مثلت الجمهورية الثالثة مستعمراتها بالوطن الأم . اما اسبانيا فقد غضت الطرف بلء رضاها عن النخاسة التي وفرت لنخاسيها مكاسب كبرى ؛ إلا أن الثورة التي اندلعت في كوبا وبورتوريكو ارغمتها على ان تحذو حذو الدول الأخرى . فلم يسلم من ثم نهائياً بالقضية إلا بعد قرن كامل من الماطلات والتأجيلات . ويرد ذلك الى تصادف وز دول جديدة ومنتجة لقصب السكر والقطن والبن والابازير والاشخاب الغربية ، ومنافسة الشمندر لقصب السكر والكيمياء للنيلج . فاصيب الاقتصاد الانتيلي بضربة مزدوجة .

في جزر الانتيل الفرنسية ضحي بالزروعات « الشريفة » . ولكن الادوات اللازمة لانتاج المواد الأساسية كانت بدائية ، والعمل كاد لا يكفي لحاجات السكان الكثيرين المتزايدين تزايداً سريعاً . يضاف الى ذلك تزايد متطلبات صاحب الملك كلما هبط انتاج المغارس . وحين استعاد

السكر هجومه ، استفادت منه الاملاك الكبرى لان التكرير المصري يؤدي بالضرورة الى جمعه في « المعمل المركزي » . ففي السنة ١٩٠٠ احتل قصب السكر نصف الاراضي المزروعة في المارتنيك . وعلى الرغم من المؤسسات التمثيلية ، فقد بقي الفارق كبيرا بين كبار الملاكين وجمهور الزوج الذين يكتفون بالقليل .

في جامايكا استمرت الحرب العنصرية حتى السنة ١٨٩٥ . وكثيرون هم الزوج الذين رجعوا الى قلع الاعشاب واحراقها وذر رمادها على الارض الزراعية والى تربية المواشي البديئة . واستعان البيض بالعمال الشرقيين المستأجرين الذين اثاروا منافستهم اشتباكات مسلحة جديدة ؛ وقد اعتمدوا على الاجور المنخفضة للمضاربة في اسواق السكر والبن ؛ ولكن الجلود كان كبيرا منذ السنة ١٨٨٠ . وتأثرت كذلك تأثراً كبيراً بأزمة السكر جزر ترينيداد والدومينيكا وبارباد ، فاتجهت الاولى نحو زراعة شجرة الكاكاو والثانية نحو زراعة شجرة الليمون والثالثة نحو زراعة ال « مارنتا » .

كانت كثافة السكان مرتفعة في بورتوريكو ، صغرى الجزيرتين الاسبانيتين . ولكن الجزيرتين اهلتا بأكثرية من البيض الذين تعودوا ظروف الحياة المحلية . وبفضل الهجرة الاسبانية كانت نسبة الملونين آخذة بالتدني . وفي كوبا ، توسعت زراعة قصب السكر توسعاً كبيراً في اراضي الغرب الجيدة ، بينما توزعت زراعة شجر البن والتبغ على مناطق مختلفة ، وحرس الرعاة الفرسان قطعان المواشي في « كاماغواي » الرملية . وهكذا ارتفع انتاج السكر من ١٢٠٠٠ طن في السنة ١٧٧٠ الى اكثر من ٧٠٠ الف في السنة ١٨٨٠ . وقد جمعت الثروات الكبرى بفضل المغارس والنخاسة ؛ ولكن فقراء البيض لم يكونوا اوفر حظاً من الزوج وخلاسي الزوج والهناد .

عشية الحرب الانفصالية الاميركية ، بدأت الازمة الكوبية الكبرى . فبينما برز جاذب الولايات المتحدة ، نرى الوطن الاسباني الام ، الذي اهمل تجهيز الجزيرة بالادوات اللازمة ، يتجاهل الامية والحال الصحية السيئة في المستعمرة ، ويفرض على معاملاتها التجارية رسوماً مرتفعة ، ويضع العراقيل في سبيلها . ولا يخلو من المفزى ان زعيم الثورة « دون كارلوس مانويل سبيدس » كان احد كبار اصحاب المغارس الاغنياء ؛ وحين طلب الى الزوج امتشاق السلاح ، اسرعت مدريد الى الغاء الرق .

اتاحت قضية كوبا للولايات المتحدة التدخل مباشرة في الانتيل وتحويل ميزان القوى فيها لمصلحتها .

مهاقيل في ما عانتها الجزر الخاضعة للسيطرة الاوروبية ، فان البلايا التي
جمهرتنا هايقي امتحنت بها هايقي تفوق بلاياها طرا .

ان تاريخ الارض الهايتية انما هو تاريخ فوضى مستمرة واقتصاد متهور .
منذ زوال السيطرة الفرنسية ، لم يترك الجزء الغربي من « سان دومنغ » القديمة ، الذي

استعاد اسم هايتي الاسبقي ، سوى اثنين من رؤسائه ينهيان مدة ولايتها . ولم يتردد احدهما ، « فوستين - نابوليون - روبسيير - سولوك » ، الطاغية المعجب بنفسه ، في الادعاء بالكرامة الامبراطورية . وقد احرق « بور - او - برنس » في السنة ١٨٧٩ والسنة ١٨٨٣ ، ولكن الجيش ضم ٧٠٠٠ ضابط مقابل ٦٥٠٠ جندي . ولم يكن هناك من طريق جيدة ، ومعدل الرسائل التي ينقلها البريد هو رسالة واحدة للشخص الواحد كل ثلاث سنوات . ولكن هل يعرف احد بالضبط عدد مواطني الجمهورية ؟ فقد قدره بعضهم بمليون نسمة في السنة ١٨٠٠ ، بينما لم يقدره سوامم الا بـ ٥٠٠ الف الذي هو عددهم في السنة ١٨٠٠ . كل شيء كان متأخرا ولا سيما زراعة قصب السكر والقطن . الزوج وخلاسيو الهنود والزوج كانوا يتنازعون الاراضي ولا يتفقون الا على منع البيض من امتلاكها . وعلى الرغم من كل ذلك كان السكان مرعى ، يعتقدون بالسحرة والكهان الراقصين ، ويمارسون تضحية الديكة والكباش البيضاء وحتى الاطفال ، ويحبون القراءة والكتابة . وقد يحدث احيانا ان يدفعهم طبعهم الحربي الى مهاجمة الجمهورية المجاورة .

في أواخر القرن الثامن عشر كان الجزء الفرنسي من الجزيرة متفوقا تقوقا بينا من حيث عدد السكان والثروة . ولكن نسبة الخلاسين المرتفعة في القسم الاسباني قد خففت من وطأة الاختلافات العنصرية . اما الجمهورية الدومينيكية التي لم تخل من الاضطرابات ، فقد تميزت بمزيد من الحلم وتوفقت الى رفع عدد سكانها الى اربعة اضعافه ، والى تحسين تربية المواشي ونوعية التبغ . وقد كان من بعض مواليد المستعمرات وبعض خلاسيو الزوج والهنود ، بقيادة احد مربي المواشي الحازمين ، « سانتان » ، ان فكروا بالتخلص من الاضطرابات بالرجوع الى السلطة الاسبانية ؛ ولكن الاتفاق الذي عقد في السنة ١٨٦١ لم يدم طويلا . وخلاصة القول ان التأخر في الاستثمار بقي كبيرا جدا ، ومستوى الحياة متدنيا جدا .

اذا ظهر منذ زوال الامبراطورية الاسبانية والبرتغالية ،
 الشعور الذي ايدته رسالة مونزو بشراكة المصالح بين
 الجمهورية الاميركية الشمالية الكبرى واميركا اللاتينية ، فقد
 قابل براهين التضامن التي قدمتها الاولى موقف حذر غير خفي وافته الثانية . ومرد ذلك الى
 ان سكان واشنطن ونيويورك احتقروا كل ما هو « داغو » ، اي من اصل ايبيري ، بينما سخر
 « داغو » بـ « غرنفو » ، « ليانكي الوقح » . يضاف الى هذا ان اعمال العنف التي كانت المكسيك
 ضحيته في السنة ١٨٤٨ من قبل الولايات المتحدة ، والقحة التي سوت بها هذه الاخيرة مسائل
 البرازيل تسوية مباشرة مع لندن ، كانت كافية لجعلها مريبة في نظر اولئك الذين كانت تتظاهر
 بحمايتهم . وما كان اميركيو الوسط والجنوب ليجملوا انهم وثوراتهم هدف التنازع على النفوذ بين
 الدول الأوروبية والولايات المتحدة . فهم لم يشعروا باليدل الى سياسة اميركية شاملة كذلك التي
 يقول بها مونزو الا اذا بدا لهم الدفاع المشترك ضروريا ضد استعمار ما زالت اخطاره محدقة بهم .

الا ان الشعوب بتضامن ضروري بين الدول الاميركية قد نما عند رجال القانون وعلماء الاجتماع في الجمهوريات التي انهكتها حروب متكررة اعتبرت حروباً بين الاشقاء . وهكذا فقد نشر اندريس بلثو، الشاعر الكبير وجامع القانون الشيلي، « مبادئ الحق الدولي » المشهورة التي استوحت مؤلفات القرن الثامن عشر الكبرى وبشرت ببيانات القرن العشرين . وفي الاجتماعات التي عقدت في ليا، اقترحت صينغ جميلة من اجل التعارن بين الامم التي يجمع بينها دم واحد وثقافة واحدة . ومع ذلك لم يبد غريباً ان تستهوي بعضهم رؤيا التقارب على قدم المساواة من الوطن الام القديم : فان كولومبيا وفنزويلا قد توجهتا الى اسبانيا لتسوية خلاف على الحدود . وكان غيرهم اكثر واقعية ، وربما ارتضوا بالوصاية المقنعة التي عرضتها بريطانيا العظمى الموجودة في كل مكان .

في السنة ١٨٨٩ ، بدأ عهد المؤتمرات الداعية لسياسة اميركية شاملة ، اي عهد « مونروية » تسليج لحاجات دولة استعمارية . فهل كان على اميركا اللاتينية المنقسمة على نفسها والمتأخرة اقتصادياً ، حيث الف الهندي والزنجي والمهاجر الابيض الكادح العناصر الرئيسية للسكان البائسين ، ان تهرب من عروض الولايات المتحدة يا ترى ؟ ولكن هل هي ستمتتع طويلاً ببحرية الاختيار ؟

الفصل الرابع

العالم الإسلامي من آسيا الوسطى الروسية حتى المغرب

لم تفقد الحضارة الإسلامية شيئاً من شخصيتها في وسط القارة
التقدمية . أجل لقد اخضعها الأوروبيون سياسياً شيئاً
فشيئاً . ولكن العقيدة التي ارتكزت إليها قد حافظت على
حيويتها ، ولم تتخل عن شرائعها المباشية وأسئلتها الزيد من المؤمنين .

نطاق الإسلام : وحدة واستمرار
واشعاع

يرافق الإسلام من جهة ، وبصورة خاصة ، المساحة الشاسعة النادرة المساء ، أو حتى
الصحراوية ، التي تمتد من موريتانيا إلى الهندوس السفلي وبورات تركستان : وهي تمثل ، على
وجه التقريب ، فتوحات العرب الذين وجدوا فيها ظروفًا سكنية شبيهة بظروف بلادهم .
ومن جهة ثانية ، تخطى دين النبي في عهد لاحق . بدخل فيه القرن التاسع عشر ... حدود هذه
المناطق باتجاه الجنوب والجنوب الشرقي وانتشر في مناطق المناخ الحار الرطب وحتى الاستوائي ،
سواء في أفريقيا وراء الصحراء ، أو في الصين الجنوبية ، حول المحيط الهندي ، وحتى في
المولوك ،^{١١} .

ما هو عدد هؤلاء المسلمين الذين يؤدون واجب الصلاة يومياً ، جائين أرضاً ، ومتجهين نحو
القبلة ، أي نحو مكة ؟ إن رقم الـ ١٧٥ مليون الذي أعطاه « بلونت » في مسكنايه (مستقل
الإسلام ١٩٨٢) هو دون الواقع في الأرجح (لم يقدر المؤلف الانكليزي حتى قدرها أهمية
عدد المسلمين في الهند والأراضي الروسية . ومنها يمكن في الأمر فأننا نعتبر هذا العدد قليلاً

١١ راجع خريطة الصفحة ٥٢٩ من المجلد الرابع (الطبعة العربية) ، وخريطة الصفحة ١٥٣-١٥٤ من عدد المجلد .

بالنسبة لمساحات على مثل هذا الاتساع . وبلغت الانتباه من جهة ثانية ان سواد المؤمنين يقطنون اشياء الجزر والجزر الآسيوية . ولكن الطقس القرآني يفرض في كلكوتا وبانافيا والقاهرة وفاس وتومبوكتو على السواء اللغة المقدسة نفسها ، والشريعة نفسها ، والاخلاق نفسها ، والمؤسسات نفسها . فان ما امر به الكتاب المنزل من الله يصلح لكل الازمنة التي ستسبق مجيء « المهدي » (المسيح المنتظر) . والوحدة قائمة في الاستمرار نفسه ، والتقى المشترك بالوصايا ، والانتظار المشترك لليوم الذي سيظهر فيه رسول الرب . ولذلك فان الاسلام خليق ابدأ باسمه المشتق من فعل « اسلم » ، اي سلم امره الى الله . يعامل الانسان بمزيد من القوة تبررها مراعاته لحاجات الحياة وحتى لبعض مخالفتها ، وتساوله بالتمتع ان لم يكن بالتجاوز ، باعتبار ان الحرمات ينطوي على مساويء يعتبرها خطيرة . فهو مثلاً ينظم تعدد الزوجات دون تحريمه ، ويبقي على الرق ويحاول في الوقت نفسه التخفيف من وطأته ، ويجرم المراهبة ولكنه لا يمنع التجارة ؛ يحل المرأة في مرتبة دنيا ولكنه يصرفها في إدارة ثروتها الشخصية ويحيطها بشتى مظاهر الاكرام ؛ يوصي بالحج الى مكة دون ان يجعل منه امراً الزامياً ؛ يحصر اللجوء الى الجهاد ، او الحرب المقدسة ، في الدفاع عن الدين الحقيقي وهدى الاوثان . يخلق بين المؤمنين اخوة ومساواة تتنافيان ووجود طائفة مختصة بالكهنة او الاشراف .

الايان يدفع بألوف المؤمنين كل سنة الى الاماكن المقدسة . وقد قدر بعضهم ان زهاء ٥٠ الف هندي و ٢٠ الف ماليزي وعدداً كبيراً من المغاربة والمصريين والترك والبرانيين يذهبون الى مكة يؤدون طقوس العمرة حول الكعبة ؛ وقد يأتون للقيام بهذا الواجب حتى من افريقيا السوداء والصين . ينزل معظمهم الى البر في جدة التي تنقلهم اليها سفن بريطانية . أما طريق البر التي تبتهى في دمشق ، فطويلة وشاقة ؛ لذلك سوف يعلق السلطان عبد الحميد أهمية كبرى على بناء خط حديدي ينتهي الى ضريح محمد ، الى المدينة التي تفصلها عن مكة مسيرة احد عشر يوماً . وسوف يرفع الخط الحديدي الى اكثر من ٢٠٠ الف عدد الحجاج السنويين الذين لن يستخدم الطريق البحرية منهم بعد ذلك سوى اقل من نصفهم . واجتذبت الجماهير كذلك المدن المقدسة في بلاد فارس الشيعية ، ولكن على طرق اقل طولاً ومشفة .

ساعدت هذه الروحات والنفوس على سريان الافكار والاشعة . ولكنها في الوقت الذي احيت فيه بعض التيارات التجارية ، أسهمت في انتشار الوبئة ايضاً . ففي السنة ١٨٥٨ والسنة ١٨٦٨ ، ظهر الهواء الاصف في مكة ، ثم انتقل الى شواطئ افريقيا الشرقية والحبشة ووادي النيل : فادت معاودة الوباء واشتداده الى الفتك بزهاء ٣٠ الف شخص في زنجبار في السنة ١٨٧٠ . وانتقل الطاعون كذلك من الهند والخليج الفارسي ، فانتشر في السنة ١٨٩٩ - ١٩٠٠ من جهة نحو مصر ، ومن جهة اخرى نحو افريقيا الشرقية وسنغافورة ، وحتى ابعد من ذلك في الباسيفيكي .

ما زال المؤذن في المغرب والسودان وتركستان والانسولند وفي كل مكان يوجه الدعوة الى الصلاة (الآذان) من اعلى المئذنة . وفي كل مكان ايضاً ، وعلى الرغم مما ادخلته الفنون الاقليمية من اشكال متنوعة على تصميم الجامع وتزيينه ، آثر الاسلام تجديد القديم على الابتكار . فان بليت العبادة الذي شيده محمد علي في القاهرة لا ينم عن اي فن عصري ، شأنه شأن جامع الحميدية على كل حال ، مها كان من رشاقة هذا الاخير . ولكن القصور الكثيرة التي خلفها بعض الامراء المتفضلين - قصر شيراغان ، لعبد العزيز (١٨٦٢ - ٦٧) ، وقصر يلدز الذي احتفظ به عبد الحميد بدوره لنفسه بعد زمن قصير في اسطنبول ، وقصر القباري والمكس اللذان شيدهما سعيد في الاسكندرية (وقد تهدم ثانيهما بفعل ضرب القنابل في السنة ١٨٨٢) ، او قصر « بهية » في المغرب الذي شيده بين السنة ١٨٩٤ والسنة ١٩٠٠ لوصي على العرش احمد بن موسى - استجابات لمستلزمات المناخ وسمحت في الوقت نفسه للابتكارات التزيينية بأن تطلق لنفسها العنان ؛ وانما لوحظ تأخر في الذوق منذ انتشار الفن الغربي المتبدل في اواخر القرن الثامن عشر .

يبدو شكل المدينة الاسلامية وكأنه ثابت لا يدخل عليه اي تغيير : تحاط بأسوار تفتح فيها ابواب فخيمة ، وتعنى ، بالإضافة الى قصورها او سراياتها ، بعيونها العمومية ، ومدارسها ، وزواياها التي تكرس لخدمتها دخول الاوقاف ، وحماماتها التي يتوجب على كل مسلم صالح ان يختلف اليها ؛ وتوزع هنا وهناك اسواقها المسقوفة التي تقوم على جوانبها الحوانيت ، وخاناتها التي تستخدم كستودعات للبضائع او فنادق ، وتجمع فوضى بيوتها بين الاكواخ الحقيمة ومسكن الاثرياء التي يفرق فيها بين السهلوك (او بيرون في ايران) المعد للاستقبال ، والحرم (او اندرون في ايران) المحفوظ للحياة الخاصة . ولكنها ، وان احاطت نفسها بتيقظ بالاسوار ، تحرص ابدأ على الفصل بين المسلم واليهودي والمسيحي ؛ فكأنها تعزل مجتمعاً يرى الخير في احترام الوضع الراهن ، من اجل حمايته وتثبيتته على حاله .

كالت ردة الفعل لمخالطة المسلمين لغير المؤمنين اتجاهاً نحو -
 التيارات الدينية في الاسلام وسلوك
 مزيد من التشدد او نحو موافقة ممكنة .
 المسلم حيال العبادات الاخرى

حاولت بعض الاتجاهات الاتفاقيات وما يعرف بالروح
 المصرية عن طريق التساهل . واننا نذكر منها البابية . التي انبثقت من المدرسة الفارسية التي كانت تكتفي بتفسير الامور العجيبة المتعلقة بحياة النبي تفسيراً رمزياً . فان « ميرزا علي محمد » الذي اختار لنفسه اسم « الباب » في السنة ١٨٤٢ ، وبدا من ثم وكأنه « المهدي » ، قد طلع بتعليم يقتبس عناصر كثيرة من المزدية وفلسفة انسانية ماسونية الطابع ؛ اوصى بحياة مطابقة للطبيعة وبمزيد من الحرية الفردية وبساواة المرأة للرجل ، فأحرز نجاحاً شعبياً جعل السلطة تعتبره خطراً عليها ، ثم أميت بأمر الشاه في الاربع . ولكن احد تلامذته ، بهاء الله ، صمم على نشر دين جديد يقرب بين البشر ويخدم قضية السلام ، فالتف حوله في اوروبا واميركا اتباع اكثر عدداً من اتباعه بين

obeikandi.com

افريقيا الغربية الى « يونان » انطلاقاً من مركزهم الرئيسي في بغداد . ولا عجب من ثم اذا ما قدمت الطوائف الدينية للاسلام قادة وجيوشاً مختارة للحرب المقدسة . فان الدور الذي لعبه السنوسيون بات من الشهرة بمكان . كان سيدي محمد بن علي بن سنوسي وهراني الاصل ومنتسباً للتقديريين ، فلقت اليه الانظار في مكة بصلافة عقيدته ، ثم اعتزل في السنة ١٨٥٥ في احدى واحات ليبيا وأسس فيها زاوية ما لبثت ان اشعت في كافة ارجاء افريقيا الشمالية الشرقية . فشكا تباعه من عدم اهلية سلطان الاستانة ورفضوا مدعياته بالخلافة وبشروا بمجيء مهدي في رأس السنة الهجرية ١٣٠٠ ، اي في ١٢ كانون الاول من السنة ١٨٨٢ . فسمع النداء ، ورفع حينذاك محمد احمد ، التجار النوبي ، لواء الحرب المقدسة . وكان مقدراً لثورة الدراويش ان تستكده الدولة البريطانية طيلة سنوات عديدة .

وفاقاً للتقليد نعم المسيحيون واليهود الذين عاشوا في البلدان الخاضعة للشريعة الاسلامية ، بمجرد تساهل ديني . ولكن هؤلاء غير المؤمنين قد تركوا وشأنهم في ممارسة عبادتهم ونوع معيشتهم شريطة دفع ضريبي الخراج والجزية ؛ ولما كانوا ذميين ، اي رعايا محميين ، حظر عليهم حمل الاسلحة . وبموجب الظروف المحلية ، اختلفت العلاقات بين التعاون المعترف به (وهذه حال اروام الفنار) وعداه شبه معلن . وقد مارس شيعيو فارس سياسة هدي الى الدين الاسلامي نجم عنها قيام فئات جديدة سرية من اليهود . وفي السنة ١٨٦٢ دعت بريطانيا العظمى مسمى قام به آل روتشيلد لدى سلطان المغرب ، ولكن المرسوم الذي حظر كل مناكدة ما لبث ان ابطل . واثارت اسطورة الاغتياالات الطقسية في سوريا التي تحتلها جيوش محمد علي موجة تعصية صاخبة في السنة ١٨٤٠ ؛ وبفضل تدخل «كريميو» و«مونتفيوري»، نجح اليهود المتهمون قبل ان يعلن قرمان بطلان الاتهام .

ارتضت الكنائس المسيحية بنوع من التسوية ضمنيت بموجبه طاعة مؤمنيتها ؛ ولكنها بحثت في الوقت نفسه عن الايد في الخارج . وبمجة حماية هذه الطائفة او تلك ، تعودت بعض الدول الاوروبية التدخل في شؤون الامبراطورية التركية . وأخفت هذه التظاهرات الدينية بعض الحركات القومية : فساندت القيصرية بعناد مستمر الاكليروس والمؤمنين والحجاج الارثوذكسيين ؛ واعتبرت الحكومات الفرنسية المتعاقبة نفسها ملزمة بدورها بالدفاع عن حقوقها التقليدية في حماية الطوائف الكاثوليكية الشرقية التي انعم بها السلاطين على «الفرنجية» . وغالباً ما عاد سبب المنازعات لادارة بيوت العبادة في الارض المقدسة .

كان اهم نزاع ذلك الذي نشب في السنة ١٨٥٣ بين روسيا من جهة وفرنسا وبريطانيا العظمى من جهة أخرى ونجمت عنه حرب القرم . وفي اعقاب ذلك ، طالبت اوربا في باريس ، في السنة ١٨٥٦ ، بالحصول على ضمانات جماعية للسكان المسيحيين في الامبراطورية التركية : مساواة امام القانون و إلغاء ضريبة الخراج . ويرتدي هذا التاريخ اهمية خاصة لأنه يوافق اول مسمى جماعي بغية فرض الاعتراف بمبادئ وتنفاى والشرائع الاسلامية على دولة اسلامية مستقلة . وانساق الاوروبيون

بعد ذلك في كافة مستعمراتهم او محمياتهم الى اجراء اصلاحات مماثلة . ولكن المسألة ما زالت ممرقة ما اذا كان المسلمون يستطيعون القبول بمثل هذا التغيير دون التنكر لايمانهم . ويحدر الاعتراف هنا بان الاسلام ، حيثما اختلط بجاهير تحركها المصيبة الطائفية ، قابل هذه العصبية بعصبية مماثلة . فقد استمرت طويلا في الهند والصين نزاعات مسلحة في اغلب الاحيان بين المسلمين وغير المسلمين . وما زالت الحال في افريقيا في مرحلة الحرب المقدسة ، والحوادث الوحشية ترافق ابدا الدخول الى المناطق الوثنية .

لا يتصور الاسلام السلطة العامة الا بدلالة الدين . فليس للدولة
مميزات الدولة الاسلامية وارهانها
مركز اقليمي ؛ وهي لا تعترف الا بجماعات طائفية ؛

ولا وجود لها على كل حال الا بفضل الفتح الذي ادى الى سيطرة المؤمنين . ليس المشرف على ادارتها سوى خليفة رسول الله او نائبه ؛ انه امير المؤمنين وامام ، ولكنه ليس له من منصبه حتى الحق في تفسير الشريعة لانها تأمر باسمه . ولما كانت الخلافة ، من جهة ثانية ، نتيجة اختيار لا نتيجة حق ، فقد تعذر الاتفاق على النسب الشرعي ابتداء من محمد . وهذا يفسر التجزؤ السياسي العضال في العالم الاسلامي .

وانما يجب الانسى كذلك ، اذا كانت وثبة الفتح فعل شعب من الرعاة ، ان القرشي المكي ينتسب الى ارسوقراطية من التجار تحققر الزراعة . ان عمل الأرض جدير بالرعية التي عليها قبل سواها ان تدفع الضرائب . ولكن نصيباً كبيراً من الارض يجمد بسبب الممتلكات الموقوفة من اجل تعهد دور ارباء الغراء والمدارس ؛ ويحدث ان القاضي ، ابن المدينة ، الذي يفصل في العقود ، يسهل مصالح ابناء المدينة ، بحيث يصبح الحقل ملكاً للرايين . ويحدث اما ان تعود اراضي الارياف للشعاع ، او القبيلة ، واما ان تعود للملاك كبير من اعيان المدينة ، هو الآغا الذي يخشاه الفلاح بوصفه مزارعاً ومازماً بتقديم اتاوات عينية كثيرة . اما القبيلة فتحتفظ بقائدها وشيخها بسبب اختلاط الحق الخاص بالحق العام . وما الدولة في الغالب سوى هذه القبيلة التي لا حساب في داخلها الا لأواصر القرى والعداوات الشخصية . وحتى حين تظم في صفوفها البدو الرحل والتجار ، لا تنجح الا بصعوبة في معالجة تقلقل يكاد يكون طبيعياً ؛ وتأرجح بين الاستبداد والقرابي ، وكلاهما تحكيمان . وجملة القول ان الاسلام الذي فتسح مناطق الساسب ومناطق الزراعات الحارة الرطبة ، لم يظهر الا على مجتمعات كانت مؤسساتها الاجتماعية اكثر بداءة من مؤسساته .

لا ريب في ان ديانة محمد تستجيب لفكرة شاملة : فان دار الاسلام تتسع للعالم برمته . وهكذا تتحد فيها شعوب مختلفة جداً . ولكن الفيرة المذهبية ليست هي القومية . فحتى القومية العربية والاسلام شيان مختلفان . كما ان اللغة العربية ، التي هي اللغة القرآنية والكلاسيكية ، لا تحل محل اللهجات الاقليمية . وكثيراً ما يجد الناس اختلافاً بين الفقه والعرف

العالمي . ونادراً ما لا تضم الدولة الاسلامية ، بالاضافة الى عناصر مسيحية ويهودية قد يكون عددها كبيراً ، فئات اخرى مختلفة عنصرياً . وهذا ايضاً من مظاهر الضعف .

امام الاستعمار الاوربي ، كان الاسلام ، المتخاف تقنياً واقتصادياً ، في وضع سيء اذ ان التضامن الديني لا يوفر وحده فعالية كافية . اجل ، حين شنت انكلترا الحرب على فارس في السنة ١٨٥٦ ، في اعقاب مساندتها لتركيا ، انتشر الاضطراب بين مسلمي الهند واسهم في اثاره الجنود الهنود في الحاميات البريطانية ؛ ولكن ذلك يشكل واقعة استثنائية . فالشاه قد فاض القيصر بينما كان الروس في نزاع مسلح ضد الاتراك في السنة ١٨٢٨ - ٢٩ ؛ واستفادت لندن وبطرسبورغ من سوء العلاقات بين الفرس والافغان ، كما ان مخاصمات السلطان محمد علي سمات تدخل الدول .

وبانتظار بروز قوميات خاصة في الاسلام ، دقت ساعة اذلاله واستعباده .

سارت الامبراطورية التركية في طريق التأخر منذ اواخر القرن السابع عشر ، ولكنها ما زالت في القرن التاسع عشر اكبر الدول الاسلامية مساحة واقواها نفوذاً . واذا ما ضمنا الى ممتلكات سلطان الاستانة الفعلية الاقاليم التابعة لسلمته ، فان نطاق ادارته ، البالغ ٦ ملايين كيلومتر مربع ، يشمل ، بين شبه جزيرة البلقان والمحيط الهندي ، وبين القفقاس وطرابلس الغرب ، بالاضافة الى شطر من اوربا الجنوبية الشرقية ، افريقيا الشمالية الشرقية وكافة انحاء آسيا الامامية المعروفة بالشرق الادنى . وعلى الرغم من ان سكان هذه الامبراطورية لم يجاوزوا ٤٠ مليون نسمة في السنة ١٨٩٠ (يدخل في عدادهم ٩ ملايين مصري) فانها ما زالت تلب دوراً رئيسياً في تاريخ العلاقات الدولية ، لانه كانت تحتل مواقع هامة من الدرجة الاولى في قلب القارة القديمة ولا سيما الطرقات المؤدية من المتوسط الى آسيا الجنوبية .

لم يكن الاتراك في عقر دارهم حقاً الا في بلاد الاناضول التي لم يقطنوا سوى بورة هضبتها . اما في المناطق الاخرى فقد عسكروا بين الرعايا من اهل الذمة او بين شعوب اسلامية اخرى . وقد وافقت الهضبة الاناضولية المرتفعة الكبرى ، القاسية المناخ والمفتقرة الى المياه والاشجار ، هؤلاء الرعاة الذين اعتمدوا في معيشتهم التقديرية على اللب (يوغورت) والقشدة (قيمق) والاجبان والجريش والبرغل وشواء لحوم الاغنام . وكانوا ينتقلون من مراعي الشتاء الى مراعي الجبل ويسكنون في اكواخ حقيرة او تحت الحيام المصنوعة من المرعز ويصطلون بنار الزبيل ويتارسون عبادة ساذجة ولا يعترفون الا بسلطة الاعا . وانحصرت الزراعة في بعض الاحواض او في السهول الدائرية الوبيلة جليها ؛ زد على ذلك ان لصووية اكراد الجبال والشراكسة او مجرد عبث التطمعان بالمزروعات كانا يخدمان نشاط الفلاحين . وكانت الاراضي من جهة ثانية من حق كبار الملاكين الذين يؤجرونها للمزارعين او يستثمرونها بواسطة الخدام ، حين لا تكون

obeikandi.com

مسيحيي مقدونيا ، تعدوا تكراراً على الأرمن الذين تميزوا لهم أيضاً بالسجس والتقلب . وكان مقدراً للمنطقة الوعرة التي تشرف على حوض الفرات ان تعرف في المستقبل مذابح بشرية رهبة :

الى الجنوب من طوروس وكرديستان يبدأ العالم العربي الذي يضم طوائف مسيحية ويهودية كثيرة . في هذا الهلال الخصيب الذي يحيط بالصحراء العربية السورية تسيطر الاثرة الاقليمية . فسوريا هي مقدونيا ثانية تضاف فيها الشيع الاسلامية المختلفة الى الطوائف المسيحية المختلفة . في كل مكان نرى البدوي والحضري وسكان الجبال والسهول او الواحات يتعاضون ويتجاهون . كما نرى علويي جبل النصيرية ودرروز جبل الدرروز يعيشون في عزلة ، بينما يتعلق الموارنة بجبل لبنان الوسطي وتظهر دمشق وحلب بمظهر العواصم العربية ، احدهما مثال المدينة الواحة والثانية سوق مرتبطة بالجبال الشمالية ، وكلتاها محطتان عند حدود الصحراء . فقد تكلم « لورتيه » في كتابه « جولة حول العالم » (١٨٨٢) عن « دمشق البهية المبنية مساكنها بالقراميد المجففة تحت اشعة الشمس والمطلية بطلاء اصفر ذهبي ... والمروية بسائتيها باقنية كثيرة ... » . وزرعت الحبوب والكرمة هنا وهناك ، اما في الاحواض المروية كسهل البقاع ، واما في المرتفعات المسقية بعض الشيء كجبل الدرروز . ولكن فقدان الامن والجفاف يتحالفان في ظل هذا الاهمال الذي يلحق الضرر بأحسن المرافء . اما الشرطة والقضاء التركياني فيكتفيان بايجاد التفرقة بين الجماعات المختلفة وبالحد من توسع المذابح الدورية .

كان من الممكن الاستفادة من الجزيرة فيما بين النهرين ومن دلتا منطقة بابل القديمة ؛ ولكن ضفاف الفرات لم تستهوى سوى جماعات حضرية قليلة تسكن اكواخاً قصبية حقيرة . فالملاحة شبه مفقودة بفعل الارياح العاصفة في الخليج الفارسي والاحوال التي تملأ مفره ؛ والحرس شديد في بغداد ، التي لا يتعاطى سكانها تجارة الحبوب والتمور والاصواف فعسب ، بل النخاسة لحساب احرام العالم الاسلامي كله ايضاً ، ويلجأون صيفاً الى السرايب المزودة بمنافذ الهواء ؛ ويدخل في عداد هؤلاء السكان ٥٠ الف يهودي من بقايا السبي برعوا في التجارة ووفرت لهم المدارس بعد السنة ١٨٦٥ جمعية الاتحاد الاسرائيلي . اما البدوي فحاضر في كل مكان او على مسافة قريبة ، يضرب خيمته على ضفة الفرات ويجوب بورات الهلال الخصيب وكأنه السيد المطاع ؛ وهكذا فان قبيلة عنزة ، التي تضم ٣٠ الف فارس ، تقطع طريق الحج بين بلاد ما بين النهرين ونجد .

في اليهودية كما في سوريا ، ما تزال المدن والاديرة محصنة . الغور لا ينتج شيئاً بسبب افتقاره الى الري . ابن الصحراء يتوجه حيث يطيب له وينهمك في السلب والنهب ؛ ويفرض شيخه او اميره الخوة على الفلاحين او اهل المدن اصلحة القبائل القوية . ويخضع لهذه الضريبة كثير من الحجاج ايضاً . وقد وصف لامارتين يهوديه خربة ، ولم ير في اريحا سوى اكواخ من الطين

المجفف ونساء لسن سوى « انائي » . وفي السنة ١٨٧٥ ، اعتبر « فوغويه » انه يجب الكتابة بدموع الانبياء لوصف مثل هذا الجمال في مثل هذا الخراب . وتأثر « غابريال شارم » في اورشليم بعظمة الاماكن وقذارة الشوارع وفقدان الامن فيها وتشابك الحقوق حول تلك اقل حجر والاستغلال الذي استهدف الحجاج الروس المساكين من قبل الاكليروس اليوناني ووفاء الطائفة اليهودية لذكرياتها الخاصة .

لم تكن الجزيرة العربية تركية الا بالاسم فقط . واذا اعترفت الحجاز بسلطة السلطان ، فمرد ذلك الى ان هذا الاخير قد توصل بمض الشيء الى فرض احترام سلامة طريق الحج . والى الجنوب من مكة خضعت عسير ، المهتدية الى الاسلام منذ عهد قريب ، للنفوذ الوهابي . وفي داخل الجزيرة العربية الواسع الاطراف ، قامت في الشمال صحراء النفود التي تجتازها الطريق المؤدية من كربلاء الى حائل ، المسيرة والمهددة ابدا بهجمات رجال قبيلة عنزه ، كما قامت في الجنوب صحراء اخرى تعرف بالربع الخالي ؛ وارتفعت بين هذه وتلك جبال نجد ، معقل الوهابيين : ففي الرياض ، المدينة الحريصة على نقاوة العقيدة ، شيد الامير قصراً شبه الرحالة « بالفرايف » بالسجن الانكليزي في « نيوغايت » . وتدرت لندن البحرين في الخليج الفارسي ، وقد خضع لها ساحل شبه الجزيرة الجنوبي اكثر من خضوعه للاستانة . واختارت الحكومة البريطانية عدن المرفأ الوحيد الصالح للرسو في حضرموت وقربت اليها سلطان مسقط الذي تعاطى حتى السنة ١٩٠٢ نخاسة رابحة . ولم تكن عدن مستودعاً هاماً جداً فحسب ، بل كان من شأنها مراقبة اليمن التي كان ميناؤها ، الحديدية ، وخيماً . واشتهرت اليمن الشيبية بلبنان أو مناطق الجزائر الجبلية بزراعة البن (.وخا) ؛ وسحرت عاصمتها صنعاء ، القائمة على ارتفاع ٢٣٠٠ متر ، بمحاذتها الغناء وجوامعها الثمانية والاربعين . وقد واجهت هذه المنطقة كلها بلاد الحبشة واشتركت في حياة المحيط الهندي الاقتصادية .

« الرجل المريض » :
فشلت التنظيمات والتغلغل الاوروبي على مثل هذا الاختلاف في رقعة واسعة الارحاء . ويكفي هنا التذكير بسير البريد الذي اسند الى قبيلة تترية تقطن في الجياد الاصيلة واقتضى له خمسة وثلاثون يوماً لنقل رسالة من العاصمة الى بغداد . ولما كانت السلطة الدينية التي يمارسها البادشاه محدودة جداً ، فقد عولت الامبراطورية على اقطاعية عسكرية : السلطان هو القائد العام ؛ والتقسيمات الادارية تطابق الاقطاعات ، والسجنق في الاصل راية يحملها البليك . وتسلم الضرائب الى الاقطاعيين انفسهم الذين اقطعوا الاراضي ، الجفتلك ، بعد ابتزازها من المغلوبين على امرهم . فكانت نتيجة هذا الاختلاط بين السلطة والملك فساداً وابتزازاً . تثقل وطأة الضرائب بتعهد الجيش ، والجيش قد فقد الكثير من صفاته العسكرية بسبب عدم انضباطه وافتقاره الى العناد المصري . فهناك اقاليم واسعة قد شقت عصا الطاعة : الجبال التي يحتمي بها العصاة ، وهواطن البدو الرحل . يضاف الى ذلك

ان باشاوات كثيرين قد تصرفوا كما يطيب لهم التصرف . واخيراً ليس اقل التناقضات لفتنا للانتباه المركز الممتاز الذي افادت منه بعض الجماعات : الفنازيون واثرىاء الطائفتين الارمنية واليهودية في العاصمة ؛ والاجانب الذين اتاحت لهم « الامتيازات » مزاولة الاعمال التجارية بشروط مناسبة جداً . اما الحكومة التركية العاجزة فقد لجأت الى الحيل الآنية التي تراوحت بين التسوية المحجلة (ويكفي آنذاك ان تسلم الظواهر) واستخدام القوة . انها « الرجل المريض » في نظر اوروبا التي تراقب احتضاره بكل انتباه .

ان ما عرف آنذاك بالمسألة الشرقية هو من ثم المسألة التي طرحها المحطاط الامبراطورية العثمانية . واذا حسب بعضهم في الخارج حساب فوائد التجزئة بيننا آثر البعض الآخر الإبقاء على الحوزة (التي من شأنها تجنب مضاعفات شتى وتأمين مراقبة الموارد مراقبة شاملة توفر نتائج فضلى) ، فان الاوساط الاسلامية نفسها كانت مقتنعة بأن تقاهة المريض منوطة بتعالجه . ولما كان النظر مصروفاً عن العودة الى الشريعة القرآنية المشددة التي تستتبع رفض كل تدخل اجنبي ، فبقي أن يعرف ما اذا كان القيام باصلاح على غرار الاصلاح في الغرب لن يستعمل الحركات القومية ، وبالتالي المصير المهروب . والحقيقة هي ان تركيا بدت عاجزة عن المحافظة على انظمتها القديمة وعن التطور تطوراً حقيقياً . الا ان الدولة ، رغبة منها في ارجاء موعد التصفية النهائية ، قد تجمر الى اطالة حياة عليلة .

عاصر سليم الثالث الثورة الفرنسية و نابوليون وحكم حكماً استبدادياً على غرار بطرس الاكبر فحاول قبل سواه اعادة تنظيم الجيش ، ولكن الانكشارية الذين حالقهم الحظ اكثر من الـ « سترلتسي » جندلوه ، فنجح عن مقتله عهد اضطرابات استفاد العصب والديوتانيون منبسه لاعلان الثورة بينا اصبح باشا مصر محمد علي مستقلاً عملياً .

واذا أفلح محمود الثاني ، الذي علمه الاختبار ، في التخلص من الانكشارية ، السجين ، فقد وجد نفسه في القضية اليونانية امام تحالف اوروبي وامام مدعيات الباشا . وحين اضطر الى التخلي عن سوريا لصاحب الاقطاعة الخاضع له مبدئياً واللجوء مؤقتاً الى الحماية الروسية ، اخذ على نفسه التقلب على هذين الخطرين : اثار حفيظة المتمسكين بأهداب الدين بإرتداء الزي الاوروي وشرب المسكر والسباح بدخول البضائع الانكليزية معفاة من الرسوم وبيع عدن من بريطانيا العظمى واسناد امر تنظيم جيش جديد الى ضابطين بروسين ، ثم أدركته المنية بينا الامبراطورية وكأنها تحمت رحمة الباشا بعد انهزام جيوشه مرة اخرى .

في عهد عبد الحميد الشاب ، ورغبة منه في كسب الوقت وعطف اوروبا ، لخص رشيد باشا ، المستدعى من سفارة لندن ، في خطي شريف (١٨٣٩) او دستور غولخانه ، برنامج اصلاحات جريئة انطوى على بعض الضمانات القضائية وقمع التجاوزات الجبائية وتأسيس جمعية تمثيلية . ولكن ما ان ضمن له ميثاق المضائق حماية الدول الجماعية حتى آلت « التنظيمات » الى لا شيء تقريباً .

ولكن الباب الذي ساندته الغرب في حرب القرم ، عقد قرضه الاول (بموجب « خطي همايون ، في السنة ١٨٥٦) وسلم في الوقت نفسه بحرية العبادة والمساواة المدنية وحسب الاجانب في تلك العقارات .

نشأت بعد قليل في المؤسسات المدرسية الاوروبية (فتحت كلية غالاطا اللمانية الفرنسية ابوابها في السنة ١٨٦٨) طبقة مثقفة اسست بعض الصحف وتمت قيام اصلاحات جدية وطالبت بمراكز عمل بصورة خاصة . وعلى الرغم من استحداث بعض الوظائف العامة لأجل ارضائها ، فانها قد استكتت من تبهيرات السلطان الطائشة وحملتها مسؤولية افلاس يهدد ، كما حدث في تونس ومصر ، بيجر البلاد الى حياية مالية غربية . وأمام الفوضى المنتشرة في الولايات البلقانية تسبب طلاب الحقوق والفقهاء في اندلاع ثورة في الاستانة واستقالة عبد العزيز . فاضطر خليفته عبد الحميد الى منح الدستور او القانون الاساسي في السنة ١٨٧٦ الذي تأسس بموجبه نظام برلماني . ولكن نفوذ منظمة « تركيا الفتاة » انهار حين خلع السلطان الجديد قناعه بعد ان ضمن حماية مؤتمر برلين . ولن يبقى من برنامج الاصلاحات سوى مشروع قانون مدني وضعته احدى اللجان بعد اعمال استغرقت ١٧ سنة .

ابتداء من السنة ١٨٨٠ ، بدا الرجل المريض وكأنه يستفيد من هدنة . ولكن ادارة الدين العثماني الباهظ عادت لمجلس دولي ؛ واسترهن دخول الجمارك والضرائب وادارة حصر التبغ في سبيل عقد قروض جديدة . ومنعت في الوقت نفسه امتيازات كثيرة لاستثمار الخطوط الحديدية والمرافئ . والحال كان في نية الحركة الاسلامية الشاملة ، على غرار الحركة الروسية المماثلة ، ارضاء قومية كان من شأن غزو رأس المال الاجنبي ان يكدرها . ولكن الامبراطورية العجوز لن تنجو من مصير محتوم : فليس باستطاعتها الاستعانة بأوروبا والتخلص منها في آن واحد .

ان الغرابة هنا ، كما في الجزيرة العربية ، هي ان الصحراء فارس في عهد سلالة الحنجر تتوسط البلاد وان الحياة تتدفق في الاقسام الدائرية . فحوض وسطي يكاد يكون مقفراً ، كان على فارس ان تصون مناطق حدود وعرة المنحدرات يستهوي الانسان ثلاث منها بسبب غزارة الامطار فيها وتستويه الرابعة بسبب موقعها الساحلي . ولكنها على الرغم من ذلك لا تسيطر سيطرة تامة على كتلة الجبال الشرقية الضخمة .

اهل الحضرة اكثر سكانها عدداً ، ولكنهم مجمعوها في مساحات ضيقة : المناطق القزوينية الشبيهة بالمناطق الحارة التي يزرع فيها الارز وقصب السكر وشجرة التوت والتبغ ، وواحات الاقسام الدائرية التي تمر فيها الطرق الداخلية . فلاحين او مدنيين ، كان اهل الحضرة هؤلاء فرساً واتراكاً وعرباً ويهوداً وأرمناً وزنوجاً ايضاً . فأين يجب من ثم تعيين مركز حقيقي ؟ لقد تبدلت الطوائع تبداً سريعاً ، فكانت الاولوية تارة لاصفهان ، المواجهة لبغداد وشيراز ، التي

بلغت العظمة في عهد الصفويين ، واخرى لتبريز الواقعة على طريق البحر الاسود ، وثالثة لمشد ، المدينة المقدسة التي جعل منها ناصر شاه عاصمته على مقربة من البورات الطورانية ، ورابعة لطهران .

يجب في كل مكان ان يحسب حساب للبدو وانصاف البدو الذي يسرحون ويمرحون في تسعة اعشار المساحة العامة متأثرين بالمناخ الذي يدفع بهم من المنطقة الحارة الى المنطقة الباردة : اكراد ، وبلوش ، ولور ، وبختيار ، وتركان ، بحسب المناطق . المدن والقرى محصنة بسبب فقدان الامن الشامل .

كان من ثم لطرق الاتصال الكبرى اهمية قصوى : الطريق الطورسية المؤدية من طرابيزون الى مشد مروراً بتبريز ؛ والطريق الشمالية الجنوبية المؤدية من رشت على بحر قزوين الى شيراز وبوشير على الخليج الفارسي مروراً بطهران وكوم واصفهان ؛ والطريق الكلدانية المؤدية من بغداد الى همدان ؛ وطريق كندا المؤدية من الهند الى مشد في الجهة المقابلة . وتوضح بالتالي صعوبة مسألة السيطرة على هذه الطرق المختلفة الاتجاهات وهذه المنافذ المعقدة ، لا سيما وان المركز لا وجود له في اي مكان من حيث هو بالضرورة في احدى نقاط الاقسام الدائرية . ولذلك اقدم كل قسم بدوره على اعمال حربية تستهدف الفتح والتوسع . ففي اوائل القرن التاسع عشر نرى الحنجر التركان ، الآتين من حوض « اترك » يتركزون في طهران ويمعرون اهتمامهم فارس الشمالية الميالة طبيعياً الى الوقوف في وجه الروس القادمين عبر القفقاس وبحر قزوين ، فارس المسهمة في الدفاع عن الجبهة الاسلامية الشمالية .

عبثاً شن المؤسس « الآغا محمد » وخليفته « فتح علي » حرباً لا هوادة فيها على القيصرية : فقد تكرست الهزيمة في السنة ١٨٢٨ بمعاودة « تركانشاي » ، تم تعرضت فارس لهجوم الافغان ففكرت بحماية انكلترا التي كانت تتطلع منذ ذاك التاريخ الى مرافء الخليج الفارسي . ولكن الشاه اراد الاعاضة من خسائره الاقليمية في خراسان والقفقاس بفتوحات يحققها في الشرق ؛ فتوفيق الى جعل خراسان في مأمن من غارات تركان طوران وصد خان « خيوا » ، ولكنه أخفق في افغانستان .

أدرك نصر الدين ، الذي سيموت قتلاً في السنة ١٨٩٦ ، ضرورة العدول عن المغامرات . يضاف الى ذلك ان التقدم الروسي في تركستان ازال الخطر التركياني ، وان انكلترا من جهتها سوت الخلافات حول الحدود الفارسية الجنوبية الشرقية تسوية استعاد الشاه بموجبها سواحل الخليج الشمالية ، وبقي مبعداً عن الطرق المؤدية الى الهند . وأظهر نصر الدين شغفاً كبيراً بأحوال الغرب . فقصده العواصم الاوروبية حيث اثرت شخصيته الفاتنة في الناس . ولكنه كان مضطراً لأن يحسب للتقاليد والآراء السائدة حسابها .

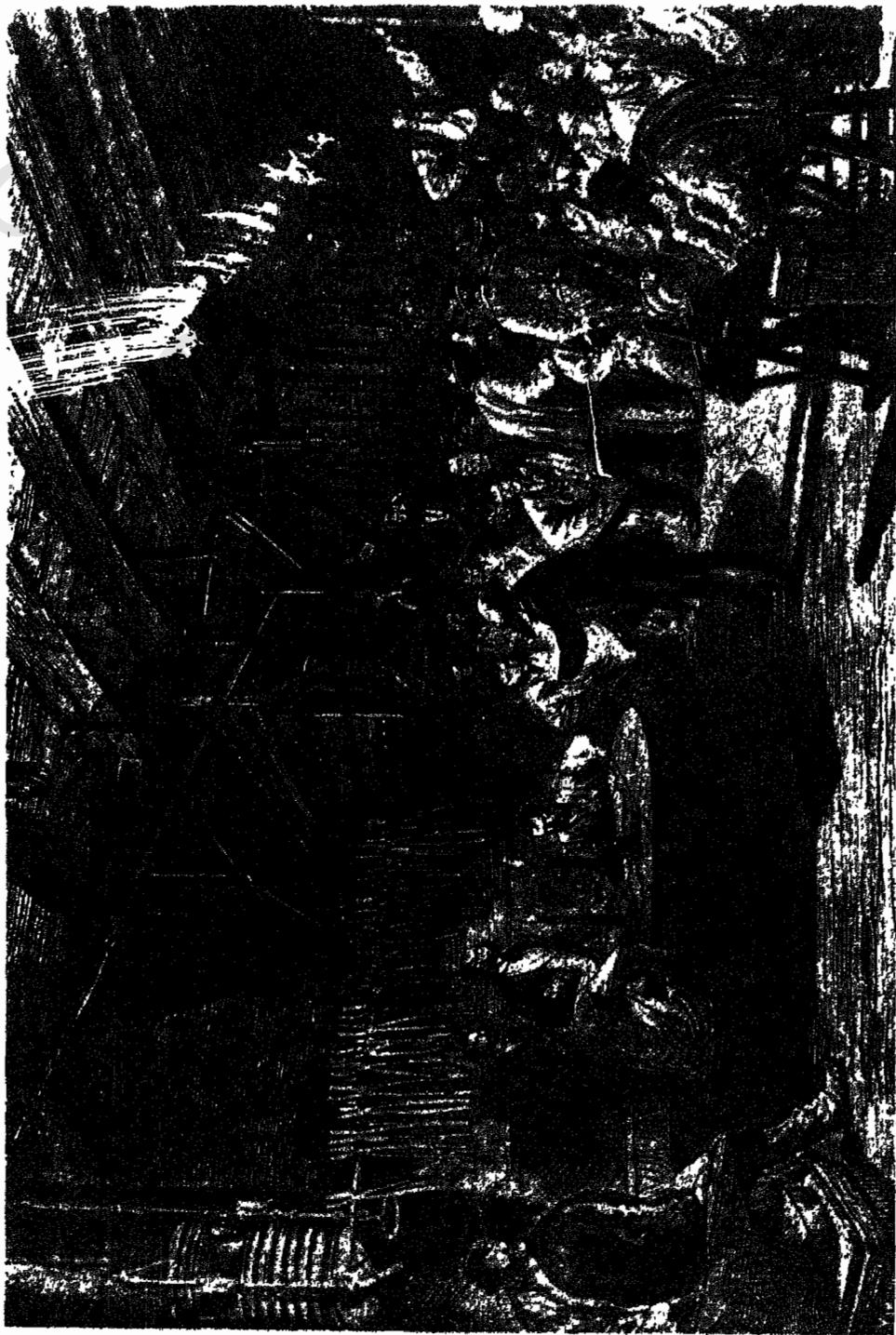
على من يجب الاعتماد لايجاد سلطة قادرة على تخليص فارس من وضعها المتاردي يا ترى ؟



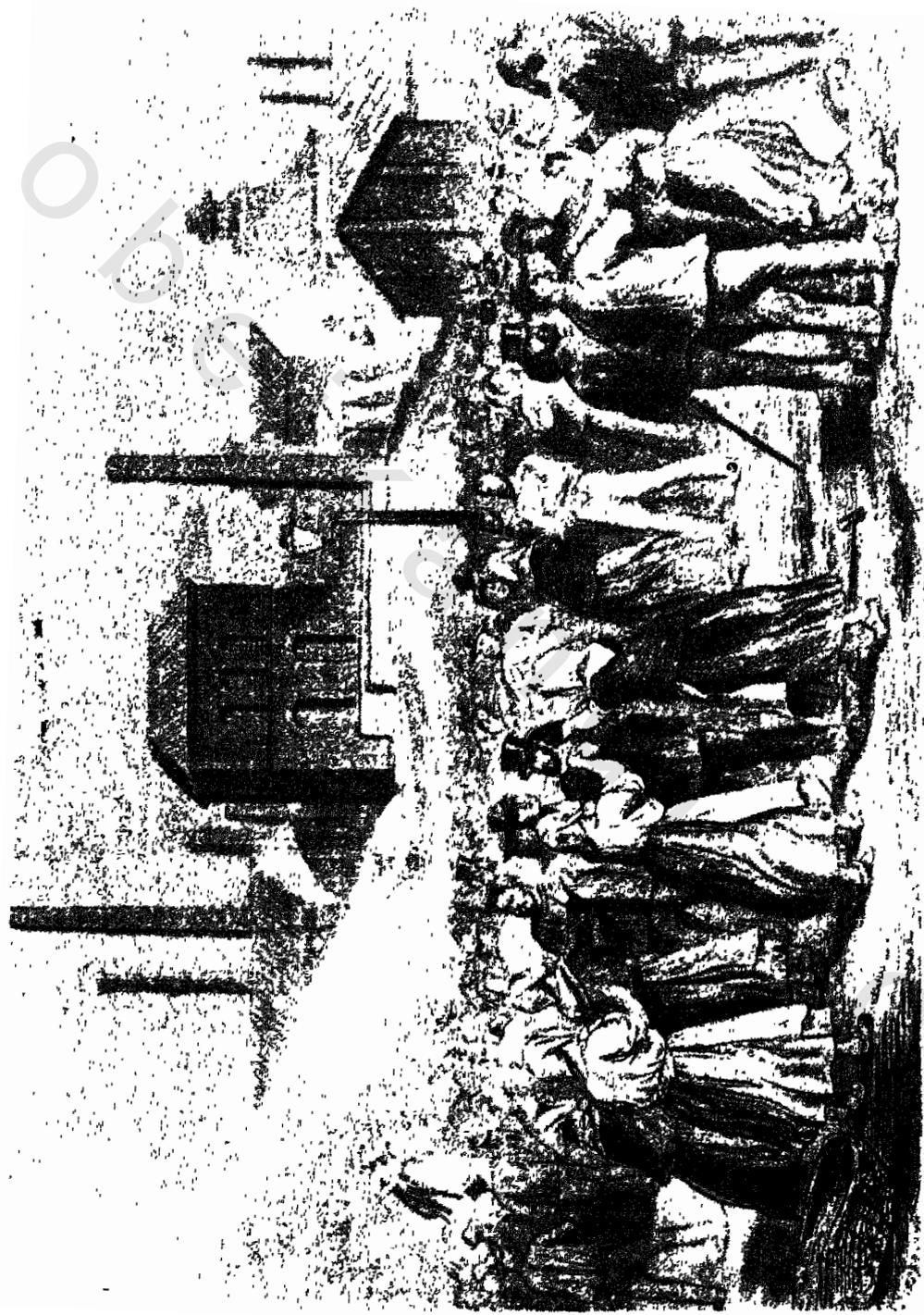




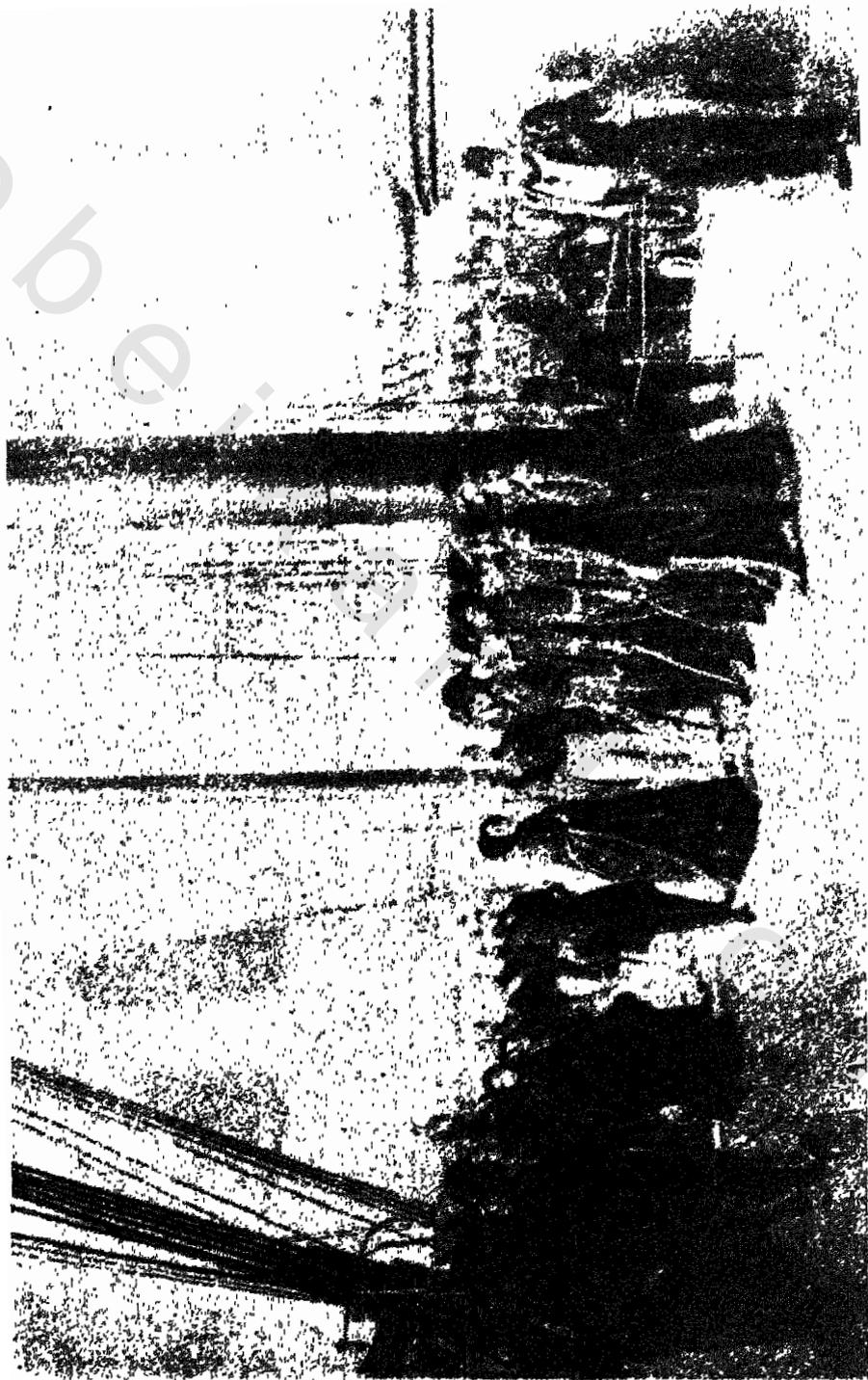




٢١ - اجتماع الترخائي في مشغل باريس ، قبل الانتخابات البلدية .

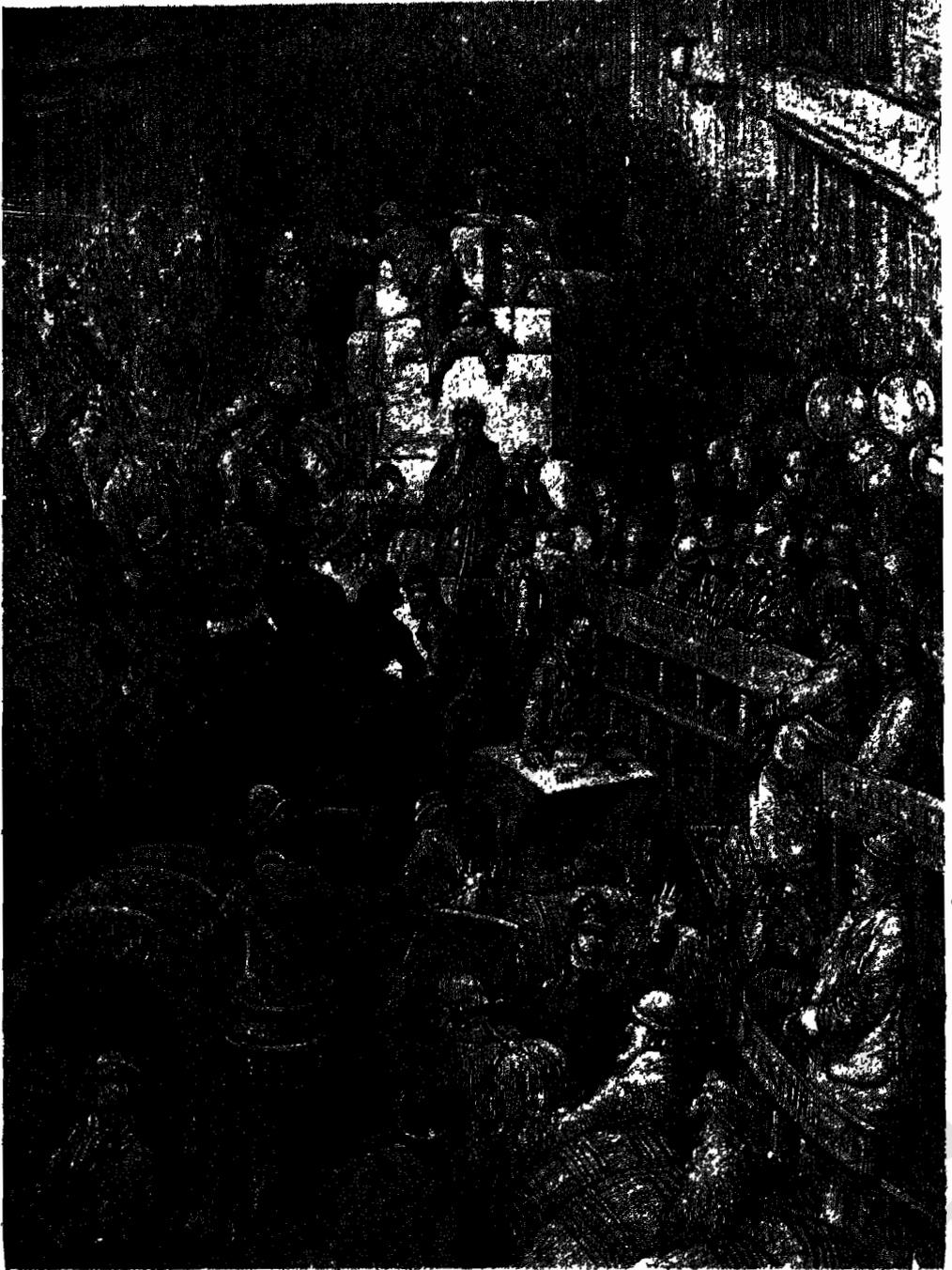


٢٢ - مظاهرة نسائية في ال (كروزو) نيسان ١٨٧٠ .



٢٣ - الملكة فكتوريا تزور الاسطول الفرنسي ' في ١٣ تشرين الاول ١٨٤٤ .

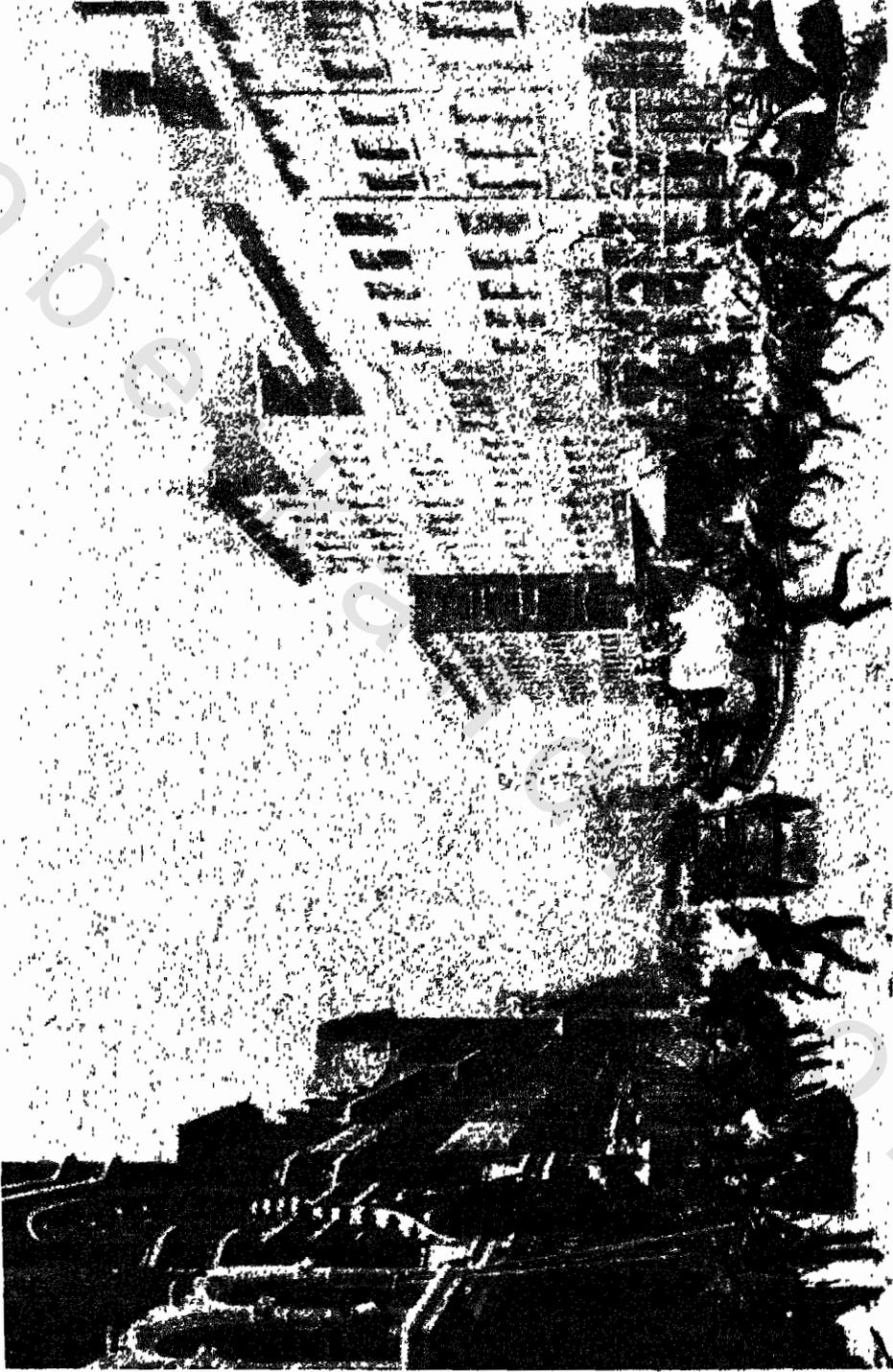




٢٥ - الزحمة في احد شوارع لندن .







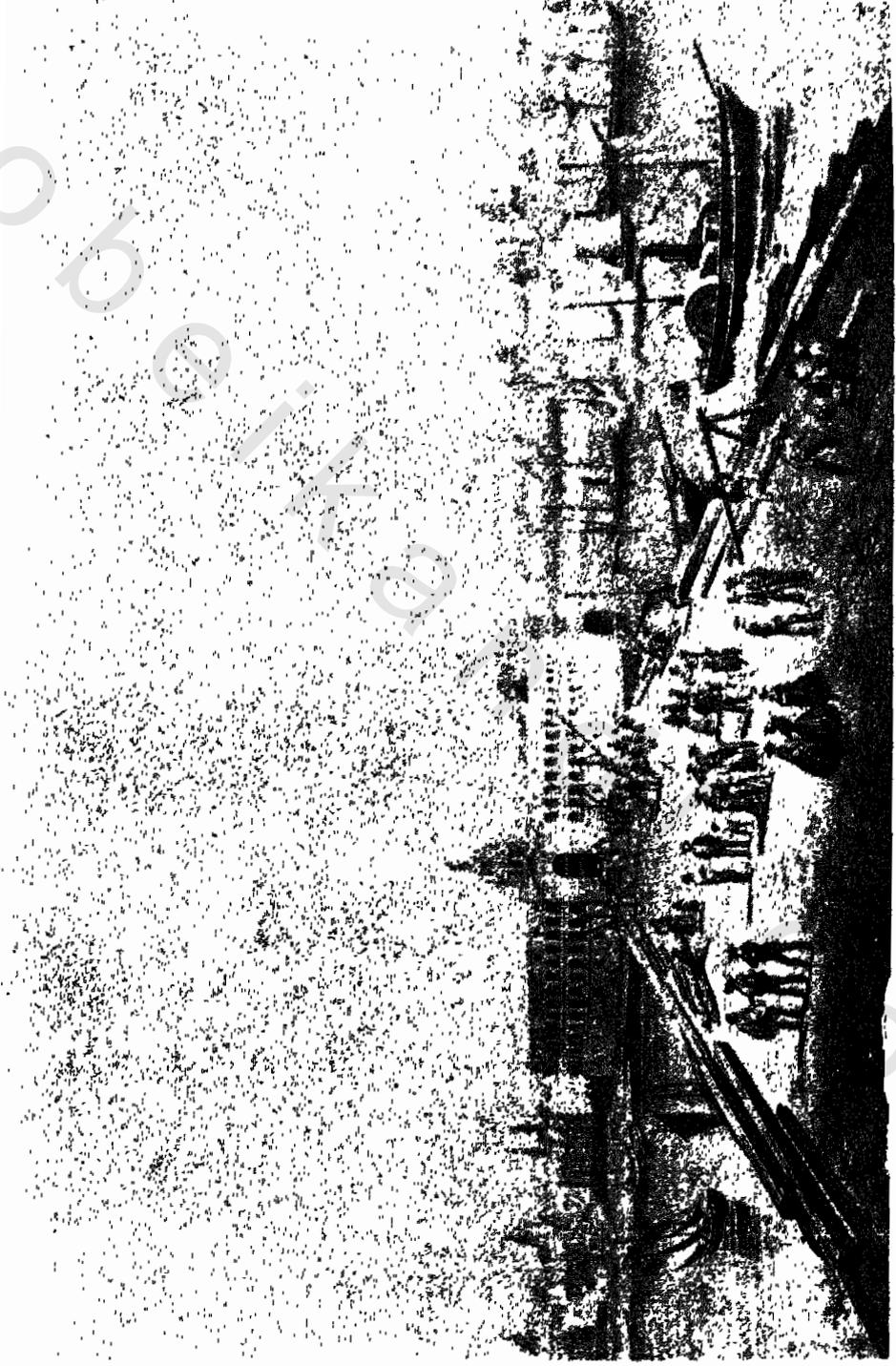
٢٨ - پردواي ، في نيويورك ، في السنة ١٨٥٥ .







٣١ - مكتب القطن في اورليان الجديدة (١٨٧٣) .



٣٢ - مدينة بونوس ايرس في السنة ١٨٦١ : منظر مأخوذ من ساحة الجمرک .

يتمتع الاسلام الشيعي بقوة عظيمة ؛ وينجم نفوذه عن موقعه الغريب في قلب الاكثوية السنية : فانه يرتدي طابعاً شبه قومي على الرغم من أن رقعته تشمل القسم الاكبر من بلاد ما بين النهرين الحاضرة للآستانة . ولكنه أوسع ما يكون عن الوحدة . واذا هو انطوى على نزعة صوفية معينة ، فانه لم يتوصل قط الى ملاشاة الشيع التي تجرد في ايران حقلاً مؤاتياً . زد على ذلك ان الكتمان حالة نفسية تسهل قيام الجمعيات السرية . فهكذا انتشرت الصوفية التي تدفع الى الاختطاف في العزلة وتشيع اكرام الاولياء في اوساط الشعب . وتأييدت في الوقت نفسه تأييداً دائماً النزعة الزردشتية الى رفض كل سلطة غير القبول الاجماعي . وسبق لنادر شاه ان واجه تبني دين من شأنه التوفيق بين كافة الاديان التوحيدية . ثم جاء الباب بدوره كمنقذ ، ووجد نصر الدين نفسه ، عند توليه العرش ، امام حرب دينية واجتماعية حقيقية . وما البابية التي غلبت على أمرها في فارس بعد معارك دامية واضطهادات عنيفة سوى حركة اصلاحية انتهت الى الفشل .

لقد صمد زعماء المجتمع الذين وقفوا في وجه كل تغيير : المستفيدون من الاملاك الموقوفة الواسعة ، والاعيان المنتسبون الى كل الفئات الذين يديرون الحكم في خدمة الشاه ويميشون في البلاد ، ولا سيما الحكام ، خلفاء المزارية الحقيقيون . وقد عاد ثلثا الموارد للجيش والقصر .

تصرف الجيش ، الذي لم تدفع له اجوره بانتظام ، وكأنه في بلاد محنة . وفي بلاط القصر ، اثار الشاه ، خليفة ملك الملوك ، اعجاب الجماهير بعظمته وكرمه الفائق ، ولكنه كان اسير الدسائس التي حيكمت من حوله ، وقامت مهارة الحكم في نظره في التفاوض مع الحكام وزعماء القبائل . وتادراً ما أدرك الأمر هدفه اما لانه لا ينفذ واما لانه لا ينطوي على مزيد من المساواة . وعلى الرغم من ذلك فان مستوى حياة الفرس ، المشهورين بـذوقهم المرفه واستهوائهم الموسيقى والمسرح ومهارتهم في الصناعة اليدوية ، كان متدنياً جداً . ففي الحرف الصغيرة الكثيرة التي حافظت على شهرة الفروش والطنافس والمنسوجات الحريرية والحملية ودباغة الجلود وصناعة تحميرها ، ولكن طبقة التجار جمعت الثروات بالمراباة ، والدالين اشرقوا على كافة الصفقات وجاهير الشعب شكت من الاملاك الكبرى والاقواف . وعادت القرية للملك اولاحدى العائلات الكبرى او لاحدى المؤسسات التقوية ؛ فكان هناك ملاكون سيطروا بهذه الطريقة على ألوف الفلاحين . وقد تاه هؤلاء تحت وطأة الاثاوات فلم ينتجوا الا القليل ، واستخدموا السهاد البشري ورووا الارض بواسطة النواعير ، وحتى بواسطة القرب المملوءة ماء . وما كان ملايين السكان الخمسة او الستة ليؤمنوا قط حاجتهم من الماء كل ، وقد فتكت بعض الجماعات بألوف الضحايا (ويروى ان احداها قضت على نصف مشهد) . وقد امننت الجمال والخيول نقل كل شيء . وجاء في كلام مأثور : « لو كان لدى الاوروبيين جيات شبيهة بيجادنا لما احتاجوا الى الطرقات » . وفي السنة ١٨٦٤ مد بين بغداد وبو صير السلك التلغرافي الذي وصله الاخوة سيمينس في عهد لاحق بخط لندن عن طريق تبريز . ثم منح الشاه رأسمالياً بريطانياً كبيراً هو البارون «جوليوس رويتر» الذي

اشترى حاشية الامبراطور بالمال بهذه المناسبة) امتياز بناء خط حديدي بين بحر قزوين والخليج الفارسي ، وتأسيس عدد من المصارف ، وادارة الجمارك ، وحق استثمار الاحراج والمناجم ، مقابل ٤٠ الف جنيه استرليني ؛ ولكنه ما لبث أن ابطال العقد بعد حين . وحين اقتقر الى المال بعد رحلاته الى اوربا ، سلم غلة التبغ والالتجار به الى شركة « التماونية الامبراطورية الفارسية للتبغ » مقابل ١٥ الف جنيه استرليني وربح الدخل السنوي ؛ ولكن احد المهتمدين النافذين دعا المستهلكين الى الاقلاع عن التدخين ، فاستعاد الشاه الامتياز مقابل دفع نصف مليون جنيه استرليني . ومنذ السنة ١٨٨٩ خضعت مالية البلاد في الواقع لومصرف فارس الامبراطوري ، الذي حصل على امتياز اصدار الاوراق النقدية . فوقعت فارس بدورها تحت سيطرة الرأسمالية الأوروبية .

على نقيض فارس ، تتكون افغانستان من مجموعة جبال وسطية تحيط
الدولة الافغانية بين
البريطانيين والروس
بها البورات . ومنطقة كابول فيها تثير الاعجاب بحدائقها الغناء
وخورها التي يذكر مذاقها بمحمور جزيرة ماديرا ؛ اما خزنها السقي
حملت اسمها سلالة الغزنويين في القرن الحادي عشر فتدين بالشهرة لاقنية الري . ولكن طبيعة
الارض وزعت السكان هنا وهناك وهناك . وقد خضعت افغانستان زمناً طويلاً للسيطرة
المغولية في الشمال والشرق ، وللسلطة الفارسية في الغرب . وحق في القرن التاسع عشر حاول
الشاه السيطرة على هيرات ، وأمير بخارى السيطرة على بوكشان ومنطقة بلخ (بختيار القديمة) ،
بينما شمرت قبائل المنحدر الشرقي بميل الى الدولة الانكليزية التي كانت مسيطرة على منافذ
الوديان المنحدرة نحو الهندوس .

الأفغان سكان ارياف معظمهم رعاة او شبه بدو رحل يؤلفون خمسة اتحادات قبلية مؤلفة
بدورها من قبائل صغيرة (يبلغ عددها ٥٠) يدير شؤونها خانات منتخبون وجمعيات
تضم زعماء العائلات . ويقدم هؤلاء المحاربون الأشداء ، القانمون المتحذرون ، الشرف الافغاني
(نالجي بوختانا) على كل شيء ، ويطبِقون فيما بينهم سنة « البدل » او الثأر . وقوم في الشمال
والشمال الشرقي منطقة ياغستان المستقلة التي تقدم محاربيها البواسل لامير كابول ولاعدائه دونغا
تميز . وقد عجز الافغان السنيون أبداً عن ان يطردوا من جبالهم الـ ٦٠٠ الف شيعي المغولي
الاصل الذين يهاجرون راضين الى المدن حيث يقومون بأشغال شاقة . وهناك مليون « تاجيك »
من أهل الحضرة في هذه المناطق الشمالية وفي جوار هيرات : ولكن هؤلاء الذين تعاطوا
الصناعة اليدوية والتجارة ما كانوا ليرضوا بالسيطرة القبلية .

ما هو في هذه الظروف شأن الامير المتربع على عرش كابول بقوة السلاح ؟ انه في حرب
دائمة مع القبائل التي لا تعترف بسلطته ولا يستطيع هو اخضاعها .

بيد أن وجود بلاد افغانية متمتعة بالسيادة نظرياً كان نتيجة المخاصمة الانكليزية الروسية

في آسيا الوسطى . واذا منيت انكلترا في السنة ١٨٤٢ بفشل ذريع في ثفرة « كرد كابل » ،
 الرهيبة ، واذا لم ينقذ « روبرتس » حامية كندهار في السنة ١٨٨٠ الابسيرة غاية في الجراءة ،
 فان الدبلوماسية والرشوة قد نجحتا بالنتيجة في اسناد الحكم في كابل الى الامير عبد الرحمن
 الذي ترك فيه التفوق البريطاني أثراً كبيراً . ولم تدفع بريطانيا العظمى بين مليونين وثلاثة ملايين
 لمحميها فحسب ، بل ربطت بين البلاد ووادي الهندوس بطرق جيدة وبخطين حديديين يتجهان
 نحو مري خيبر وخوجا . وأسهمت كذلك في صد الفرس ووضعت بلوتشستان تحت حمايتها
 فعزيزت بذلك هذه المواقع الامامية للهند .

إلا أنه استحال على امير كابل ان يستلم كلياً للانكليز . فمها كان من نفعية مساعدة
 بطرسبورغ ، فانها انطوت مع ذلك على فائدة كبيرة للأفغاني هي ضمان تحالف بديل عند الحاجة ،
 لا سيما وان الضغط الروسي البعيد لم يبرز الا في عهد متأخر . ولكن الاستيلاء على مرو في
 السنة ١٨٨٤ قد فتح طريق هيرات أمام القائد كوماروف وكان مقدمة لاحتلال « بنجه » . ثم
 ما اشد الروس ان بلغوا بامير .

وكان لأفغانستان فائدتها احياناً : ففي السنة ١٨٩٥ حافظت على منطقة فاخان الضيقة التي
 تفصل بين الامبراطوريتين الاوروبيتين على ارتفاع اكثر من ٣ آلاف متر . ولكنها في الحقيقة
 دارت في فلك الهند .

خضوع الاسلام للروس
 في الحوض الجاف الواسع الاطراف الذي دخله الاسلام الى
 الشمال من ايران وضعت الحرب المقدسة الروسية تحت السيطرة
 القيصرية زهاء عشرة ملايين مسلم .

اقامت طلائع العالم الاسلامي هذه بين روسيا الوسطى والسهل السيبيري . فقد ألفت منذ
 ذلك الوقت على جانبي الفولغا مجموعة هامة تقدر بمليونين نسمة تنتسب الى الفرع التركي
 المغولي ولا يدخل في عدادها تتر القرم . فنمت « نجني - نوفورود » عند حدود السلافيين
 الارثوذكس ، ولكن خازان ، عاصمة خانية الفرقة الذهبية بالامس ، قد شيدت المآذن منذئذ
 بين الكنائس . وبينما اعتنق الـ « شوفاش » المنحدرون من اصل فنلندي ، الدين المسيحي ، فقد
 مثل الاسلام ، ابعاد الى الشرق في جبال الاورال ، الـ « بشكير » الذين اقلقوا القياصرة زمننا
 طويلاً سجنهم ومساندتهم لـ « بوغاتشيف » : أخذت البلاد ترتدي طابعا روسيا في أواخر
 القرن ، ولكن البدو الرحل الذين استخدمت جهالم في الحملات على فارس وتركيا قد بقوا
 اوفياء للخيمة ولحليب الفرس المختمر .

وراء هذه المواقع الامامية ، انبسطت بورات صحراوية تحيط ببحري قسزوين وارال
 وتكاد تكون خالية من السكان . ولكن حينما كانت الحياة البدوية ممكنة عاش بعض الرعاة من
 امثال الـ « كلوك » البوذيين عند الفولغا الاسفل ، ولا سيما القازاق الكرغيز ابعاد الى الشرق .

وكان هؤلاء اتراكاً مغوليي الطابع متمسكين ابدأ باعتقاداتهم الشامانية وعبادة الاموات ، فمارسوا اسلاماً سنياً متساهلاً . وقد شيد الروس فيما بينهم خطاً من المراكز المحصنة وضعوا فيها حاميات من قوزاق اورنبورغ والدون ، رغبة منهم في ضمان مؤازرتهم . أما القبائل الثلاث التي امتلكت ملايين الجياد والاعنام والابقار فقد تألفت من قبائل صفري ، او «الول» ، تضم كل منها بين ٣٠ و ٢٠٠ خيمة . وكان قوام غذائها الـ «عيرن» او الحليب الحار ، والشاي ، واللحوم .

في القفقاس تغلب الروس بصعوبة على مقاومة اللسفين والشراكسة الذين هاجر قسم كبير منهم الى تركيا . وقد خططت الطريق العسكرية الى منطقة ما وراء القفقاس عبر ممر « داريال » بسين الـ « اوسيت » الايراني الاصل المتميزين بزيد من الاستعداد للخضوع . اما شيميو اذربيجان الذين يحبون بورات « شروان » ويتطلعون الى ابناء يحدتهم في تبريز ، فلم يعف الفاتحون السلافيون عن استخدامهم في سياستهم الفارسية . ولكن الفاتحين هؤلاء الذين نشروا الامن والسلام في الفسيفساء القفقاسية ، وباشروا استنار ثرواتها ، قد اضطروا الى الاكتفاء بترويس المسؤولين الاداريين .

الى الشرق من بحر قزوين ، سيطرت على الوديان المنحدرة من القمم المرتفعة رطوبة كافية لان تجعل من كل منها مصراً اخرى . وغذت مجاري المياه واحات واسعة الاطراف . وكانت مواطن الحرير والقطن هذه ، حيث ازدهرت في العصور القديمة سوغديانا وبكتريانا ومرجيانا ، مهياة ابدأ لقيام الامبراطوريات . فان سمرقند تعزز بضريح تيمورلنك ؛ كما ان باير ، فاتح الهند ، هو ابن فرغانا . وقد تمزقت حيوية الاسلام السني في بقاع عرفت بالامس حضارة يونانية - بوذية تتصف بالرفقة . واذ استطاع الروس الاستقرار في « سمرتشه » ، او بلاد الانهار السبعة ، عند مدخل « زونغاريا » ، فانهم قد اصطدموا من جهة ثانية بدول اسلامية حسنة التنظيم في احواض « سيرداريا » و « اموداريا » و « مورغب » .

ان الاستيلاء على تركستان ، المدينة المقدسة ، وعلى طشقند ، قد قاد جيوش القيصر الى ابواب فرغانا . وقد خضعت هذه الاخيرة للصين حتى السنة ١٨٣٥ ، ثم اسست خانبة كوكند التي ضمت اهل حضر واهل وير ؛ فأقام فيها التاجيك والسارت علاقات طيبة بسمرقند وقشغر على الطريق التي تصل بين تركستان الشرقية وتركستان الطورانية . وبعد ان حارب الروس اصبح خان الاوزبك التركي المغولي حليفهم رغبة منه في التفرغ لصد اعتداءات بخارى ، ولكن فرغانا قد ضمت الى روسيا في السنة ١٨٧٦ .

اما بخارى ، اكبر الدول الاسلامية ، فارتضت قبل ذلك بالخضوع للسيادة الروسية . ولكن خانها نصرالله سار قدماً في تحقيق برنامج ينطوي على الكثير من الطموح . فقد جهز هذا الزعيم الاوزبكي الاخر جيوشاً دائمة وهاجم جاره زعيم خيوا ؛ ثم استولى على سمرقند وخوجند ، وطرده امير كوكند من فرغانا لفترة قصيرة ؛ لابل انه فكر يوماً بغزو افغانستان ، ولكن

دون اتفاق على ذلك مع الانكليز ؛ وقد اشتهر بالاضافة الى ذلك باضطهاده المسيحيين ووحشيته في قمع الحركات الثورية . ولكن ابنه لم يستطع الصمود في وجه الهجوم الروسي ، وبعد سقوط سمرقند ، مدينة الجوامع الـ ١٦٥ والمدارس الدائمة الشهرة ، ارتضى بأن يكون محمي القيصر ، وبأن يلقي الرق ويستقبل في جيشه مدربين روسيين . فقابل ذلك ، ومقابل التخلي عن منطقة ظرفشان الفنية تمكنت بخارى ، الواحة المشهورة بجوامعها الـ ٣٦٠ وفنادقها الـ ٣٨ ، واسواقها الـ ٢٤ ، والتميزة بأكثرية من التاجيك ، من الإبقاء على مؤسساتها الاقطاعية .

هوجت خيوا من الورا فسقطت بدورها . وقد تنازع الاوزبك والتركمات هذه الواحة وهذه السوق النحاسية الكبرى ؛ وهم السارت والتاجيك ، هنا ايضا ، من القوا الاكثرية ودفخوا الجزية للملك الذي ابقاه الروس كذلك في مركزه بالشروط نفسها .

وكانت مرو مركز خانبة تركانية ضمت ٢٤ قبيلة صفرى ، وانشئت فيها ٢٤ قناة للري . وقد صمدت فيها المقاومة التركانية بعناد ولم تنهر الا في السنة ١٨٨٤ . فبات ممكنا حينذاك أن يحور الخط الحديدي المؤدي من « كراسنودسك » على شاطئ بحر قزوين الى فرغانة النائية دون أن يمر بصحراء تركستان الوسطى . ولن ينشأ خط حديدي مباشر بين موسكو وطشقند الا في السنة ١٩٠٥ .

نشر السلم الروسي الذي لم يتعرض تعرضاً يذكر للعادات المحلية ، مقتصرأ على مراقبة الغاء الرق ومنع بعض تجاوزات القانون الجزائري وتوطيد حرية الاديان والتجارة ، وتاركا للسنت الاسلامية طابعها وشوارعها الضيقة القذرة وحياتها . وقد آثر الفاتح ان يشيد لموظفيه وحمائمه ومهاجريه المستعمرين ابنية خاصة به ، فأسس طشقند جديدة توازي باريس مساحة وجهزها بدار كتب ومرصد ، ومرو جديدة ، وحيأ اوروبيا جديداً في سمرقند . واشترى الحرير ، وأدخل نوعاً اميركياً من القطن ، وانشأ مصانع للحلج وباع مصنوعات في بلاده . ولكنه لم يدخل اي تحسين على الري وتربية المواشي . وبعد أن تغلب على زعماء الاوزبك والتركان ، لم يكثر قط لمكافحة الرياح البوارح والجراد والملايا .

ان تركستان ، الفنية بذكرياتها وامكاناتها ، مدينة لهيء الروس بأمنها ووحدتها الجزئية . ولكن مستوى الحياة فيها لم يرقع ارتفاعاً يذكر .

في القرن التاسع عشر ، لفتت مصر انتباه اوروبا بعد حملة نابليون . فنتبارى رجال السياسة وعلماء الاقتصاد واهل القلم في تبيان موقع البلاد الهام وغنى كنوزها الاثرية التي نبشتها اعمال التنقيب ، وثروة

مصر : ارض خصبة
وفلاح بائس

تربتها الذائعة الصيت .

اذا استثنينا الطوائف المسيحية - الاقباط وسوام - واليهودية ، رأينا ان الشعب المصري يتألف ، بنسبة تسعة اعشار ، من الفلاحين المسلمين الذين تتوقف معيشتهم على فيضان النيل .

وهناك اقل من ٢٠ الف كيلومتر مربع من الاراضي الزراعية (اي اقل من مساحة بلجيكا) من اصل ٦٠٠ الف ، ويمكن تقدير عدد السكان بمليوني نسمة في اوائل القرن التاسع عشر : فتكون الكثافة ٦٠ في كل كيلومتر مربع من المساحة الضيقة الصالحة للحرارة المتكونة من الدلتا والوادي والفيوم . وليست مصر من ثم سوى اكبر واحة في العالم . فالصعود تتوالى وتستفيد من عمل المصري الشاق : والمصري يتحملها ولا يحب سوى ارضه . ولكن الارض ليست لمن يزرعها . فالاملاك الموقوفة تمثل اكثر من ربع المساحة المستثمرة ولا تنتج كثيراً . يضاف الى ذلك ان الملك ، بوصفه صاحب الارض ، يوزع الانصبه الاخرى لقاء جزية معينة ؛ وفي قطب الارض هذه المعروفة بالحراج يكون الفلاحون مسؤولين بالتكافل عن تأمين الاتوات المفروضة ومازمن يدفع رسوم اضافية للري .

بعد مصادرة املاك المالك ، أمر محمد علي ببيع الاراضي مسجاً جديداً . فسجل كل قطعة ، مدى الحياة ، باسم زعيم العائلة ، ولكنه احتفظ لنفسه باملاك خاصة واسعة ووزع الاملاك الكبرى على ملزمي جباية الضرائب و « شيوخ البلد » . وقد استهدف من وراء ذلك ان يضمن بعض المؤازرين بضية توسيع زراعة النباتات الصناعية الوفيرة الارباح . فأدى ذلك الى رأسمالية رسمية مارسها اقطاعي كبير .

لم يدخل بذلك اي تبديل على معيشة الفلاح . ولكن سميد منحه حق التصرف بأرضه واسماعيل حق التملك الكامل لكل من يدفع مسبقاً الضرائب المتوجبة خلال عشر سنوات : واحتفظت الدولة لنفسها بحق الاستملاك دونما تمويض بحجة المنفعة العامة ، او بحق الاسترداد في حال التخلف عن تسديد الضريبة . وبالنظر الى تزايد عدد السكان بسرعة (ارتفع الى ثلاثة اضعافه خلال نصف قرن) ، تفاقم خطر تجزئة الاراضي ، وحين اقر مبدأ انتقال الملك بالوراثة بعيد السيطرة الفرنسية الانكليزية المشتركة على مصر ، حدث من جهة ان ٧٠٠ الف عائلة لم تملك اكثر من خمسة فدادين (يساوي الفدان ٥) آراً تقريباً) ، ومن جهة ثانية ان ١٦ الف شخص ملكوا اكثر من ٥٠ اي ما يوازي الضعف (لأن بعض الاملاك بلغت بضعة آلاف الفدادين ولا سيما مناطقي الدلتا المكتسبة حديثاً) . ولكن المالك الاكبر كان الدولة التي احتفظت لنفسها بزهاء ٩٠٠ الف فدان . وأتاحت المراهة لجامعي الاراضي الحراجية توسيع ثرواتهم العقارية توسيعاً مستمراً . وحين اضطر خلفاء محمد علي للاستدانة ، انتقلت املاك الدولة عملياً الى رقابة الرأسماليين الاجانب . هكذا فان روتشلد قد ارتمن ٤٢٦ الف فدان في السنة ١٨٧٨ مقابل قرض بلغت قيمته ٨ ملايين جنيه استرليني ونصف المليون .

الفلاح هو بالتحديد من يشقى . يعد الارض بواسطة مسعاة بسيطة او محراث بدون عجلة مقلب ، ويهدمها بعارضة خشبية بسيطة ايضاً هي « الزحافة » . اما معاونوه فهم الجاموس او

الحار . ولكن العمل الاكبر هو عمل الماء ، اذ لا غلة بدون ماء . فيتوجب على الفلاح ان يستعد لوقت حدوث الفيضان . اجل لقد تولى محمد علي امر استبدال طريقة احواض الاغتار القديمة بأقنية الري الحديثة . ولكن الفلاح ملازم ، حتى في هذه الحالة ، يعمل جماعي شاق لا يعرف الكلل . فعليه ان يراقب الاحواض والاقنية ويصلحها احيانا ، ويتعمد السدود ، ويزيل كل ما يعيق جريان الماء ، ويرفع الماء حين يكون منخفضاً ، اما بواسطة زنبيل واما بواسطة الشادوف البدائي ، وكلها اعمال منهكة . فيجمع من ثم بين هؤلاء المساكين تضامن وثيق لا سيما وان اعمال التسخير من اجل المصلحة العامة ضرورة حيوية بالنسبة لهم . يزرع القمح والفول بعد الفيضان والذرة الصفراء والخضار والنباتات الصناعية والارز في الخريف . ولا يفادر الفلاح أرضه . فهناك بيته المصنوع من مور مجبول بالتبن ، ويستخدم في صنعه زبل البقر مكان الملاط . لا كوة فيه سوى الباب ، وهو لا يضاء ولا يدقأ بسبب الحاجة الى المحروقات . ولكن السقف المغطى بالتبن غالباً ما تلتهمه النيران . ارضه الترابية مغطاة بالحصر وليس عليها بالاضافة الى ذلك سوى صندوق لللابس . المياه الصالحة للشرب نادرة ؛ والدين والفاقة يحرمان الخمر . قوام وجبة الطعام بصل ولفت وخيار وفول وعدس وأرز، ولا سيما خبز الذرة الصفراء الذي ينقذ مصر من المجاعة . وجلي انه نظام غذائي نباتي قليل الفيتامينات ، لا يدخل فيه حتى حليب الجاموس . ويرتدي الفلاح قميصاً قطنية طويلة بسيطة ، ويكسي رأسه بكعة تعرف بالنددة ، فيدعى بسببها بأبي لندة . ويسير حافي القدمين او يحتذي البابوج احيانا . اما امرأته المهجبة فلا ترتدي سوى ثوب واحد ، ولكنها تكثر من الحلبي اللامعة . رمد العيون والبهريسة وضعف الدم الناجم عن الديدان الطفيلية امراض منتشرة تسبب اضراراً كبرى . الملاريا والكوليرا ينتشران بين حين وآخر ؛ وهناك بعض الاماكن الموبوءة بالطاعون . وينضم السفلس الوراثي الى الضعف العضوي للقضاء على نصف الاولاد الصغار . وعلى الرغم من كل ذلك يتزايد عدد السكان ويتزايد معه البؤس .

الفلاح مسلم بعيد عن التعصب ولا يفهم لغة القرآن . يزور ضريح الولي اكثر من الجامع البعيد . يحترم الدراويش ويتصف بروح التعاون . زد على ذلك ان شظف العيش لا يجعله شكماً : فانه يهوى الغناء ويستخدم الشبابة والمزمار ويضرب الطبل . انه سهل الانقياد وراخ بتدبير الله عموماً .

شبه عمرو بن العاص الشعب المصري بالنعلة التي يحكم عليها
الانسان يجني العسل من اجله . وسوف يتكلم الانكليز عن الضحية
الدائمة لمنطلق العاص . وفي اوائل القرن التاسع عشر جاء محمد
علي الذي أراد بدوره استخدام البلاد لبلوغ اهداف كبرى .

مطامع محمد علي وخلفائه
السيطرة البريطانية

اثرى في تجارة التبغ ، وكان امياً وفطناً وعادم الضمير . ثم اعترف السلطان بيأسويته على

مصر فقتل المالك على ايدي البانييه ، وما لبث ان أبعد الالبانيين السجسين بدورهم . وجنسد بعد ذلك جيشاً من بين الفلاحين واسند امر تدريبهم الى بعض المدربين الفرنسيين وابتغى السيطرة على الشرق . وكان بصيراً وقاسياً فاقنّبس عن اوروبا تقنياتها ودغدغ شغفها بالتاريخ المصري والآثار المصرية ، وسخر لمرض تعاطفم لاحدوده ارادة استبدادية على غرار بطرس الاكبر .

ما كان احد في الحقيقة لينكر ان المعجز التركي أوقع البلاد في حالة يرثى لها . فالاسكندرية ليست آنذاك سوى ميناء صغير لا يتجاوز سكانه ٥ آلاف نسمة . ولما كان الباب قد احتفظ لنفسه بالمرقا القديم القادر وحده على ابواء السفن ، فقد بقيت السفن الاوروبية خارجه معرضة للرياح العاصفة . وتعرض تجار الغرب ، المجموعون في مكان واحد ، لألف ظلم وظلم ؛ ولكن الفرنسيين تمتوا مع ذلك ببعض الامتيازات . اجل كان من شأن عظمة الابنية الفاطمية والايوبية والملوكية ان تترك اثرأ عظيماً في الناظر اليها : ٤٠٠ جامع بعضها اجل ما في الاسلام ، جامعة الازهر الدينية الذائعة الشهرة ، المكتبة الفنية الضامة مخطوطات قديمة للقرآن ، كلية قصر العين الطبية . ويضاف الى هذه الابنية شوارع مليئة بالنضارة ، وتجار وصناعيون يدويون كثيرون ؛ على ان اشكال النشاط قديمة العهد .

ان ما حلم به بونايرت ، وما نوى السانسيمونيون تحقيقه ، قد رسمه محمد علي رسماً ايجازياً: برنامج اعمال كبرى خليق بالفراغنة . لم يبال بحياة الرعايا بل طلب منهم الاسهام في عمله وأراد ان يجعل من مصر ارضاً توفر لصندوق ماله الدخول الوفيرة . عالج مسألة الري الرئيسية التي وجب برأيه ان تكون منظمة لا متروكة لأهواء الطبيعة . فنفذ جيش الفلاحين الزهيد النفقات تصاميم المهندسين الفرنسيين من امثال « لينان » و « موجيل » ، ونقل ١٠٤ ملايين متر مكعب من التراب ووضع مكانها ٣ ملايين متر مكعب من الحجارة المبنية . وعلى الرغم من التخلف عن مشروع سد عند الدلتا بعد جهود عشر سنوات ، اتمت مساحات زراعة الحنطة والارز ، وأخذت البلاد ، بصورة خاصة ، تجني القطن المعروف بقطن « جومل » ، وقصب السكر ، والنيلج والزيت ، المعدة كلها للتصدير . ولكن شيخ البلد والمدير الاقليمي والكتبة الاقباط في الوزارات صرفوا الذهن والفتنة في تحصيل كل ما يمكن بيعه في الخارج من الفلاح . أما الارباح التي وفرتها النخاسة ، فلم تكن مستهانة ايضاً .

أنفق قسم من الموارد على تجميل القاهرة وتنظيم الاسكندرية وبناء قناة تصل هذا المرفأ بشعبة النيل اليمنى . وكان الجيش والاسطول موضوع عناية واهتمام خاصين . ولكن أحلام التوسع العظمى لم تتحقق . وقد توفي الباشا شبه ممتوه بعد أن سير مصر على طريق نهضة لم يستفد منها الشعب الذي عومل معاملة قاسية لم يعرفها من قبل ، ولن تسم الا في عهد الرصاية الاوروبية .

إذا صرف سعيد واسماعيل النظر عن مطامعها في سوريا والجزيرة العربية وقبرص (لأن مدعياتها استهدفت السودان و إفريقيا الشرقية) ، فإن احلام العظمة ما زالت تراودها . ولكن السلالة غرقت في الديون أثناء فتح قناة السويس التي أضفت على مصر أهمية جديدة . وقد برهن سعيد عن بعض التساهل الديني ، ومنع الرق - اقله مبدئياً - وحظر العقوبات الجسدية ، وحد من تجاوزات شيوخ القرى ، ولكن التقدم الاقتصادي لم ينفذ الفلاح كما لم يبرر النفقات المفرطة : وقد اطردت هذه الاخيرة في عهد اسماعيل الذي حصل من السلطان على لقب الحديوي واعتقد ان ذلك يسهل له الاستدانة من اوربا . اجل لقد اقرت بعض المشاريع المجدية (كبناء الخط الحديدي بين الاسكندرية والقاهرة مثلا) . ولكن كم من اتفاق مفرط مخالف للصواب الى جانب ذلك ! أفلم يفكر هذا الامير بأن تدرب جيوشه امام قصره في الاسكندرية على ارضية حديدية حتى لا يزعجه الغبار المتطاير ؟ فمن جهة خرجت بور سعيد من الرمال ، وظهر الغاز في المدن ، وتأسست صناعة سكرية ، ونمت زراعة القطن ، ومن جهة اخرى ابتز الموظفون المتدنية اجورهم اموال الفلاحين ابتزازا لم يسبق له مثيل في الماضي ، وبات افلاس الاموال العامة أمراً محتمواً .

بقيت مصر توفيق وعباس حلمي مرتبطة بالباب بروابط التبعية الاقطاعية ، ولكنها اصبحت في الواقع تحت رقابة البريطانيين الذين أقاموا ، بأمر « بارنغ » (اللورد كرومر) ، حامية عسكرية دائمة ، وأداروا الشؤون المالية ، واستولوا على الجمارك والشرطة والخدمات الصحية ، وأعادوا تنظيم الجيش لمصلحتهم . فأرسخ الفاتح من ثم سلطته في السويس واستطاع تبني سياسة القاهرة لحسابه الخاص في وادي النيل الاعلى .

أما الفلاح ، فالمسألة التي عنته هي معرفة ما اذا كانت احواله ستتحسن بفعل استئجار يتحقق بهمة ونشاط لم تعرفها مصر من قبل .

حين يتجه المرء المصادر مصر من واحة سيوا نحو الغرب ،
الوصايات الثلاث في الجزائر وتونس
يدخل في بلاد البربر الممتدة حتى الاطلسي .
وطرابلس

نشأت عن الفتح التركي وصايات الجزائر وتونس وطرابلس ،
بينما توقفت سلطنة مستقلة في مراکش الى تثبيت اقدامها تثبيتاً متفاوت القوة . ولكن هذه
البلدان الاربع خضعت خلال القرن التاسع عشر ، الواحدة تلو الاخرى ، لسيطرة الدول
الاوروبية .

ومن غرائب المناقضات ان وصاية طرابلس هي آخر ما خضع لها من بين الوسايات الثلاث .
فبين دلنا النيل والمغرب تتصل الصحراء الكبرى بالمتوسط ، مما اسهم في نمو طرابلس المتعددة
في معيشتها على القرصنة وعلاقتها بالسودان التي اتاها منها الجمالة فاقلو الذهب والماج ومواكب قوافل
العبيد . وطرابلس المتميزة بأسواقها النشطة ، قامت في مكان « اوييا » القديمة وضمت حياً
يهودياً هاماً وقسداً ، وعدداً كبيراً من المالمطين والطوارق والزنوج . وفي السنة ١٨٣٥ ، آثر

الطرابلسيون ، امام خطر قبيلة اولاد سليمان المهرابة ، التي بسطت نفوذها بين الساحل وال «قائم»
التشادي ، استدعاء الاتراك ثانية ، لا سيما وان سلطتهم كانت سلطة اسمية فحسب . فبذل هؤلاء
وسعمهم في السيطرة على المناطق الداخلية ، واستولوا على واحتي غداميس وفزان ، ثم انشأوا
ولاية بني غازي . وكان مقدراً لهذه الوصاية ، ربما بفضل فقرها بالذات ، ان تبقى عثمانية
حتى السنة ١٩١١ ، تاريخ التدخل الايطالي المتأخر فيها .

بيد ان المغرب (جزيرة الغرب) الذي يضم الجبال القائمة بين المتوسط والاطلسي والصحراء
لم يصلح يوماً لان يكون اطاراً لدولة واحدة . فكل ما في طبيعة ارضه ومناخه وطرائق
المعيشة فيه قد اعده للتقسيم والتجزئة . وسوف يتوجب ان تفرض دولة اوربية وجودها حتى
تعرف افريقيا الصغرى هذه بعض الوحدة السياسية والادارية : فجاءت السيطرة من الخارج
كما حدث في الماضي .

ما زالت الجزائر وتونس تعترفان بالخضوع للباب العالي . ولكن الموارد التي توفرها القرصنة
كانت سائرة في طريق الزوال . فلم يكن « داي » الجزائر من ثم خاضعاً لتعاونية القراصنة او
« طائفة الرؤساء » خضوعه لفرقة الانكشارية او « الارجاق » ، كما ان باي تونس قد استند
الى البورجوازية التجارية ، اكثر البورجوازيات طابعاً عربياً في المغرب ، التي كان يهتما الاحتماء
من غزوات البدو . فقد بدا الحفصيون ثم الحسينيون في افريقيا امراء سلالات على بعض القوة .
اما الداوي ، الذي قال عنه مؤرخ اسباني انه « ملك عبيد وعبد رعاياه » ، فكان اداة في يد
الجيش . فبالنظر الى توليه السلطة اما عن طريق الدسيسة واما عن طريق القوة ، ولما كانت
بالاضافة الى ذلك جامعاً وتابعاً هراء ومقلماً لجيرانه (ولذلك لن يمد له يد المساعدة لا باي تونس
ولا الشريف المغربي في السنة ١٨٣٠) ، فلم يتمتع بسلطة صكافية لنشر الامن والنظام في
الجزائر .

تتميز الجزائر بالتنوع بسبب اتساع رقعتها . فمن الطبقة العسكرية التركية والنساء البلديات
المحدر ال « كولوغلي » الذين يؤمنون الحراسة في حصون المدن ويمتلكون بعض البساتين ؛
يحتقرون البورجوازيين والصناعيين اليدويين ويشيرون خوف وحفيظة سوامم . ويتعاطى المغربي
او الاندلسي على العموم حرقاً تتطلب بعض الذوق ، بينما يتعاطى الزوج ، المتقون غالباً ،
اعمال البناء المختلفة . ويزاول المزابيون ، المعتبرون كخوارج ، تجارة الاقمشة والمواد الغذائية ،
ولكنهم نادراً ما يستقرون في مكان معين ، بل يعودون الى مزاب بعد جمع الثروة . اما
الاسرائيليون سكان المدن فيؤلفون جماعات مستقرة ، ويبلغ عددهم زهاء عشرين الف نسمة
منهم ٦٥٠٠ في مدينة الجزائر نفسها و ٣٠٠٠ في قسنطينة ، وينحدر جلهم من اصل بربري ؛
ولكن عدداً كبيراً منهم ينحدر كذلك اما من اصل عبراني آرامي واما من اصل اسباني .
ويتوجب عليهم ارتداء زي خاص والاقامة ، على العموم ، في احياء منفصلة . ويعانون من

المطالم وحتى من اعمال العنف . وهم فقراء الحال بصورة عامة ، ولكن بعضهم يتماطلون
تجارة رابحة ويلعبون دور الوسطاء المفوضين مع الاجانب .

اما سواد السكان فيتألف من خليط من العرب والبربر الموزعين على غير تساوي بين المدينة
والريف . اجل ان المدينة ، التي تحيط بها الاسوار بصورة عامة وتشرف عليها القسبة وبعض
المآذن ، تبدو وكأنها مركز ثقافة عربية ؛ ولكن العنصر البربري متفوق في الاسواق . زد على
ذلك ان المدن المعتبرة « حضرية » لا تتجاوز العشر عدداً .

لا يزال التضاد قائماً بين البدوي الذي ترتبط حياته بانتقال القطعان من منطقة
الى منطقة وبين الحضري او شبه الحضري . الحفاف عدو الجميع في كل مكان .
والانسان يسيء مقاومته لانه نمطي وقدرتي ولا يستخدم سوى محراث مزود ببانسة صغيرة
بدون سكين ومقلب ، وكانه مجرد كلاب يجره الحمار او الحصان او الثور ؛ يحمص بواسطة
المنجل ، وينظف الحبوب من التبن بواسطة المذراة ، ويجمع الحبوب في المطاير . اجل انه
يعتني بمحافظته وبساتينه . ولكنه لا يتقن تربية المواشي ويجهل امر سكانها في الزريبة
ويقدم لها الاعشاب التي تنبت بفضلته تعالى . وغالباً ما يحدث ان تموت الابقار والاعنام جوعاً
باعداد كبرى . وتسبب الحروب الاهلية والغارات بخسائر توازي تلك التي تسببها الكوارث
الطبيعية . وباستطاعتنا كذلك ان نرد الى الفوضى والامهال سوء الحالة الصحية في السهول
الساحلية .

الف الناطقون باللغة للبربرية بمجموعات متراسة في جبال قابيلية واوريس وبين سنوسي
منطقة تلمسن ، ولكن تعلمهم اللغة العربية وارتدادهم الى الاسلام لم يقضيا على عاداتهم القديمة .
فقد قابل الشرع الاسلامي العادة المحلية : وهكذا فان قبائل قابيلية لا تخضع الا لقوانينها ؛
وحتى اذا تجمعت العائلات المتصاهرة لتؤلف « الدوار » عند الرعاة و « القصار » في القرية ،
فان هذين التجمعين لا يرتديان قط طابع الديمومة .

عجزت حكومة الوصاية عن تنشيط اقتصاد البلاد ، فلم تهتم الا لجمع الدخول . وقد تاملت
لها الواردات بفضل الجمارك والمقايسات مع الخارج . وقد باع الداوي الاصواف بواسطة يهود
ليفورنو محققاً كسباً يوازي ٣٠٪ ويرتفع حتى ٥٠٪ حين يضاف اليه كسب التجار ؛ وقد
اشترى هكتولتر الحنطة من المنتج بسعر يتراوح بين ٣ و ٨ فرنكات وبيع بسعر يتراوح بين
١٨ و ٢٠ في اوروبا . اضعف الى ذلك ان الضريبة تفرض على القبيلة « الرعية » بالتخسلي
للحكومة عن بعض الحصاد والماشية ؛ وتجمع هذه الضريبة على يد قبائل تعرف بالخرزن وتقوم
بمعملها مقابل تخفيض الرسوم المفروضة عليها وحتى اعفاؤها منها ، وبمساعدة الحاميات العسكرية .
واذا احتفظ الداوي لنفسه بادارة منطقة مدينة الجزائر (ملكه الخاص) ، فقد فوض بسلطانه
الى بعض البايات في مناطق وهران وقسنطينة وميسديا . وبدهي ان الامور لم تجر بدون
صعوبات . فان باي قسنطينة ، الكولوغلي الحاج احمد ، قد القى الاهابة والخوف في كبار

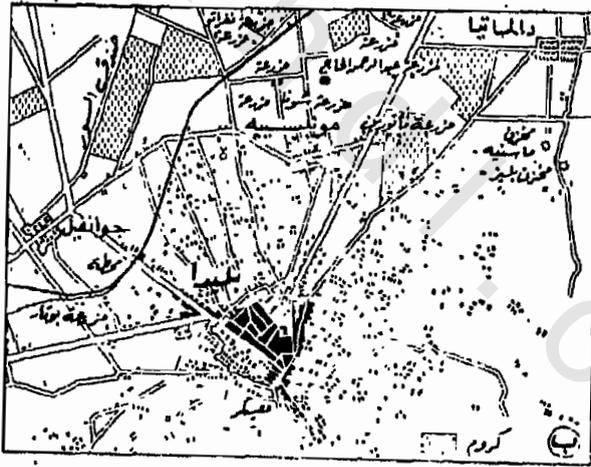
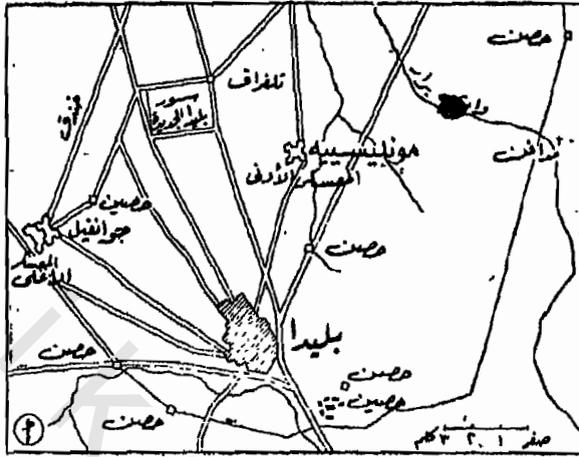
الاقطاعيين المدعين الانحدار من الفاتحين العرب (ارستوقراطية الدم الازرق) ، ولكن الداوي محمد بن عمان لم يستطع اخضاع قابيلية (وستدوم الاسطورة القابيلية طويلا). اما في منطقتي وهران وتقري ، فقد ساندت فاس بعض الجمعيات التي تنازعت النفوذ فيها : فبينما نادى بعض الجمعيات الدينية المتميزة بروح ديموقراطية ، كجمعية الدراكاوة ، بالثورة على السيطرة التركية ؛ برز في الارستوقراطية المتصوفة زعماء تاقوا الى تخطي النظام القبلي وسموا وراه السلطنة ، ومن اشهر هؤلاء الزعماء عبد القادر الذي سار على خطى الامراء العرب . وقد استغلت القوى الروحية الاستياء العام الناجم عن البؤس ، قبل ان يستطيع الفرنسيون الاستفادة من الخلافات . وان عبد القادر لمدين بقسط كبير من شعبيته الى الغاء الضريبة العينية التي سبق ووعدت بها ثورة دركاوية . وجملة القول ان القبائل الرعايا كانت ترتقب اول فرصة للتحرر من نظام جائر . ثم جاء الفتح الفرنسي في وقته المناسب حين وجد السبيل مهيدا .

عمل الفرنسيين في الجزائر بسبب جهل الاماكن واللهجات ، خضعت الحملات الاولى على الجزائر لعامل الارتجال ، وساد الاعتقاد بان الاتفاقات

مع الزعماء المحليين - احمد في منطقة قسنطينة وعبد القادر في منطقة وهران - ستكون كافية لضمان احتلال جزئي ؛ يضاف الى ذلك ان الرأي العام لم يكن معداً للتسليم بتضحيات كبرى . ولكن الحاجة مست بعد قليل الى حماية المهاجرين المستعمرين في منطقة التل ، كما مست ، امام عبد القادر الاربب والخطر ، الى الاستيلاء على كل شيء خوفا من فقدان كل شيء . فكانت الحرب الكبرى مع ما تحللها من غزوات واعمال عنف وقد تولى عملياتها ضباط تعودوا ظروف القتال في افريقيا . وسهل عمل الفرنسيين فقدان الروح القومية وفشل التمسبة الدينية ، اي الاختلافات بين المسلمين . واذا لم تتحقق التهدة النهائية الا بعد مرور زمن طويل ، فان اضطراب السنة ١٨٦٥ و ثورة السنة ١٨٧١ الخطيرة لم يكونا خطرا على السيطرة الفرنسية . وسوف يصبح بمقدور الاحتلال بعد ذلك التوسع تدريجياً في كافة المناطق الداخلية والسير على طرق القوافل عبر الصحراء .

اقتنع الجيش شيئاً فشيئاً بان الجزائر انها هي عمله وتحقيقه ، ومن جهة ثانية بان السلطة العسكرية وحدها قادرة على ابقاء فرنسا فيها . ولم يسل « بوجو » يوماً بان راي المدنيين يجب ان يتقدم رأي العسكريين ، وعارض استثمار البلاد على يد مهاجرين احرار في التصرف كما يطيب لهم التصرف ، او على يد رأسماليين يقتطعون منها او من دخول سكانها ما يطيب لهم اقتطاعه . وبالمقابلة درج الفاتحون شيئاً فشيئاً على تعيين او تثبيت الزعماء البسليديين في مراكز المسؤولية مفوضين الى تدبيرهم امر جباية الضرائب ، فسلوا بذلك استمرار نظام اقطاعي تناوله بالنقد المطالبون بنظام مدني .

لما كان الاستعمار الاسكاني قد بدا ممكناً منذ البدء ، فقد تقابل منذ البدء عالمان مختلفان .



الشكل ٢٥ - مثال عن الاستعمار الاوروبي . بليدا ومنطقتها

- أ - بليدا في السنة ١٨٤٤ ، حين وضع الجيش يده عليها ،
 ب - بليدا في اوائل القرن العشرين بعد استئثار المزارعين والكرامين لارضها .
 (نقل عن « ج. فرالك » في كتابه « استعمار المتيجه » ص ٢٤٩ و ٥٦٤) .

ولكن استيطان الفرنسيين لا يمكن ان يتحقق الا على حساب البلديين . والحال لم يفكر أحد بمنعه ، حتى ولا « بوجو » الذي كان يحلم بمجنود فلاحين على غرار الرومان . فسارت الامور على غير هدى ، وفاقاً لحاجات الساعة او لاتفاق الآراء السائدة . وقد هاجر، اثناء الاعمال الحربية، بعض المساكن الذين أقاموا على مقربة من مدينة الجزائر ، وبعض المضاربين الذين اشتروا بغية تحقيق الارباح عند البيع ، وبعض هواة الاختبارات الزراعية الكبرى . ثم تسببت ازمة لسنة ١٨٤٨ في هجرة عدد كبير من العمال ، وتبنى المجلس التشريعي مبدءاً ازال الجنود في المنازل والاحياء الآهله الذي يتبع اغتصاب اموال البلديين بموجب القانون . واذا أعرب نابوليون الثالث عن رغبته في حماية القبائل ، فان ذلك لم يمنع الامبراطورية الثانية من اطلاق حرية العمل للأسماليين الذين حصلوا على امتيازات واسعة : هذه هي سانسيمونية الاشغال العامة الكبرى، التي توفرت لها وسائل مالية عظيمة ؛ ولكن سد « هبرا » قد انهار ، والشركة الجزائرية العامة أعطيت ١٠٠.٠٠٠ هكتار دون اي تعهد من قبلها. ففترت همة صغار المهاجرين المستعمرين فترة من الزمن ، ولكنهم استعادوا التفوق ابتداءً من السنة ١٨٧١ : فتوزع خلال عشر سنوات اكثر من ٤٠٠ الف هكتار . ثم بطؤ الاستعمار الرسمي . أضف الى ذلك من جهة ثانية ان الانبعاث نحو توسيع الانصبه التي بلغ معدل مساحتها الى ٢٥ - ٤٠ هكتاراً ثم ٦٠ - ٧٠ هكتاراً ، ثم ٢٠٠ هكتار . فعاد الى الاملاك اعتبارها بعد أن تأمنت لها رؤوس اموال وفيرة وتقنية متكاملة : وبعد عهد الاستعمار الديمقراطي في اوائل عهد الجمهورية الثالثة دخلت البلاد مرحلة رأسمالية زراعية صادفت في الزمن توسيع الاسواق للمحاصيل الكبرى كالحبوب مثلاً .

لم تتحقق لعمري تقديرات « بربفو - بارادول » بأن افريقيا الشمالية قادرة على استيعاب ١٥ الى ٢٠ مليون فرنسي حوالى السنة ١٩٣٠ . ويرد ذلك الى ان الجزائر لم توفر للاستعمار الاوروبي الظروف المواتية نفسها التي وفرتها له كندا او أستراليا . وحتى السنة ١٨٥٦ ، كان من ارتفاع نسبة الوفيات بسبب الحميات وسوء الحالة الصحية ان عدد الموتى بين المهاجرين كاد يوازي عدد الداخلين الجدد منهم . ففي السنة ١٨٤٩ فتك وباء الكوليرا بالسكان فتكا ذريعاً . واننا نذكر هنا على سبيل المثل ان سكان « بوفريق » قد تجددوا ثلاث مرات . غير ان بعض التحسن طرأ بعد السنة ١٨٦٠ ، فتضاعف عدد الاوروبيين بين السنة ١٨٥٦ والسنة ١٨٧٦ . وكانت نتيجة مرسوم « كرميو » لمصلحة اليهود وقوانين تجنس الأجناب تكوين قومية جزائرية حقيقية ، شبيهة بالقومية الفرنسية ، ولكنها تهي مصالحتها الخاصة . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان الاوروبية قد أقاموا في المدن اكثر من الارياف ، فشيدت احياء جديدة في مدينة الجزائر ووهران والمدن الرئيسية الاخرى . وأنجب الاسرائيليون اولاداً كثيرين ، وحرصوا على تعليمهم واعتمدوا الزي والعادات الاوروبية ؛ وتعاطوا تجارة العقارات، ولكنهم احرزوا النجاح في الصناعة اليدوية واتجهوا طوعاً نحو المن الحرة .

الا ان عدد المسلمين ارتفع ارتفاعاً سريعاً جداً فبلغ ٥٠٠ ٠٠٠ ٢ حوالي السنة ١٨٥٠ ؛
وحين تدنى حتى ٢ ١٠٠ ٠٠٠ في السنة ١٨٧٢ ، اعلن البعض ان الشعوب المتخلفة تنقرض امام
الشعوب المتفوقة ؛ اما الحقيقة فان مرد هذا النقص هو انتشار الجماعة والتيفوس في السنة ١٨٦٧
واندلاع ثورة السنة ١٨٧١. فقد قفز عددهم الى قرابة ٣ ملايين في السنة ١٨٨١ والى ٤ ٨٠٠ ٠٠٠
من أصل ٥ ٥٥٠ ٠٠٠ في السنة ١٩١١ .

لم يتطور جمهور المسلمين تطوراً يستحق الذكر . ولم يستفد استفادة كبرى من مؤسسات
الحماية والتربية ؛ زد على ذلك ان اول مستشفى بلدي لم يفتح ابوابه الا في السنة ١٨٩٤ . وقد
فتكت الامراض بأعداد كبيرة منهم كل سنة ، لا سيما التدرن الرئوي والسفلس اللذان يبدو في
الحقيقة انهما زادا انتشاراً منذ مجيء الفرنسيين . ولا شك في ان التعليم في المساجد والمدارس
والزوايا كان دينياً فحسب ، ولكنه كان يتيح للأولاد تعلم القراءة ؛ فجاء الاسياد الجدد واستولوا
على الاوقاف وقضوا على هذه المؤسسات . ولم تعط تجارب المدارس العربية الفرنسية نتائج
مشجعة . وبسبب عدم توفر الموارد والمدرسين لم تؤمن قوانين « فري » للمدارس العامة البلدية
سوى بضعة آلاف من التلامذة ؛ اذ ان ذلك أن التعليم المقترح لم يوافق دأبها الاوساط
البلدية . واذا وفرت البلاد للفرنسيين حقلاً غنياً للدرس والملاحظة وحصاداً وفيراً
للمواضيع الادبية ، فان الفن الاسلامي ، بالمقابلة ، ما زال يتقهقر تقهقراً مطرداً : ارتسم
اسلوب هندسي فرنسي جزائري للابنية العامة ومقاصف المهاجرين المستعمرين ، ولكن قصر
احمد ، بابي قسنطينة ، كان خاتمة الابنية البلدية بحسب النمط التركي الجزائري . اما الفنون
الصغرى ، المزدهرة جداً من ذي قبل ، فقد تأثرت بزوال القرصنة ، ثم عرفت ازمة خانقة
لا علاج لها بسبب المنافسة الأوروبية وارتداد البدوة الى الورا . فالنجاحات التقنية تقضي
على النشاطات القديمة قبل تحسين وضع المتخلفين . وهكذا فان المجتمع الاسلامي قد قابض
الطنفسة بالسري الزهيد القيمة ؛ وحلت الشمعة محل السراج الخزفي ؛ وفقدت علب البارود
المنقوشة مبرر وجودها حين اصبح من السهل شراء الفسك ؛ وهبط عدد الزوجات بفعل تبسيط
اعمال المنزل ؛ فندرت في الوقت نفسه اليد العاملة اللازمة للحرف العائلية .

في المدينة عاش الكولونجي والمغربي في ضيق ولم يتكيفوا . اما البربر والعرب الذين اعتمدوا
في معيشتهم على التيارات التجارية القديمة فقد خسروا الكثير بفعل الفتح الفرنسي الذي اوجد
تيارات جديدة واسواقاً جديدة . فالتداول النقدي الوفير قد حل محل المقايضة وحدث
انقلاباً في اسعار الحبوب والاصواف . وكيبت ضربة شديدة جداً لارستوقراطية الاشراف
والزعماء والقادة الذين ثبتتهم فرنسا في البدء في سلطتهم ، والذين بلغوا ذروة نفوذهم في ظل
« المملكة العربية » في عهد الامبراطورية الثانية ؛ فلم يفقد الزعيم القديم نفوذه فحسب ، بل
فقد ثروته ايضاً بفعل الاقتصاد الجديد . وكان فقدان الاراضي بفعل تزايد عدد السكان
اشد خطراً من كل شيء آخر . فقد خضع مليوننا هكتار على الاقل لنظام القانون المدني . ولا عجب

من ثم اذا ما هاجر العديد من الرعاة خيامهم بسبب عجزهم عن تحسين تربية واشيهم؛ ولا عجب كذلك اذا ما هاجر القبايليون بعد هزيمتهم في السنة ١٨٧١ وتعاطوا الاعمال المأجورة او المشاركات الزراعية . وغني عن البيان ان هذه المهاجرات قد فككت بيئة مغلقة كل الاقفال واسهمت في استرخاء الروابط العائلية . ولكن شطرا من السكان المسلمين تعود الاساليب الجديدة ، فأحسن العناية بالاشجار والمواشي ، وزرع البطاطا ، واستفاد من زراعة التبغ وبيع الاثمار . اما سوادهم الاعظم فما زال يمشي عيشة زرية .

يجب الاعتراف ، على الرغم من كل ذلك ، بأن الوجود الفرنسي قد اوجد بلاداً جزائرية جديدة . اجل ، ما زالت الاحوال سيئة في اوائل عهد الامبراطورية الثانية؛ فالهاجر المستعمر، المنتقل الى الموارد ، يعيش في ضيق ويعاني من نظام حماية لا يسلم باعتبار المحاصيل الجزائرية محاصيل فرنسية ؛ وانتاج الحبوب في تقهر مطرد ؛ ولم يزل خطر وهم مزروعات المناطق الحارة ، ولا سيما القطن ، الا في السنة ١٨٧٠ . ولكن القانون الجمركي الذي صدر في السنة ١٨٥١ مثل المستعمرة بالوطن الام . فتأسست شبكة مصرفية . وفي السنة ١٨٦٠ دشّن اول سد لتخزين المياه . ويجدر القول هنا ان سدود التخزين ، التي فضلت بعناد على سدود الاسالة حتى السنة ١٨٨٧ ، قد خيبت الآمال . الا ان الانطلاقة باتت حقيقة واقعة عشية ازمة السنة ١٨٦٨ الرهيبة : فقد قابل تدفق المهاجرين الجديد تقدم سريع في توسيع المساحات المكروسة لزراعة الحنطة والبواكير وشجر الزيتون ؛ ودبت الحياة في التجارة بفضل الخطوط الحديدية والطرق . وحوالي السنة ١٨٨٠ توسعت عملية القروض الزراعية وأدخلت الدراسات الآلية .

في هذه الاثناء أصبح اتفاق الظروف غير موافق لزراعة القمح التي مرتت في فترة توقف . زد على ذلك ان الجزائر اكتشفت مستقبلها في زراعة الكرومة . وقد برز الشغف بالزراعة الجديدة في اعقاب ازمة بيع اولي حصلت في السنة ١٨٩٣ ؛ فاحتلت الكرومة ١٥٠.٠٠٠ هكتار في السنة ١٨٩٩ . وهكذا فعلى الرغم من عدم اهتمام المجتمع الاسلامي بالكرومة الا من أجل العنب فقط ، ضحّت البلاد بتربية المواشي واهملت الحبوب ، مع ان هاذين القطاعين حيويان جداً من وجهة النظر البلدية .

وفي عهد مبكر استرعت ثروات باطن الارض انظار الوطن الام والراسماليين ؛ فدفع معدن الحديد الى تأسيس شركة «مقتى الحديد» ؛ ثم بوشر في الجوار استثمار الفوسفات . فاسهمت هذه الصناعة الاستخراجية في موازنة المقايضات في منطقة تفتقر الى التجهيز وتستورد كافة الادوات المصنوعة تقريبا .

ولكن السؤال الذي بقي بدون جواب هو معرفة ما اذا كانت فرنسا ستعتبر الجزائر كجزء امتداد لارضها الخاصة . فان الجزائريين الفرنسي الاصل والجزائريين المتجنسين ، وهم فرنسيون حقاً ، قد تمتعوا بحقوق المواطنة الفرنسية . ولكن ما هي حقوق المسلمين با ترى ؟ ثم هل يقبل

الجزائريون بأن تدار شؤونهم في باريس ؟ لذلك فان تاريخ نظام الجزائر السياسي والاداري يفسر الصراع ، الدامي أحيانا ، بين النزعات المختلفة ، دون ان تتغلب احداها ، في يوم من الايام ، تغلبا لا مراء فيه . اجل ان المسافة بعيدة بين « المملكة العربية » والنظام المعروف بنظام الارتباطات ، وبين نوع من الاستقلال الذاتي والتمثيل ؛ ولكن الاستقلال الذاتي لم يكن يوما حكما ذاتيا ، كما ان التمثيل لم يستهدف البتة الجماهير الاسلامية . وبعد ثورة السنة ١٨٩٨ الفاشلة ، المعادية لليهود والمطالبة بالاستقلال الذاتي ، ساد شيئا فشيئا نظام التفويضات الذي منح المهاجرين المستعمرين مزيدا من الحقوق والحريات وابقى البلديين في وضع اجتماعي متدن . اما هذه الحالة التي ارادها الجزائريون الفرنسيون ، وهم اقلية ناشطة وهيئة انتخابية كبرى ، فقد وافقت مصالح الحكام في الوطن الام .

الحماية الفرنسية على تونس
هل ستستفيد فرنسا من اختبارها في الجزائر حين تسمح لها
الظروف باخضاع وصاية تونس بدورها لسيطرتها ايضا ؟

ان البايات الحسينيين الذين قامت بينهم وبين الفرنسيين ، جيرانهم منذ سقوط الجزائر ، علائق صداقة وحسن جوار ، كانوا مصممين في الوقت نفسه على مواصلة العمل الاصلاحى الذي بدأه الخفصيون . فبعد ان ألغوا الرق وحرروا اليهود ، حاولوا توسيع منطقة الاحتلال او بلاد الترك ، واخضاع منطقة الانشقاق او « بلاد العرب » ووضعوا يدهم على مناطق طرق المواصلات واقطعوا مناصريهم بعض الاراضي ، واقاموا علائق طيبة اكثر استمرارا بينهم وبين البلدان المتوسطية الاخرى وشرعوا في تجهيز مرفأ تونس ، ومارسوا على العموم سياسة عطف على بورجوازية المدن ، ولكنهم سلكوا كذلك طريق الاتفاقات المفرط والاستقراض . اصف الى ذلك ان بعض الاجانب الاوروبيين والمسلمين ، كالحزبندار اليوناني مصطفى والشركسي خير الدين ، قد حرصوا على الاصلاحات والاشغال الباهظة الاكلاف . ولكن ميثاق السنة ١٨٥٧ الاساسى الذي استوحى اعلان حقوق الانسان وقضى باحداث مجلس استشارى يضم بعض الاعيان ، لم يمنع زيادة الضرائب والمجاعة ، بالاضافة الى وباء الكوليرا ، من تمهيد السبيل لازمة خطيرة : فان محمد الصدوق ، الذي لم يبق امامه سوى عقد القروض الجديدة والافلاس ، قد خضع لسيطرة بعض الدول التي حركها الدائنون الجاهلون ورجال الاعمال الطماع . فاختر فرسي صيغة « السيد المحمي » الموازر في ممارسة وظائفه . أي ان الادارة البلدية بقيت ، ولكن المقيم العام ، الذي تعينه فرنسا ، كان المشرف على كل شيء ، ووزارة الخارجية الفرنسية ، تمثل الوصاية القديمة في النطاق الدولى . وغني عن البيان ان الشراكة لم توجد المساواة بين الشريكين ؛ فقد أمنت مصلحة الدولة الحماية التي لم يخضع مواطنوها لقوانين البلاد . أما ليوتي فيسفاخر بنظام « لا يلغى مناصب الحكام القدامى » بل يتيح « استخدامهم » . وفي المؤتمر الاستشارى الذي تأسس في السنة ١٨٩٦ أمّن الفرنسيون لأنفسهم رجحان السلطة والتفوذ .

أكد كليمنصو أن الهدف الاول هو « فتح الوصاية اقتصاديا » ، وسلم فرى بأن تونس يجب

« أن تعتبر ، حق اشعار آخر ، مستعمرة لرؤوس الاموال » . والواقع هو أن الحماية قد استهدفت تنمية البلاد بدلالة المصالح الفرنسية . فشقت بعض الطرقات وربطت شبكة الخطوط الحديدية بالشبكة الجزائرية . ولكن فوسفات الساحل لم يسترح الانتباه الا في السنة ١٨٩٥ ، وخصصت قاعدة بنزرت العسكرية بالاعتمادات نفسها التي خصصت بها المرافء الاخرى: فخلال السنوات الخمسة عشر الاولى لم يقدر أحد سوى الاهمية الاستراتيجية والامكانات الزراعية في الولاية الافريقية القديمة . ولم يحل تسجيل الاراضي في سجلات الحكومة واصلاح الممتلكات الوقفية دون قيام املاك كبرى على غرار الـ « اقفيداء » التي باعها خير الدين من الشركة المرسلية . وقد لوحظ ، بعد مرور عشر سنوات على توقيع ميثاق الحماية ، ان الفرنسيين كانوا يمتلكون ٤٣٣ الف هكتار سجل ١٦ الفاً منها على اسم ١٦ ملاكاً فقط : فان صغار المهاجرين المستعمرين لم تستهواهم الاملاك الواسعة ، والبلديين خشوا عملية التسجيل . لا بل اصبحت الارض الزراعية بادرة بينما تزايد عدد السكان تزايداً سريعاً . فمنذ السنة ١٨٩٠ عُمِلَ بمقد المغارسة لزراعة شجر الزيتون . وكما حدث في الجزائر تقدمت زراعة الاشجار المثمرة على زراعة الحبوب ، لاسيما وأن الكرمة أخذت تنتشر بسرعة . ولكن البعض اقض مضجعهم عدد الفرنسيين الزهيد (٢٤ الف مهاجر مستعمر او موظف يقابلهم ٧١ الف ايطالي ، على زهاء مليوني نسمة) ؛ وقد استحصلت روما في السنة ١٨٩٦ على بعض الامتيازات لرعاياها .

اذا عرفت تونس الهدوء ، فانها لم تتطور قط . فالبلدي فيها لا يزال يعيش حياها فقر وسحابة ، بسبب تعرضه للدول وتأثره بتقهقر الحرف الصغرى . ولكن نخبة بلدية محدودة تهذبت في المدارس الاسلامية وفي المعهد الصادقي الذي فتح ابوابه في السنة ١٨٧٥ . ودرست اللغة الفرنسية كلفة اجنبية في المدارس الفرنسية العربية ، ولكن هناك عدداً من المؤسسات الكاثوليكية والسكليات العلمانية . اما الخدمات الصحية فقير مرضية :

يبرز التناقض في العاصمة بين الشوارع الجميلة في المدينة الجديدة وتبه الشوارع الضيقة القذرة التي تحيط بالقصبة وتصل بين المدينة العربية والاسواق وحارة اليهود . أما في الارياف حيث يعيش المهاجر المستعمر الغني حياة ترفه ، فلم يطرأ على المسكن اي تبدل : البدوي يعيش تحت خيمته ، والبيوت اكواخ مسقوفة بالتبن الطويل والاعشاب ومؤلفة من غرفة واحدة يسودها الدخان ويفزوها القمل والبراغيث والبق .

ان مراکش اكثر أجزاء المغرب عزلة وأقلها تأثراً بالاسلام .
 الامبراطورية الشريفة
 قبل التدخل الاوربي
 استخدمها الغزو العربي ممرأً للانقضاض منها على اسبانيا ،
 ولكنها التفتت ابدأ الى روابطها الشمالية بشبه الجزيرة الايبيرية
 من جهة وروابطها الجنوبية بالصحراء الغربية من جهة اخرى . ومن تخوم الصحراء جاءت
 السلالات التي قاومت ، في منطقة فاس ومكناس ، حرب الاسترداد التي شنها الاسبانيون ،

اسياد حصون الحدود ، في سيرهم على قطوان .

هناك مغرب (مراكش) خارجية ، على حدود الصحراء ، منشأ القبائل العربية او المستعربة التي تسيطر على الواحات وغالباً ما تشن الغارات على السهول الاطلسية . فقد اقامت السلطنة رجالها الاوفياء في هذه الاراضي الجيدة وعودتهم الحياة البدوية . واقامت هي نفسها بين الاطلس والريف حيث المدن الحضرية . الا ان الجبال المرتفعة تنتصب فوق السهول ، وتؤلف منطقة الانفصال التي تضم عظماء السدو المتحالفين رحضريي قراها المحصنة وقصورها المنيئة بالمواد الغذائية . ويغلب فيها العنصر البربري لان الناطق باللغة العربية ، اذا ما استثنينا بدو الجنوب ، ليس سوى مدني او مزارع من مراكش الاطلسية . والحال يكاد ينحصر اقمهم في الجماعة الصغرى التي تنضم ، كيفما تيسر ذلك ، الى القرية او القبيلة : وفي سبيل استمالتهم ، يجب اغراؤهم بمخادب البارود (المعركة) او الغزو . وقد يمكن من ثم تحديد الدولة المغربية بما يلي : حماية عربية الطابع ، ذات حضارة مدنية مغربية اندلسية ، على بلاد بربرية لم تخضع اخضاعاً تاماً . ولعل القاضي والشرع الاسلامي لم يضطرا يوماً الى مسaire العرف ، والاسلام الى مسaire الوثنية المستترة ، والحكم الى مسaire صوفية زهدية توافق نزعة ديموقراطية خاصة ، كما حدث في هذه البلاد .

السلطان مطلق السلطة نظرياً ويسند قوله الى اصله الشريفني اي الى كونه منحدرأ من النبي . أما في الواقع ، فجيوش القبائل الثماني المرتبط مصيرها بمصير السلالة العلوية ، والموزعة على النقاط الهامة (فاس الجديد مثلاً ، على مقربة من فاس البالي ، المدينة الدينية والصناعية القديمة) ، هو ما يشكل قوة الحكم الفعلية الوحيدة . فكل سنة تدبير السلطة « الحركة » ، وهي حملة عسكرية لا تستهدف القضاء على المنفصلين العصاة استهدافها ايجاد تسوية معهم بالتوقف فيما بينهم . تسند اعمال الادارة والجباية الى القائد بتولية من السلطان ؛ وإذا كان القاضي ، الذي يعينه العلماء ، مرتبطاً بالشريف ، فان القاضي ، الذي يُختار من بين شيوخ القبائل ، يبقى مستقلاً . وتقوم سياسة السلطة بارتضاء القبائل الوفية ، ومعاملة القادة بالحسنى بغية شق المنفصلين واضعافهم ، ومراعاة جانب الجمعيات الدينية . اجل لم يعد هناك من ازمات سلالية . ولكن العلويين لا يقوون الا على المحافظة على التقاليد بالمحافظة على الظواهر والعمل ليومهم .

ولا نمني بذلك ان هؤلاء الشرفاء كانوا خلواً من الصفات والقيم . فان مولاي حسن ، الذي عاصر الثورة ونابوليون قد أمر انكماش البلاد على نفسها . واعتمد مولاي عبد الرحمن على البريطانيين منذ ان واجه خطر الفرنسيين بعد غزوم للجزائر ، ولكن السلطة اضمعتها الثورات . وحين عجز محمد عبد الرحمن عن صد الغارات الاسبانية الا باللجوء الى خدمات لندن ، اضطر الى التخلي عن الكثير من حقوقه لاستقالة القادة ومقاومة هجوم جديد شنه الانفصاليون .

عندما اصبح مولاي حسن شريفاً في السنة ١٨٧٣ ، بدت المغرب التقليدية وكان نهايتها قريبة جداً . وكيف يمكن ان يستمر استقلال بلاد عاجزة عن التخلص من أنظمتها البالية ؟

فان مؤتمر مدريد قد فرض عليها ، على الصعيد التجاري ، نظاماً دولياً يرغمها على معاملة كافة الدول معاملة الدولة المفضلة : فكان ذلك حرماناً لفرنسا وانكساراً من مركزها الممتاز ، ولكنه كان في الوقت نفسه مشاركاً للاطماع العديدة والمنازعات من اجل النفوذ فيها . والحال اصبحت السلطة بالنهكة في اكثارها من « الحركات » أو الحملات العسكرية دون ان تفلح في اعادة تنظيم جيشها وتحسين ماليتها . وجل ما توصلت اليه ، بقدر امكاناتها ، شل نفوذ الاجانب التجاري بغية المحافظة على روح قومية متحذرة .

عندما تولى السلطة مولاي عبد العزيز في السنة ١٨٩٤ كانت الزراعة آخذة في التدهور بفعل غزوات البدو وثقل الضرائب ؛ وكانت الصناعة اليدوية محافظة بصعوبة على تقاليدها الفنية الماضية ، كما أن التجارة ، التي أعاقها النقص في وسائل النقل ، وحالة المرافئ المتأخرة ، والاحتكارات ، واقفال الحدود ، والحاجة الى النقد ، كانت في حالة ركود . وكانت كل منطقة تعتمد في معيشتها على نفسها ، وكل حي وكل قرية يجزعان لسلامتها . ففي فاس ، التي شاهدها « ادمون دي اميسيس » نصف خربة ، لاحظ « شارل دي فوكو » ان « اليهودي ... يتنقل في « الملاح » بين الاقدار ويتعثر بالبقول التنتنة ... » ، ولكنه اضاف الى ذلك : « الأشياء الجميلة هي في المدينة العربية » . ولكن ما هي هذه الأشياء الجميلة ؟ جوامع وقصور وحدائق غناء تعيد الى الذاكرة عظمة دخلت في التاريخ ، بين اكواخ غير صحية وجداول تملأ مياهها جراثيم الحمى التيفية . فان طنجة ، المغربية واليهودية ، تعاني من تراكم الرمول في مينائها ، وليست كاذبلانكا سوى مرفأ طبيعي خطر ، وموغادور ينزح عنها سكانها . وما هو عدد سكان المغرب يا ترى ؟ لقد تراوحت التقديرات بين خمسة ملايين واثنى عشر مليوناً .

اصبح الاستقلال رهناً بزوال المنازعات بين الدول ، يقضى عليه بتخلي لندن عن معارضة احتلال المغرب .

يتضح من ثم ان اوروبا اخضعت الاسلام في افريقيا الشمالية والشرق الادنى والشرق الاوسط على السواء . ولكن الاسلام لم يكن اوفر حظاً في مواقعه الامامية سواء في الهند ام في ماليزيا ام في الصين أم في افريقيا السوداء .

التوصل الى الخاتمة

بين خطي السرطان والجدي : حضارات افريقية واوقيانية

على الرغم من امتداد شكل الحياة البدوية الراعوية بعيداً الى الجنوب من خط السرطان (اذ نشأه في مضاب الشرق المرتفعة وفي نصف الكرة الجنوبي) ، فان السكان ، ابتداء من السباسب والاحراج الملتفة الاشجار ، يولون في معيشتهم على جني السّجار وصيد الاممك والزراعة المتنقلة . وتساعد البيئة الطبيعية على نمو عوامل مرضية رهيبية : عوامل البلهرسياسا وداء الحيطيات ومرض النوم . وهناك نطاق آخر لاشكال حياة بدائية ، اعني به اوقيانيا التي تمتاز من جهة ثانية بمناخ اكثر موافقة للصحة . وباستطاعتنا ان ندخل في ارضيّات المحيط الكبير شطراً من الانسولند ، ولعكن هذه الاخيرة عرفت في العصور القديمة اشكال حضارة اكثر تطوراً نشأت في الاصل في آسيا الجنوبية وشوهدت حتى في مدغشقر . وبينما تدخل الاستعمار الاوروبي منذ القرن السادس عشر في الغرب ابي في اميركا الحارة ، ففي الشرق ، ابي في الارخبيل الآسيوي الكبير وفي المحيط الهندي ، لم يستول على الاراضي الاوقيانية ومناطق ما بين خطي السرطان والجدي في افريقيا الا في القرن التاسع عشر .

تأخر تطور الميثه
ما بين خطي السرطان والجدي

ان افريقيا ، المتراسة الرقعة والمتميزة بشواطئها تندر فيها المرافئ الطبيعية وانهار كبرى تعترضها الشلالات ، تفرض العزلة على الانسان بين الصحراء والغابة البكر . الا انها تتسع في نصف الكرة الشمالي حيث انبسطت منطقة بورية موازية لتلك التي لمجاور المتوسط : هذه هي منطقة (الساحل ، الجافة التي تمتد من مصاب نهر السنغال حتى للبحر الاحمر وتغلب فيها تربية المواشي . ويتواجه فيها او بالاحرى يتداخل فيها عالمان : العالم الابيض والعالم الاسود ؛ من جهة البربر والعرب

تقدم الاسلام
والنخاسة في افريقيا

والهاميون - سواء تأثر هؤلاء بالحضارة السامية أم لم يتأثروا - ، ومن جهة ثانية الزوج السودانيون . « فبلاد السودان » هي بلاد السود في نظر العرب وتقابلها « بلاد البيضان » . وغالباً ما تنازع الساحل هذا الشاليون المقيمون وراء الصحراء والجنوبيون سكان السباب . وتؤدي طرق القوافل التي تصل بين اواسط افريقيا والشاطيء المتوسطي الى تومبوكتو وكانسو وكوكا حيث تنتهي كذلك المسالك المؤدية اليها من خليج غينيا . ولا وجود خارج هذه الطرق ، بموازة خط الطول ، وابتعد الى الشرق ، سوى الطريق المؤدية من البحيرات الكبرى باتجاه النيل والبحر الاحمر .

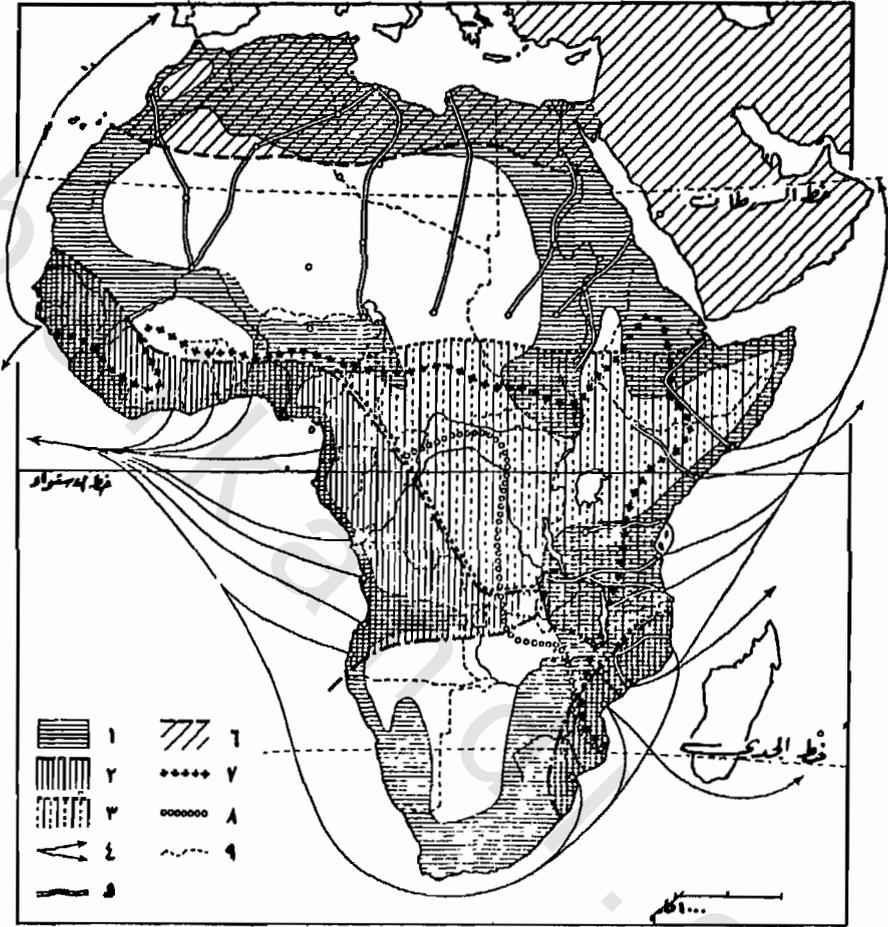
يبدو الاسلام في هذه المنطقة وكأنه واسطة نقل الافكار والتجارة والانظمة السياسية . فقد اجتاز الصحراء مع القوافل ولم يتوقف الا عند تحوم السباب والغابات ؛ وتسلق كذلك الهضاب الشرقية انطلاقاً من البحر الاحمر والمحيط الهندي . انه موجود حيث يسيطر النظام الراعي؛ لأنه لم يتعرض للايمان بالارواح الذي دان به الحضريون المنزولون في السباب والغابات . يستخدم الجمل ، ولكن ما يكتشفه او يجده ثانية في السنغال وعند منعطف التيجر وفي تشاد هو الحصان، خير مساعد في اعمال الفتح . هدي ويكيد ويكتسح وينظم الامارات والسلطنات السريعة الزوال . وينتزع من قلب القارة السوداء العبيد الذين يتجر بهم .

بينما كانت تجارة اللحم الشري توفر للمسيحيين وسيلة لاستثمار العالم الجديد ، كانت تغذي اسواق المغرب والشرق الادنى الكبرى ؛ وكانت من جهة ثانية بمثابة حافز للتوسع الاسلامي وانتشار روح الحرب المقدسة معاً بين السنغال وزنجبار ، كما كانت توفر للاسلام مورداً ثميناً لسيطرته السياسية . انها لامبراطوريات اسلامية قوتها في عصبيتها الدينية ، ولكنها امبراطوريات استرقاقية . وحين وافقت اوروبا الرأسمالية والانسانية على إلغاء الرق ، الذي لم تطو صفحته الهزبية الا لتفتح صفحة الحسابات الاستعمارية من جهة ثانية ، قوضت الدول الاسلامية وألغت الرق معاً . ولكن الرقعة الواسعة التي انتزعت من القرآن بقيت في الحقيقة تحت سيطرته .

ان الصحراء الكبرى التي تقارب مساحتها 8 ملايين كيلومتر مربع لم تخل يوماً من السكان . فالبعض يجتازونها من طرف الى اخر والبعض الآخر يستقرون فيها . وهي شعوب افريقيا الشمالية الاسلامية التي كانت لها الغلبة فيها في النهاية بفضل تفوقها العسكري وعصبيتها الدينية وتنظيمها الذي اعددها للقيادة .

الصحراء الكبرى الاسلامية
والنفوذ الفرنسي

ان الصحراء الغربية التي تأثرت اكثر من سواها بالاسلام كانت نطاقاً مغريبياً ، عربياً ، بيربرياً ، يسيطر فيه سكان الواحات المغربية الجنوبية من الناطقين باللغة العربية ، اي برابرة توات ونافيلالة ، الرعاة المتنقلون الذين كانوا يتنقلون ملح « تاوديني » الى تومبوكتو ويفنون احرام الامبراطورية الشريفة ؛ وإن الشيخ « ماء العينين » ، النخاس المنتسب لزاوية « شفتي » ، سوف



شكل رقم ٢٦ - افريقيا في القرن التاسع عشر

١ - المناطق المعروفة حوالي السنة ١٨٧٠؛ ٢ - حدود مناطق النخاسة القديمة (باتجاه اميركا وآسيا و٣ - حدود منطقة النخاسة في النصف الثاني من القرن؛ ٤ - الطرق البحرية للنخاسة القديمة؛ ٥ - طرق القوافل؛ ٦ - مناطق بيع الارقاء المنساقين برا؛ ٧ - حدود الاسلام؛ ٨ - حدود توسع المسلمين التجاري؛ ٩ - الحدود الاستعمارية.

يقف بقوة في وجه الفرنسيين ، اسياذ السنغال منذ « فيدرَب » ، الذين سيستولون على ثروات في السنة ١٩٠٠ . اما في الشرق فقد اقام برابرة يتميزون ببشرة داكنة هم الـ « تيبو » او الـ « توبو » الذين تكلموا لغة سودانية وراقبوا طرقات طرابلس الغرب وفزان الى تشاد ونازعوا جيرانهم الطوارق « كل وي » منطقة المير وواحة بلما المشهورين بملاحاتها .

اما في وسط الصحراء فالسيد هو الطارقي ، المثلث الوجه ، الناطق باللغة البربرية ، المتغطرس ، الوحيد الزوجة ؛ تنعم زوجته بحرية كبرى ؛ ويعرف هو القراءة ويعزف على الربة . يؤلف التحادات حربية تشرف عليها طبقة من النبلاء ويدفع لها الجزية اصحاب الاخاذات والفداديون وتستخدم الارقام العبيد في اعمالها . ولكل التحاد مرشده المتصوف . ولكن الاسلام ينحني امام وثنية لا تقبل التنازل عن عقيدتها ولا تعارض قيام علائق دائمة مع غير المؤمن . تسيطر جماعة الطوارق هذه على المسالك التي تؤدي من جنوبي منطقة هوران الى منعطف النيجر وتنازع شانبا المنطقة الرملية في جنوبي الجزائر - اعني بهم اعداءها الناطقين باللغة العربية - سلاسل الواحات التي تنتثر بين مجازات الاطلس الصحراوي وتيديكلت ، وقد تقدمت جنوباً حتى ادرار وضفاف النيجر حيث قوضت تومبوكتو وغاوو . ومارس هؤلاء البدو كلهم الغزو وتقاوضا « الغفازة » او الفدية . فلا عجب والحالة هذه ان يخيم الانحطاط على الواحة : تسلّم قورها وحبوبها وبقولها ودخنها (بشنة) ؛ وغالباً ما لا يبقى لها شيء يذكر لاستهلاكها الخاص .

حاول الفرنسيون اخذ الفتن بالقضاء على اللصوصية ، ويجدر بأهل الحضرة ان يشكروا لهم عملهم هذا . ولكن تحويل التجارة الى طرق اخرى وإلغاء النخاسة ألحق الضرر بالجميع . فان بعثة « فلانز » ، التي هلكت كلها ، كانت ضحية الدسائس التي حاكها لها النخاسون . وقد اخفق « فورو » ، بادىء ذي بدء ولكنه توفق الى احداث ثغرة في جبهة الطوارق واللحاق بـ « جولان - مينيه » و « لامي » في « تشاد » ، بينما اعترفت اتفاقية عقدت مع انكلترا بسيطرة فرنسا على كافة ارجاء الصحراء الكبرى . ومنذ ذلك الحين نادى بعضهم ببناء خط حديدي يصل بين افريقيا الشمالية وافريقيا الغربية . وفي سبيل استتباب الأمن في الصحراء انشأ « لابرين » وحدات هجامة من شانبا ، وفي السنة ١٩٤٠ ، كان الاتفاق مع مرشد هوجر ، المعارض لجهي الاثراك الى فزان ، فاتحة خير للهدنة في الصحراء .

قلب التدخل الاوروبي الوضع الذي أتاح للبدوي منذ القرون الوسطى استثمار الصحراء الكبرى . وكان مقدراً له ان يعطي نتيجة مماثلة في الساحل السوداني والسنغالي وفي السودان نفسه . ولكن القسم الاكبر من القرن انصرم قبل عهد الاستعمار . واذا كان الفرنسيون في قلب السنغال منذ الامبراطورية الثانية ، فانهم لم يدخلوا تومبوكتو الا في السنة ١٨٩٥ ، ولم يوقع على الاتفاقات الدولية التي حددت بمتلكات الدول الا في السنة ١٨٩٠ والسنة ١٨٩٨ .

في المنطقة التي لا تعرف سوى فصلين متباينين-لا يجاوز فصل الامطار ستة اشهر والامطار المتساقطة مترا - نرى النباتات تستبدل سياهها الصحراوية بسياه السباب العشب والغابات القليلة الاشجار . هنا تسود تربية المواشي المتنقلة . ويُستخدم الحيوان للنقل لا للزراعة التي تستلزم عملاً مرهقاً في تربة صحراء متحجرة . ويبدو الحضري مفتقراً الى التغذية بالنسبة للراعي الذي يعتمد في غذائه على الالبان . وعلى جوانب النيجر وفي تشاد يعيش بعض السكان من صيد الاسماك . ولا يزرع الارز الا حيث تتيح زرعه المياه . ويعبر السوداني الراعي الملح اهمية كبرى . وتنتقل السلع من يد الى اخرى بشكل مقايضة أو بواسطة الـ « كوري » ، وهي عمارة وحيدة المصراع تقوم مقام النقد . وتعطي البلاد ذهبها المسحوق للحصول على بارود الاسلحة النارية والاسلحة النارية نفسها . وتقايض الجلود والاصواف بنسائج قطنية . أضف الى ذلك ان عدد السكان ، حوالي ١٩٠٠ ، لا يجاوز المليون في السنغال والـ ٤ ملايين في كافة أنحاء السودان . ولا تجاوز الكثافة في ٢ و ٣ في الكيلومتر المربع : ولا عجب في ذلك بمد عهد توحيش طويل الامد مرده الفوضى المزمنة .

في هذه المساحات الشاسعة المفتوحة تتجانب افريقيا البيضاء وافريقيا السوداء ؛ ولكن التخليط بين اللونين مذهل جداً . فان الـ « هوسا » الذين تشبه لغتهم اللهجات البربرية ربما ينحدرون من أصل سوداني أو من أصل حامي طراً عليه بعض التحويل بمعاشرة السودانيين . أما أصل الـ « فولبا » (أو « قولبا ») فأكثر غموضاً أيضاً : فهم ساميون في نظر بعضهم ، أو حاميون في الارجح ، ولكنهم سود البشرة ويتكلمون لغة سودانية ؛ عاشوا حياة راعوية واعتنقوا الاسلام وتنقلوا ابداً من مكان الى آخر وتسلبوا الى مواطن سوام من سينغمبيا حتى تشاد و « ادأموا » ولعبوا دوراً كبيراً في السباق الى السيطرة .

أسهمت النخاسة في صهر الشعوب وادت في الوقت نفسه الى نهكة البلاد . فقد دانت لها المجموعات السكنية الكبرى بأهميتها . وفي كوكا ، من أعمال بورنو ، حيث شاهد « بارث » حرماً يضم ٧٣ غلاماً و ٥٠ فتاة ، ابدى احد المراقبين في عهد لاحق ان الفتيان الذين قتراوح سنهم بين ١٠ سنوات و ١٥ سنة مرغوب فيهم جداً وان الفتيات البالغات يُبعن بـ ٢٥٠ و ٥٥٠ فرنكا . ويروي رحالة آخر ان النخاسين في قرى « فواتجالون » يتصرفون مع الاسرى تصرف سائقي الثيران مع القطعان . ويمادل ثمن الحصان ثمن ١٥ الى ٢٠ شخصاً . وهناك ما يحملنا على الاعتقاد بأن النخاسة تفاقم خطرهما في هذا الجزء من افريقيا بعد التدابير التي اتخذها الاوروبيون لمنعها في جهات المحيط الاطلسي . ومهما يكن من الامر فانها دعمت قوة الزعماء المطلقي السلطة من امثال « ساموري » في منطقة النيجر و « رباح » في « أواداي » . فان ساموري قد جند جيشاً من بين أبناء الاسرى ، الـ « سوكا » ، أو الاتكشارية الجدد .

حجب الاسلام المعتقدات القديمة دون ان يحل محلها . فهنا لا يكاد رجل الدين يتميز عن ساحر القرية ، وقد اضطر في غير مكان ان يتخلى عن سلطته للشاعر الموسيقي المتنقل . ولما

كان الطقس الديني هو ما يؤمن التلاحم في المجتمع الأسود ، أصبح للجمعية الدينية شأنها الكبير . ولكن بينما حال كهان عبادة الارواح في اغلب الاحيان دون ارتقاء الزعماء المحليين (اثنان في فوتا يختاران عن قصد من بين العائلات المتنافسة) ، كان بمقدور الجمعية الدينية ان تثير حركات كبرى بين المؤمنين الذين يستجيبون لنداء الملمين ، فيهبون للحرب المقدسة وللسلب والنهب أيضاً . فبات كاهن عبادة الارواح حينذاك امير المؤمنين . واستال بسهولة قبائل البدو الخيصة على جوانب الطرق التي تسلكها القوافل والحجاج والنخاسون . فحدثت من ثم تجمعات ضمت بعض الشعوب ، وليس لمعظم محاولات تأسيس الامبراطوريات ، بين الصحراء والسباسب ، مصدر آخر وتفسير آخر . فبين السنغال الاعلى وغامبيا حاول الزعيم الديني محمدو الامين قيادة الـ « ساراكولي » ومثل الحاج عمر السنغالي جمعية التيجانية الديمقراطية النزعة ؛ واذا هو بسط سيطرته على فوجالون على حساب القدرية ، فان شيعة المورين المتفرعة عن هذه الجمعية الاخيرة قد ثبتت اقدامها في « كايور » بقيادة « احمدو بامبا » ونسيبه « لات ديور » . فقاتل الفرنسيون هذا الاخير وردوا الحاج عمر نحو النيجر . ولكن هذا الفاتح ترك خليفة واصل سياسته وعمله هو ابنه احمدو الذي قاوم الفرنسيين حتى السنة ١٨٩٣ . وفي غضون ثلاثين سنة تقريباً اسس الساراكولي « ساموري توري » ثلاث أو اربع امبراطوريات : انطلق من اواسولو فحاول السيطرة على ضفتي النيجر فوق تومبوكتو وهدد كذلك البلاد الموسية الباقية على وثنتها ولم يمن بالهزيمة الا في السنة ١٨٩٨ . والى الشرق من النهر الكبير ، انهارت الدول الهاوسية ، التي عرفت من قبل بعض الازدهار ، امام هجمات الفولبا بقيادة احد حلفاء الحاج عمر ، « عثمان دان فوديو » ، الذي اصبح شيخاً في كانو وامتدت سلطته حتى الكامرون الحالية . ونعمت سلطتنا سو كوتو وكانو ببعض الاستقرار ، ويبدو انها خضعتا لحكم عسكري استمر حتى الفتح الاوروبي : وفي مستهل القرن العشرين كانت هذه المنطقة السودانية اكثر سكاناً وأقل بؤساً .

كان حوض التشاد ، على نقيض ذلك مسرح قتال وحشي : نزاعات من اجل النفوذ بين البورنو والكانم والباغرمي الذين يتقاسمون الحوض ؛ ونزاعات من اجل طرق القوافل والملح والاسرى ، ولا سيما الطريق التي تؤدي الى كوفرا ومصر وشرقي ليبيا ، عبر اواداي . وفي اللوحة التي رسمها « ناشيفال » لاوادي ، يتكلم عن ازدهارها النسبي في كنف بعض الامراء العرب المطلقين الذين يهتمون بالمدارس والتجارة ، والنخاسة طبعاً . والحال كلما اقفلت طرق الصحراء الغربية ، انتقل النشاط الى الطرقات المؤدية الى البحر الاحمر . فحين اضطرت القاهرة الى الكف عن تجارة العبيد ، تحولت هذه الاخيرة نحو الطريق الرئيسية المؤدية من اواداي الى الخرطوم على النيل الاوسط عبر كوردوفان . وكانت ثورة الدراويش بمثابة جهد اخير بذله منظمو القوافل بغية الاحتفاظ بخط المواصلات الاخير بالشرق الادنى . وكذلك ، فهو احد النخاسين ، رباح ، الذي جعل من اواداي حينذاك مركزاً له لهذه التجارة وتوفق مؤقتاً الى السيطرة على مناطق التشاد . ولن تخضع اواداي اخضاعاً نهائياً الا في السنة ١٩١١ .

شعوب المناطق الفنية ما ان تظهر السبابس وتتكاثر الغابات ، حتى يصبح القطيع ، الذي يهزله المناخ ويتعرض للذباب الناقل مرض النوم ، غير كاف لتأمين معيشة الانسان . وعلى هذا الاخير ، بالاضافة الى ذلك ، مقاومة الملاريا والزحار ومرض النوم نفسه . ولما كان يفتدي بالاطعمة النباتية ، فانه يستهلك طحين السذرة الصفراء وطحين المنيهوت وزيت النخيل ، ويمجد في جوزة شجرة الكولا مادة منبهة .

لم يرتفع كل هؤلاء السكان فوق مفهوم المقاطعة الصغرى . ولكنهم تكلموا لهجات سودانية ، وقد اسس الغزاة الشماليون عدة ممالك دون ان يؤدي ذلك الى انتشار الاسلام .

وتقاسم الـ « موسي » والـ « اكانتي » حوض نهري الفولتا . وقد حكم الاولين ملك ذو سلطة دينية ، هو الـ « موغو-نابا » ، « سيد العالم » ، « ملك بلاد المختونين » ، الذي كان بمثابة مولى اخاذاة الـ « ناكومسي » النبلاء الذين يقدم وظائف وزارية وادارية . اما ملك الـ اكانتي فيرأس مجلس الزعماء ولا يطاع حقاً الا في مقاطعته الخاصة كوماسي :قاتل الحماد المقاطعات الصغرى المحرابة هذا الى جانب الـ « فانتى » ، سكان السواحل ، الذين ساندتم البريطانيين . وفي داهومي تعين السلطة الملكية زعماء القرى وتتصرف في جمعية « دو كبوي » التي تضم الفتيان والشبان المدعوين لدور قيادي . ويجمع الارقاء من بين اسرى الحروب التي كانت مورداً كبيراً لشعب متأهب ابدأ للقتال . فعلى كل محارب ان يأتي بأسير أو برأس جندي عدو مقتول . وتؤلف زوجات الملك والفتيات المكرسات لآلهة الحرب فرقة عسكرية من النساء .

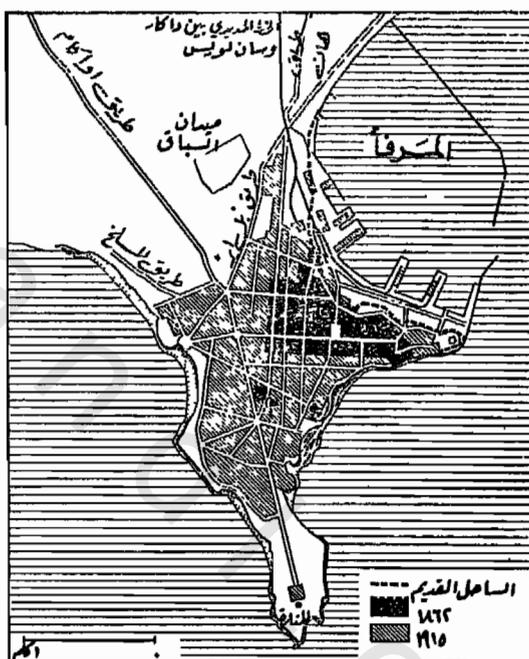
اقام الاوروبيون ، منذ زمن بعيد ، العلاقات مع زعماء هذه المناطق وملوكها . فكان هناك « شاطيء العبيد » و « شاطيء الذهب » و « شاطيء العلاج » بالاضافة الى « بنين » التي اشتهرت بمنتجاتها الفنية واضاحتها البشرية الشنيعة . فالذوق الجمالي هنا كان متقدماً عليه في السودان . وقد تمتت المصنوعات البرونزية والحزفية والاقنعة الخشبية والماجية والمقاعد المقوشة عين تقاليد قديمة في مهارة الصناعة اليدوية .

ان فتح المنطقة الشاسعة الممتدة بين الصحراء الكبرى والخليج غينيا - وهو عمل تطلب اجراء طويلاً - لم يكتمل الا حوالي السنة ١٩٠٠ . ولم تسو الخلافات على الحدود بين الدول الا بين السنة ١٨٩٠ والسنة ١٩٠٠ . فسارت كل دولة قدماً لمنع سواها من تخطيها ، حتى ان الحدود الاقليمية تعكس تقلبات الاستيلاء . وقد ارتكبت اخطاء كثيرة .

رأى « فيدربر » على الرغم من واقمته الماثورة ، ان ثروة المستقبل في السنغال هي القطن قبل فستق العبيد ، كما غرر نفسه بذهب بامبوك . وحاول تأمين الاتصال بالنيجر عن طريق الرموم الداخلية ، ولم ير الاهمية التي تنطوي عليها اسواق غينيا والشاطيء العاجي كقواعد انطلاق لبلوغ النهر .

في كافة أنحاء الساحل وفي السودان الاوسط ، كما شرح ذلك « غاليلاني » و « ارشيتار » ، كان من مصلحة المستعمر الاعتماد على الفلاحين و حمايتهم واختيار الكفلاء من بينهم . وكان فيدرب اول من سار على هذه السياسة التي تضحى بالبدوي كما في الجزائر . يضاف الى ذلك رسوخ الارتياح بالرعاة المسلمين الذي يرد جزئياً الى القتال المرير الذي دار بين المستعمرين وبينهم . ومع المستعمرين جاءت الارساليات ، الكاثوليكية والبروتستانتية ، فنازع الصليب الهلال السكان المخضعين . « انها حرب صليبية حقيقية » ، كما يلاحظ الملازم « مانجين » . و اشار « بنجر » ، مدير الشؤون الافريقية ، الى « خطر الاسلام » . ولكن فيدرب كان قد قدر الخدمات التي يمكن ان تؤدها الخواص الاسلامية .

قوض الاوروبي الدول ، فاضطر بالضرورة الى الاستعانة بالزعامات المحلية التقليدية . ولا يعني ذلك ان التجزئة الاجتماعية بحسب القرى قد سهلت تعيين سلطات مسؤولة . ولهذا السبب آثر البريطانيون « الحكم غير المباشر » واحترموا الزعامات القائمة جهد الامكان ، حتى ولو تطلب منهم ذلك تبرير بالنتيجة عدد الموظفين . وفكروا بحكم نيجيريا كما حكموا هند الامراء . اما الفرنسيون فآثروا تمثيل زعماء المقاطعات الصغرى بالموظفين ؛ ولكن البلديين كانوا « رعايا فرنسيين » ، واذا تمتعوا بجزية المعتد وكان لهم محاكمهم الخاصة احياناً ، فقد فرضت عليهم واجبات ثقيلة : حرمان من مغادرة المستعمرة وتأسيس الجمعيات والاجتماع ، ضرائب عينية وغرامات ، تسخير من اجل العناية بالطرقات ، دفع الضرائب ، والخدمة العسكرية وفاقاً لمقتضيات الحاجة .



الشكل رقم ٢٧ - نمو مدينة استعمارية : دكار
يرافق تصميم السنة ١٨٦٢ مشروع الحاكم « بينيه - لابراد » . تجدر الاشارة الى المكان المحفوظ للمدافن (م) وامتداد المدينة نحو رأس مانويل ؛ وفي الجنوب يشير الحرف ح الى العاكمة العامة (.
(نقلنا عن تصاميم اطلعنا عليها « ر . باسكييه » الاستاذ في معهد الدروس العليا في دكار)

عاد للدولة المستعمرة امر رفع مستوى المعيشة بتوفير الامن والنظام وتوزيع المهام على اساس سليم . ولكن الجهود استهدفت المزاروعات والمناجم التي يمكن ان تفذي التجارة مع الوطن الام . وعلى هذا الصعيد كان النجاح في الشاطئء الذهبي ونيجيوريا البريطانيتين اسرع منه في المستعمرات الفرنسية المفتقرة الى التجهيز : فاحتلت الاولى مركز الصدارة في انتاج الكاكو واستثمرت احراجها ومنغنيزها وماسها ؛ وسلمت الثانية كمية كبرى من الاخشاب وزيت النخيل . وعلى نقيض ذلك آلت سيراليون الى الهبوط منذ الغاء النخاسة وعاشت جمهورية ليبيريا السوداء في ضيق على الرغم من جهود الكنيسة المتودية . وكذلك عانت اقاليم غينيا والشاطئء العاجي وداهومي الفرنسية من نقص وسائل النقل ومن الافتقار الى الموانئء الحسنة التجهيز ومن تبدد اليد العاملة التي كانت تأنف من العمل المراقب .

واذا استفادت السنل من فستق العبيد ومن التجارة مع السودان ، واذا حسنت ذكار شوارعها الواسعة المحفوفة بالاشجار واعدت ميناءها للصلاح الاطلسية الكبرى ، فان الداخل النيجيروي ما زال متأثراً بويلات الحرب والجفاف ؛ وقد عقدت عليه آمال كبرى بمجولة . اما اقاليم تشاد فليست آنذاك سوى منطقة حدود عسكرية لن تعرف التهذئة الا في غدٍ قريب .

وقد لوحظ ايضا ان ارتيابات الوطن الام قسد ظهرت على الصعيد الاداري . فلم تكن السودان و « الانهار الجنوبية » في البدء سوى اقاليم ملحقة بالسنگال . كما ان افريقيا الغربية الفرنسية ، التي تكونت في السنة ١٨٩٥ ، ستعرف تغييرات كثيرة . اما « المناطق المنخفضة التشادية » فستلحق بافريقيا الاستوائية الفرنسية ؛ وهكذا سوف تفك حلقات التماسك بين مختلف اجزاء المنطقة الساحلية لان وجود انكلترا والمانيا حتى مشارف البحيرة الافريقية الكبرى سيقوض وحدة الممتلكات الفرنسية .

تتجه طرق دارفور واوغندا واثيوبيا كلها نحو مصر .
في السودان النيل؛ الاطباع المصرية
ولكن من يسيطر على مصر لا يسيطر على النيل ، ومنذ
وامبراطورية الدراويش
القدم كان الحوض الأعلى محط انظار اسباد الدلتا وغبسة

منهم في ضمان سلامة البلاد ومراقبة فيضان النهر .

في القرن التاسع عشر ، نشاهد اثناء ولاية محمد علي وخلفائه توسعاً مصرياً جديداً في وادي النيل الاعلى . ولم يصطدم الباشا الابقاومة ضعيفة ترد الى انحطاط الممالك العربية- الشيعيات وسنمار - في منطقة الشلالات الساحلية . ولكن الابتزازات الجبائية واحنكار التجارة وغزوات عملاء الباشا ما كانت لتسهل الاحتلال المصري ؛ فالنخاسون وحدم هم من استفادوا من هذه التصرفات لان محمد علي شجع النخاسة واسس مدينة الخرطوم لهذه الغاية .

وطمع اسماعيل بدوره ببسط السلطة الخديوية على كافة انحاء افريقيا الشمالية الشرقية . وقد آزره في تحقيق مطامحه بعض الاوروبيين من امثال الرحالة « صموئيل باكر » ، والجنسدي

المبشر « غوردون » الذي انعم عليه بلقب « باشا » ، ورحالة آخر هو « شنيتر » الذي اعتنق الاسلام وحمل اسم امين باشا ، ولكنهم بذلوا في سبيل ذلك جهوداً كبرى لم تكمل بالنجاح . فعين شعرت حكومة القاهرة بخخطر الافلاس يمدق بها ، اضطرت الى التخلي عن الاستفادة من النخاسة والى عزل حاكم بحر الغزال الذي كان هو نفسه نخاساً . واصبح السودان النيلي من ثم مسرحاً لثورة مهدي هائلة كان سببها العصية الاسلامية والغاء تجارة رابحة معاً . فصمد امين باشا عند النيل الابيض الاعلى ، في ولاية اكوatoria التي ارغمه ستانلي بعد ذلك على الجلاء عنها لمصلحة بريطانيا العظمى على كل حال . ولكن سيطرة الحديوي انهارت ، وتعذر على الانكليز انقاذ غوردون في الخرطوم .

على غرار امبراطوريات السودان الغربي ، رأت امبراطورية الدراويش ، وليدة البورات والقبائل البدوية المتعصبة والنخاسين ، النور وماتت في فترة زمنية قصيرة جداً . فقد عجزت عن استمالة السنوسيين والتغلب على مصر ، ولم تعرف بعض الراحة إلا بفضل انتصار احرزته على نجاشي الحبشة ، والحلاف الذي نشب بين هذا الأخير والايطاليين . وقد عانت البلدان التي اخضعتهما من الاوبئة والمجاعة واصابة كل تجارة بالشلل . أجل لقد بلغت الحركة اوداوي . ولكن الانكليز ، الموجودين في مصر ، توفقوا اخيراً في السنة ١٨٩٨ الى تنظيم حملة كشنتر التي هزمت الجيش المهدي وقضت على المطامع الفرنسية في طريق الكونغو - البحر الاحمر . فاصبح السودان النيلي ، باسم الحديوي ، السودان الانكليزي المصري .

في وسط المنطقة الجافة التي تتصل بالبحر في افريقيا الشرقية ، اثيوبيا ، تيودوروس ومنليك تنتصب الجبال الاثيوبية وكأنها خزان مياه وملجأ جبلي . وقد جاءت الموجة الاسلامية تضرب شواطئ هذه الجزيرة المسيحية فمجزت عن غيرها .

انها بلاد غريبة التقسيم الطبيعي ، كل واد فيها يعيش في عزلة بقيادة زعيم . لا تسلّم بالتضامن إلا امام خطر كبير مشترك . الارض ملك طبقة سيدي من الرؤوس سوداوية اللون ومختلطة الدم . يبرز بين حين وآخر رأس الرؤوس ، النجاشي ، الذي يتمتع بسلطة اسمية لا تجعلها فعلية إلا الحرب وحدها . ليس من فارق كبير بين خرافات هؤلاء المسيحيين القائلين بوجود طبيعة واحدة في المسيح وبين وثنية الـ « غالا » جيرانهم . تعدد الزوجات منتشر وشبه شامل ، وكل حبشي ميسور يقصر في عدد كبير من الخدام المنزليين .

البلاد تتمتع في معيشتها على مواردها القليلة ، ولكنها تجني الأرباح من مرور البضائع التي تنقلها القوافل بين افريقيا الوسطى والرافىء . وكان لنشاط الطرقات التجارية من ثم أثره في التاريخ السياسي . فبينما تقوم في مملكة امهرا مدينة غوندار ، ملتقى القوافل الهامة ، تلتهم الى تبغره المنتجات المنزلة الى البر في ماسوا ، والى شوا تؤدي طريق هرار . ولذلك تناقست هذه الرئاسات الثلاث تناقساً دائماً .

في اواخر القرن الثامن عشر ، اضعفت المنازعات بين الرؤوس طاقه الحبشي الهجومية فتراجع في كل مكان . ولكن نهضة تحققت في امهرا بفضل الرأس « كاسا » الذي نجح في إعادة جمع شتات الاراضي الاثيوبية وأعلن نفسه نجاشياً باسم تيودوروس ووضع سلسلة نسبه التي جعلت منه خليفة داوود ، ووجه رسائل الى القيصر يقترح عليه فيها ميثاقاً ضد الاسلام . وعندما استعان أحد منافسيه بالفرنسيين معترفاً لهم بحق الإقامة في اوبوك على شاطئ البحر الاحمر ، اعتمد تيودوروس على الانكليز . فكان ذلك منطلق التدخل الأوروبي .

عندما قاطع الانكليز على غير ترو ، عجز تيودوروس عن صد جيش بقيادة السير نابير وآثر الانتحار . فمقب ذلك عهد جديد من الاضطرابات استفاد منه الحديوي ، ثم الدول الاستعمارية ، للاستيلاء على الساحل الاريترى والصومالي . وحدث ان النجاشي الجديد ، « يوهانس » التفرغ الاصل ، قد لاقى حتفه في معركة ضد المهديين ، فوقع رأس شوا ، منليك ، بغية فرض نفسه ، معاهدة مع الايطاليين اعتبرتها روما بمثابة اعتراف بالحماية . ولكن هزيمة « عدوه » في السنة ١٨٩٦ قضت على مطامع « كريسي » .

بعد الاعتراف بالاستقلال الاثيوبي توصل النجاشي منليك بسرعة الى بسط نفوذ جبلبيه على سكان المناطق المتاخمة . الا أن اثيوبيا الكبرى التي حققها ما زالت محاطة بملكات الاوروبيين ، ولذلك نراها تفاوض فرنسا في أمر ربط عاصمتها ، اديس - ابابا ، بالشاطئ بواسطة خط حديدي ينطلق من جيبوتي ويمر بهرار . والواقع هو ان الجبال الاثيوبية لم تجتذب التيارات العصرية بل رفضتها .

الى الجنوب من خط وهمي يصل بين كامرون وزنجبار تمتد افريقيا البانتوية ونصب زنجبار البلاد البانتوية التي تختلف نماذجها البشرية ولهجاتها (١٨٢ على الأقل) اختلافاً بيناً عن نماذج ولهجات السودان وغينيا . ولكننا نرى هنا أيضاً ازدواجية المناظر الطبيعية وانواع المعيشة ؛ فمن جهة الحوض الكونغولي ، نطاق الاحراج والسباسب الكثيفة ، ومن جهة اخرى اطار من الهضاب الممتدة من افريقيا الشرقية حتى ال « فلد » الجنوبي والصالحة لتربية المواشي .

ان البانتو الذين يقطنون منطقة الامطار الغزيرة بين خليج غينيا والبحيرات الكبرى لم يخاطوا قط سوى الزوج البلديين المرتبطين الذين ربما دانوا لهم بالقوام الوسيط والوبر الكثير واللون الداكن . ولكن بانتو الغابات ، على نقيض هؤلاء الزوج الذين كادوا لا يعيشون الا من القنص وجني الثمار ، ولا يستقرون في مكان وينامون حتى في الاشجار ، قد اقاموا في قرى مؤلفة من اكواخ مستطيلة قنصوا في جوارها الحيوانات وتعاطوا زراعة متنقلة ، واستخدموا أداة بدائية شبيهة بالعصا تتيح لهم طمر البذار واستخراج البطاطا في الارض المحرقة الضيقة . وجعل منهم الجوع اكلة تراب احياناً ، كما ان الأمراض - الزحار ومرض النوم - فتكت بهم

فتكماً ذريعاً . وعلى مثال هذا الاقتصاد ، كان نظام المجتمع بدائياً . فلا حساب الا للتجمع العائلي وما يتبعه من زبن وارقاء . أما المسألة الكبرى فليست مسألة الارض بل مسألة اليد العاملة . ولم تضم الرئاسة الاقليمية سوى عدد محدود من القرى ؛ وهي تؤسس وتحمل وفاقاً للحاجات الآتية ، كملكية الـ « ماكوكو » عند الـ « باتيكي » مثلاً . وما كانت نشاطات بعض القبائل الخاصة ، كالنقل المائي ونقل المعادن ومعالجتها ، حتى ولا الاعتقاد بالارواح ، لتقوى على ايجاد سلطات سياسية اوسع امتداداً .

يسود الاعتقاد ان بانتو الغابات وليد التكيف . أما بانتو البورات فيجاور في الشمال الحاميين والعرب والاسلام ، وفي الجنوب البرتغاليين والبوير والبريطانيين الاوروبيين . ولعل نزوحه نحو نصف الكرة الجنوبي نتيجة تقدم الحاميين المسلمين ، الماساي والواهو (هؤلاهم « الآتون من الشمال ») ، الذين اقاموا بين البحيرات الكبرى والمحيط الهندي مصطحبين الثور ذا الحدبة والجلل ذا السنام . وبينما زالت من الوجود ممالك « لوانغو » و « لواندا » و « لوبا » في الحوض الكونغولي ، ولم تخلف مونوموتابا سوى ذكريات عظيمة ، ما زالت اوغاندا تؤلف اطار دولة اقطاعية الطابع .

جاء الـ « كافر » والـ « ماتابيلي » والـ « بازوتو » والـ « بتشوانا » يربون ثيرانهم واغنامهم وماعزم وحيرم في مناطق خط الجدي بعد أن ردوا الـ « هوتنتو » والـ « بوشيان » الى الوراء . وكما حدث في السودان ، تعاطوا زراعة الذرة البيضاء الى جانب تربية المواشي . وتنازعا الطرق البرية والمائية فيما بينهم . وفي اعالي الزمبيز استقبل ليفنغستون استقبالاً حسناً في اشارة تنظم غارات متكررة على جيرانها . وكان الـ « زولو » مهرة في استعمال الرمح والقوس والنبال محتمين بترس كبير من جلد البقر ، ولم يلبثوا أن قدروا فوائد الاسلحة النارية حق قدرها . وعند حدود « ناتال » و « فلد » اصطدموا بالبوير والانكليز الذين لم ينتصروا عليهم بسهولة .

كان الحدث الكبير ، من جهة المحيط الهندي ، التراجع البرتغالي امام هجوم عربي جديد صادف في الزمان تقدم الاسلام في داخل القارة الافريقية وانتقال النخاسة شطر الشرق . وقد برزت آنذاك قوة زنجبار التي نقل اليها امام مسقط عاصمته في السنة ١٨٤٠ . فظهرت مرة أخرى ميزات هذه الجزيرة الصغيرة الساحلية النادرة كموقع تجاري : وكان مقدراً لها ان تلعب ، لحساب سلطنة اسلامية ، دوراً مماثلاً لدور عدن وسنغافورة . فأدخل سكانها « السواحليون » المختلطو الدم (عرب وفرس وهنود وماليزيون) زراعة القرنفل . واهتمت كذلك بمحاصيل الداخل ومنتجاته ولا سيما النحاس والعاج . ولكن اعمال الارض ونقل المحاصيل تتطلب يبدأ عاملة وفيرة : وسوف تستحق زنجبار اسمها (زنج - بر أي بلاد العبيد) . اصف الى ذلك من جهة ثانية ان النخاسة قد اتسعت هنا اتساعاً بعيداً بفضل بيع الاسرى في اسواق المحيط الهندي الأخرى . وتجمع الشهادات كلها على الخراب الذي خلفته في المنطقة الممتدة بين « اوبنغي » و « كانانغا » . وقد اشار ليفنغستون الى القرى الكثيرة التي احرقها النخاسون والى النساء

المشروعات بسبب عجزهم عن اللحاق بالموكب . والتقى ستانلي في طريقه الوف الخلائق المتسارقة والمقطورة برقابها ؛ ووصف الزعيم البلدي باحثاً عنها في مخابثها وجامعاً إياها لحساب التاجر العربي ، على مثال « الشريف الانكليزي الذي يدعو ذويه لقنص ديك الخننج او لاصطياد الغزال بواسطة كلاب المطاردة » ؛ وأشار الى عملية سلب استهدفت ١١٨ قرية لم تسفر الا عن ٢٣٠٠ اسير . فأفقرت المنطقة على جانبي الطرق المؤدية من الساحل الى البحيرات الكبرى والحوض الكونغولي . وكانت النتيجة إبادة الفيلة وإفناء معظم السكان لسنوات طويلة .

بلغت زنجبار ذروة مجدها بين السنة ١٨٦٠ و ١٨٨٠ تقريباً . وقد بسط السلاطين حمايتهم على داخل البلاد حتى الكونغو والساحل البرتغالي ، وأقدم بعض الدول على عقد الاتفاقات معهم ، وبعض المؤسسات التجارية على تأسيس فروع لها في الجزيرة . الا ان إلغاء النخاسة ما لبث ان اصبحت فعلياً وقرع ناقوس نهاية زنجبار المتجربة بالزنج .

منذ السنة ١٨٨٠ عمدت الدول الاستعمارية الى تقاسم افريقيا الاستثمار الاستعماري لافريقيا البالتوية الوسطى و افريقيا الشرقية و افريقيا الجنوبية . فارتسمت نطاقات ثلاثة : نطاق فرنسي بلجيكي يضم مناطق الكونغو باتجاه الاطلسي ، ونطاق انكليزي الماني بمحاذاة المحيط الهندي ، ونطاق ثالث ابعد الى الجنوب يسيطر عليه الالمان ولا سيما البريطانيون . لم يكن الاوروبي يستطيع التفكير الا باستخدام عمل البلديين من اجل تحقيق مقاصده . وقد رغب في تبشير الزنجي بالانجيل وإنقاذه من الرق وإفهامه حسنات استثمار أرضه استثماراً مبنياً على العقل . ولكن ما هو السبيل الى إرغامه على مقايضة محاصيل بخسة الاسعار - المطاط مثلاً - بالملح والنسائج المرتفعة الاسعار ، والعمل في المغارس وبناء الخطوط الحديدية ، ونقل الاثقال ؟ فهو اما يردد بدون انقطاع « ميامي » (بلغ مني الجهد) و « كوكولو » (الرحمة) ، وأما يقر من العمل . وقد اعترفت جريدة التايمس في السنة ١٨٧٧ بأن « هذه الشعوب عنصر تصعب سياسته ... فهي تجهل الرغبات والحاجات المركبة التي تكون ما يدعى بالحضارة ، وان في ازعاجهم بدون داع في الحياة البربرية التي يعيشونها راضين وسعداء لمسؤولية كبرى » . اما « برازا » الذي حاول نهج سياسة تعاونية على غرار فيدرب ، فقد اقتدى الأرقاء وعقد الاتفاقات مع الزعماء ، وطالب بالحاح بان « تتحاشى الادارة العليا والتجارة العليا استغلال المستعمرة استغلالاً سريعاً ، ولما يعلم البلديون ما يريد منهم » . الا أنه لم يلق آذاناً صاغية ، كما لم تلق آذاناً صاغية نداءات ليفنغستون ايضاً . فقد تميز البلجيكيون والالمان بوحشيتهم . وندرج على سبيل المثال هنا ما أعلنه الدكتور بيترز : « يخضع الزوج لدوافع أو لبواعث تختلف كل الاختلاف عما تخضع له نحن . اذا ما اعطيت الزعيم الزنجي ثوراً ، فلن يلبث ان يحاول سرقة كل قطيعي . واذا ضربته بالسوط ، فانه يسرع الى اعطائي بعض الماشية » . فاستخلص من ذلك النتيجة الطبيعية التالية : « اذا احسنت معاملة الزنجي ، اعتقد بأنك تحشاه . واذا اسأت معاملته ، اعتقد بانك متفوق عليه » . ولذلك فان الهجة الأخيرة غالباً ما كانت السوط

المصنوع من جلد فرس الماء الذي درج البرتغاليون على استعماله . وحين لا يكفي الضرب والغرامات والسجن ، تؤخذ الرهائن وتمتقل النساء والاولاد في المسكرات . لقد سيطر على افريقيا الوسطى نظام استعماري لا يعرف للرحمة معنى .

استمرت مستعمرة انغولا وموزامبيك البرتغاليين في فقرهما وضيق عيشهما ، وبقيت النتائج غير مرضية في الممتلكات الفرنسية ، ولكن الكونغو البلجيكي والممتلكات الانكليزية الالمانية في افريقيا الشرقية عرفت نمواً اسرع حدوثاً . فقد انصرفت الدولة الحرة الى قنص الفيل اولا ؛ وانما توجب إيقاف التقتيل وحماية الجنس . ثم استثمرت الاخشاب الثمينة استثماراً وحشياً . وفي السنة ١٨٩٥ اندفع الناس وراء استخراج المطاط اندفاعاً جنونياً لم يدم سوى عشر سنوات تقريباً . ولكن عصر المناجم ارتسم في أفق كاتانغا و « اواليه » . اجل كانت الشبكة النهرية ذات منفعة كبرى للمستعمرة ؛ ولكن ذلك لم يمنع ستانلي من القول : « بدون خطوط حديدية لا تساوي الكونغو فلساً واحداً » ؛ فدشن في السنة ١٨٩٨ خط « ماتادي » الى « ليوبولدفيل » .

بنى الانكليز والالمان كذلك خطوطاً حديدية تنطلق من الساحل وتسير في طرق القوافل: واتجهت افكارهم الى شجرة البن والمطاط ، فأهملوا تربية المواشي ، ولم يهملوا المصايد الذي كان يوفر لهم ارباحاً هامة . وتصرفت « الشركة ذات الامتياز » تصرفاً مماثلاً في كلا جانبي الزمبيز : فبنت الخطوط الحديدية وعمدت الى قطع الاخشاب الثمينة واقتربت من كاتانغا وشرعت على حياها في انهاض « اساكل » الموزامبيك .

وعلى الرغم من التجاوزات الكثيرة ، فان النظام الذي فرضه البيض قد ادخل المناطق الافريقية الممتدة بين خطي السرطان والجدي في طريق اقتصاد جديد .

ان مدغشقر أكثر انتساباً الى الاراضي المتناثرة في المحيط
مدغشقر في عهد الهوفاثم الفرنسيين الهندي وحتى في المحيط الهادي منها الى افريقيا التي تؤلف هي جزءاً منها . وكان « وليم اليس » ، امين سر جمعية لندن التبشيرية ، وأحد الاختصاصيين في شؤون اوقيانيا ، بين الأولين الذين اشاروا في السنة ١٨٣٨ الى اوجه التقارب بين اللغة المالاغاشية واللهجات البولينية (اسم النارجيل واحد) . أما « غرانديدييه » ، الذي اتاح لنا بمؤلفاته معرفة البلاد معرفة جيدة ، فقد شدد في اواخر القرن على بعض اوجه التقارب بين سكانها وشعوب الهند الجنوبية . ولكن الواقع الذي سلم به الجميع هو ان معظم المفردات المستعملة عادة مالبزية المنشأ . وباستطاعتنا التأكيد من ثم ان الـ « مرينا » ماليزيون يتميزون بقصر القامة والجسم النحيل والبشرة الزيتونية اللون ، أتوا بعد كل من سواهم وحققوا التفوق .

تعرف المنطقة الغربية باسم « تحت الريح » وتتميز بالجفاف والترربة المتحجرة أو الكلسية واساليب الزراعة المهمة (تافي) وقلة الاشجار وتكاد لا تصالح الا تربية المواشي وتشبه القلد

الجنوبية : وهذا يفسر فقر الـ « سا كلاف » والقبائل البدوية أو شبه البدوية الأخرى التي تربي الثيران المهذبة . أما المنطقة الشرقية المعروفة باسم « في الريح » والتميزة بالرطوبة ، فقد حافظت على زراعات المناطق الحارة . وقد خلف العرب آثاراً في « سميرانو » ، الى الشمال الغربي ، وفي المناطق الجنوبية الشرقية الأهلية بالـ « تيمورو » (« الساحليون ») ؛ وكانت « دياغو - سواريز » ملجأ للقراصنة ، وأسس الفرنسيون « فور - دوفين » في القرن السابع عشر . وتشتت الـ « بتسيميساراكا » الحلاسيون في الغابات الساحلية وتعاطوا الصيد والزراعة وتربية المواشي واقتاتوا بالارز والامثام والاسماك وسكنوا اكواخا من الخيزران ولم يلعبوا اي دور هام . اما الـ « تسيمبتي » الذين اتقنوا الزراعة في جبال « تساناتاانا » فكانوا سائرين في معارج التقدم .

اشتهر بين السكان الـ « بتسيليو » والمرينا سكان المرتفعات والاحواض حول « تاناناريف » و « فياناراتسوا » . احسن البتسيليو الزراعة وبرعوا في الصناعة اليدوية وضموا أربع طبقات : الاقطاعيين والاشراف والاحرار والفدائيين ؛ وحين أخضعهم جيرانهم ، اصبحوا اشبه بفدائيي (« منتي ») المرينا . أما عند المرينا فقد اختلفت النماذج باختلاف الطبقة الاجتماعية : فالـ « اندريانا » او الاشراف زيتونيو اللون ، على غرار الهوفا أو الاحرار وعلى نقيض الـ « منتي » والعبيد أو « انديفو » . الارز قوام التغذية ، وليس للثور الاهمية الستي له في الغرب . البيت مصنوع من الخشب وحده في مدينة تاناناريف الملكية . وخلفت عبادات الارواح الكثيرة التي تتناول كافة اعمال الانسان آثاراً تذكر بآسيا . وقام رب العائلة بوظيفة كهنوتية ، وأدار مجلس القدماء (فوكون اولونا) شؤون القرية .

عدد سكان الجزيرة غير مرتفع ، وهو لم يتجاوز المليونين في الارجح (وان قدره بعضهم خطأً بثمانية ملايين) . ومرد ذلك الى انهم عانوا من سوء التغذية وامتحنوا بالملاريا في الشواطئ وبالبرص والطاعون وتمرضوا للزحار وذات الرئة ؛ ويبدو ان السفلس كان واسع الانتشار ، وسيتمسح كذلك فتك داء القول بفعل التجارة الاوروبية .

الا ان دولة هوفية تأسست مستهدفة السيطرة على انحاء الجزيرة . فقد توقع « اندريانا » نيميرينا ، في اواخر القرن الثامن عشر الى جمع المرينا واخضاع البتسيليو وتشكيل جيش وجباية جزية منتظمة بواسطة مجالس القرى . وكانت الارض ملكاً له يوزعها اقطاعات (مناكلي) على الاشراف الذين يشر بهم بالحكم ، فبنى سدوداً وطرقاً . ووفرت له لفدادية والرق اليد العاملة الضرورية . وقد صرح بما يلي : « يجب ان يكون البحر الحد الاخير لميزاتي » ؛ وأرسل الحاميات العسكرية الى المناطق التي أخضعها .

برهنت ملكية تاناناريف عن بصيرة ثاقبة حقيقية فعرفت زمناً طويلاً كيف تستغل التنافس الانكليزي الفرنسي وتستفيد من خدمات الاوروبيين دون التسليم بشروطهم . واذا تفوقت

الارساليات البروتستانتية على الارساليات الكاثوليكية - (بلغ عدد البروتستانت ٣٠٠ ٠٠٠ على الأقل في السنة ١٨٩٥ مقابل ٧٠ ٠٠٠ كاثوليكي - فقد عقدت بالمقابلة معاهدة مع فرنسا في السنة ١٨٦٢ . ولكن العهد الحاسم كان الفترة الممتدة من السنة ١٨٦٤ الى السنة ١٨٩٦ التي سيطرت عليها شخصية «رينيلياريفونا» الذي برز من بين صفوف الشعب واصبح رئيس وزراء الملكة «رازوهيرينا» ثم بملأ لـ «رانافالونا» الثانية و«رانافالونا» الثالثة. ففي السنة ١٨٦٨ ، بدا وكان الدولة الهوفية سائرة نحو الـ «ميجي» ، ع. - لي غرار يابان «موتسو - هيتو» ، وبمساندة بريطانيا العظمى التي استعين بضباطها وخبرائها الفنيين : اعتماد البروتستانتية كدين دولة ، فتح مدارس توفر تعليماً انكليزياً هوفياً ، احلال الموظفين الملكيين محل الاقطاعيين ، جمع الاعراف السائدة في مجموعات كاملة ، ومنع الاجانب من امتلاك الارض . فانتشرت الاخلاق الاوروبية انتشاراً بطيئاً ، ونمت الصناعة اليدوية وتقدم التعليم . ولكن الفداوية والرق لم يزولا .

ماكانت الحكومة الهوفية في الحقيقة لتحرز الغلبة لو نشب نزاع مسلح بينها وبين دولة اوروبية اخرى ، اذا لم يتدخل الانكليز لمساعدتها . والحال نشب هذا النزاع حين ارادت فرنسا وضع الـ «ساكالاف» تحت حمايتها . ففي السنة ١٨٨٥ ، وبعد فرض الحماية الفرنسية على تونس ، اضطرت تانانريف الى استقبال مقيم فرنسي . ولكن نظام الحماية اصطدم ببعض العقبات ، فتمت عملية «وضع اليد» بعد ذلك بعشر سنوات .

ازالت فرنسا نفوذ الميرنا وواصلت في الوقت نفسه عمل الملوك الهوفيين وانتدبت غالياني الذي اعتمد سياسة أشبه بالاستبداد المستنير . فبعد ان استخدم القوة بغية اخضاع البلاد نهائياً عمد الى استخدام النخبة البلدية باخضاعها لسلطة موظفي الوطن الأم ؛ وألقى الرق ، ولكنه فرض خدمة خمسين يوماً في السنة للاشغال العامة (وهو فرض سيحول الى ضريبة) ؛ وراقب تعليم رجال الدين ، ولكنه قنع بأن تعد المدارس موظفين للدوائر ؛ وألقى امتيازات الطبقات ، ولكنه لم يقو على عزلة الفرنسي وحواجز المجتمع . وليس من شك في انه رغب في معالجة نقص وسائل النقل وحماية الجزيرة من الاستعمار العقاري على ايدي الشركات الرأسمالية الكبرى ؛ وانما نظراً لندرة رؤوس الاموال ، لم يعد له استخدامهما في قطع الاشجار والبحث عن الذهب وانتاج البن بالتفضيل على تحسين الماشية وتوسيع زراعة الارز . فاضطرت مدغشقر من ثم الى استيراد الارز والعدول في الوقت نفسه عن ابتياع سكر جزيرة «ريونيون» القريبة ونسائجها المفضلة على نسائج الرافيا. وانشئت مدينة على النمط الاوروبي تحت العاصمة القديمة ، ولكن العمران في المناطق الاخرى بقي في حالة يرثى لها . وبحسب الظواهر كان الملقاش راضياً بنصيبه .

كانت « بوربون » و « جزيرة فرنسا » الجوهرتين الفرنسيتين
 في بحر الهند خلال القرن الثامن عشر في عهد « ماهيه دي
 لا بوردونه ». وهما تشابهان جزر الانتيل الصغرى بطبيعة
 ارضهما البركانية ، ومناخهما الحر والرطب - في كل منهما منحدر في الريح وآخر تحت الريح - ،
 وارتفاع كثافة سكانها .

في السنة ١٨١٥ احتفظت بريطانيا العظمى بالجزيرة الاولى واعادت لها الاسم الذي
 اطلقه عليها الهولنديون اكراما لـ « موريس دورانج » . الا انها بقيت فرنسية اللغة والروح ،
 ودانت بنجاح مفاارسها للادارة البريطانية والضمان تصريف سكرها في أسواق الوطن الام
 ولوفرة اليد العاملة الهندية . الا ان فتح ترعة السويس قد ألحق الضرر بتجارة « بورلوس » .

أما مصير جزيرة ريونيون فكان أكثر تقلباً . فبعد الازدهار الذي عرفته بفضل بن
 « بوربون » وقرنفلها نزلت بها كارثتان : اعصار السنة ١٨٠٦ والحروب الفرنسية الانكليزية .
 الا ان ادخال قصب السكر اثناء الاحتلال البريطاني أتاح تجديد الازدهار فيها . فبينما تأخرت
 زراعة شجرة البن والمحصر اخيراً في المهابط القائمة تحت الريح ، ازدهرت زراعة قصب السكر
 والونيلية في « مساكن » المنحدر المروي ، اعني بها تلك الاستثمارات الكبرى التي أدارها
 « القادة » . وقد انتج السكر بكميات كبرى على حساب المزروعات الغذائية والغابات .
 فتضاعف عدد السكان بين السنة ١٨٣٠ والسنة ١٨٧٠ . وانشئت طريق دائرية جديدة ، كما
 شرع في بناء خط حديدي دائري ايضاً ؛ وبنيت بعد حين خطوط خاصة صغرى تؤمن الوصول
 الى الاملاك المدرجة . ثم عانى قصب السكر من الحشرات الطفيلية ومناقسة السكر . فبدأ عهد
 المحطاط هذه الزراعة . وفشلت محاولة استحضار العمال الهنود الصينيين . فتضائل حجم التجارة
 التي تماطها هنود من بونديشيري وعرب وصينيون ومؤسسات ابداع اقتصر على بيع السكر
 من التجار في الخارج . فعم التشرذ ، وعرفت بعض المناطق داء التهاب الاوعية المفاوية وزاد
 انتشار الملاريا ، فتدنى عدد السكان .

خلال القرن التاسع عشر ما زالت الجزر المتناثرة في المحيط
 الكبير ممتبرة في نظر الاوروبيين وكأنها تؤلف عالماً خاصاً
 متميزاً بعزلته وغرابته نماذجه العنصرية : وقصد تضاربت
 عهد المرسلين والتجار وصيادي الحيتان
 في الباسيفيكي
 الآراء في اصول وتشابه « الزوج الشرقيين » - الميلانيزيين والمكرونيزيين - و« البرابرة البيض » ،
 اي البولينيزيين ، على السواء . فقد تكلم كوك من قبل عن « فينيقي العالم الشرقي » ؛ وتوسع
 بعضهم النزوحات البولينيزية انطلاقاً من مصر ، فطلعت احدى النظريات بأن هذه الشعوب انما
 هي بعض « اسباط اسرائيل النائية » . ومهما يكن من الامر فان هذه الحضارات ، على الرغم

من انسجامها الكلي مع البيئة ، لم تكن لتتجاوز مرحلة الحبر المصقول (١) .

وصف الرواد المستكشفون جنة عدن حقيقية ، فقصد هذه المناطق بمدم ، وفي وقت واحد ، رجال مقتنعون بأن هناك بشرية مستعدة لتقبل كلام المسيح وأشخاص آخرون عللوا النفس باستثمار موارد الأرض استثماراً سهلاً . أما الحكومات فوقفت موقفاً متحفظاً متحذراً ؛ فقد انتهى « غيزو » إلى العدول عن سياسة الحماية التي انتهجها أمير البحر « دوبي تواري » ؛ ولم يحتفظ الفرنسيون إلا بـ « تاهيتي » . أضف إلى ذلك من جهة ثانية أن المرسلين البروتستانت كانوا تواقين إلى إدارة شؤون البلديين بأنفسهم .

بدأ التوسع المسيحي في تاهيتي في السنة ١٧٩٧ بوصول الـ « دوف » الذي أرسلته الجمعية التبشيرية في لندن . ثم أسرع المبشرون ، في كل مكان تقريباً ، إلى محاولة استمالة الزعماء والتأثير بواسطتهم على السكان . فاصفوا بتحطيم الأصنام والإقلاع عن الاعتقاد بقديسة الأشياء واكل لحم الآدميين والحروب ، ودعوا كذلك إلى الإقلاع عن العري والوشم والرقصات الطقسية ، ونادوا بوحدة الزواج وعظموها فضول العائلة وفتحوا المدارس ؛ وهاجوا أحياناً ، في بولينيزيا ، امتيازات النبلاء . وفي جزر كوك ، أنشأت جمعية الرسائل رقابة تيوقراطية حقيقية ، جاعلة من « المساكنة خارج وقت الزواج » جرماً ، ومحظرة الخروج من الأكواخ أثناء الليل . وفي « غامبييه » اشتهرت السلطة العسكرية الفرنسية الأب « لافال » كمستبد « ضحكة » . فاهتدى بعض الزعماء خوفاً ، وارقد غيرهم احتياطاً . وفي أغلب الأحيان عمل البلدي بطقوس لم يدر كها جيداً . أضف إلى ذلك أن قديسة الأشياء قد استهدفت كسبغ غرائز شريرة تحورت الآن . فوهي تلاحم الجماعة وتشوش نشاط المجتمع . ولم تنس الرسائل من جهة ثانية واجبها في تأمين حاجاتها الخاصة ؛ فتماطت التجارة وجنت الأرباح من بيع الملابس والأدوات المعدة في الأصل لموعوظيها ، ولم تتوان عن جمع الثروات الطائلة عن طريق تجارة اللؤلؤ .

تدفق على الجزر مغامرون مختلفون كثيرون . فقد خطر لأحد التجار الأميركيين من مقايضي الفراء بالحري في الصين أن ينقل خشب الصندل ويعرضه على زبنة الآسيويين . واهتم تاجر آخر بـ « خيار البحر » الذي رغب فيه مترفوكانتون لمذاقه وخواصه الناعوظية . ثم لفت الانتباه عرق اللؤلؤ وعرضت النسائج القطنية والسكاكين والبنادق وعرق السكر ؛ وبلغ من بعضهم أن احتجزوا الرهائن إلى أن تسلم الكميات المطلوبة . وعانت كافة الجزر التي تكثرت صخور شواطئها تحت وجه البحر معاناة متفاوتة من الأصداف اللؤلؤية . ولم يندر أن استيق البلديون عنوة إلى السفن ملء الفراغ الذي يتسبب فيه داء الحفر في صفوف البحارة . وقد استفاد ملوك بلديون كثيرون من جشع البيض : كملك هاواي الذي ارغم رعاياه على إهمال المزروعات الغذائية وقطع خشب الصندل ، فأحدث مجاعة في البلاد .

(١) « تاريخ الحضارات العام » ، المجلد الخامس ، ص ٢٥١ - ٢٥٨ (الطبعة العربية) .

لم تكن زيارات سفن صيد الحوت للشواطئ أقل تسبباً في المصائب . فقد عمد بحارها الى المقايضة للحصول على المواد الغذائية الطازجة ، ولكنهم لم يمتنعوا عن اساءة معاملة السكان باغتصابهم النساء واختطافهم الرجال أو قتلهم اياهم . وهذا في بعض المناطق ، كجزر «سوسيتيه» وفيدجي و« مارشال » و« كارولين » ، التي لم تنهض قط بعد الولايات التي حلت بها .

بعد السنة ١٨٥٠ غادت اعمال السلب والنهب . فكان مضيق عهد المغارس والناجم في اوقيانيا « تورييس » بدورهِ مسرح اندفاع وراء الاصداف اللؤلؤية ، فأطلق عليه اسم مشورم هو « بالوعة الهادي » . ولكن اشكالاً استثنائية جديدة رأت النور ونمت نمواً عظيماً فاستتبع للجهود الشامل الى العمل الالزامي .

منذ السنة ١٨٣٥ ، لفتت جزر هاواي الانتباه بسبب السهولة التي توفرها لزراعة قصب السكر . فشترت بعض الشركات الاميركية الاراضي واستحضرت عمالاً صينيين ويابانيين وفيلبينيّين ، وبرتغاليين بعد حين . وولت جزر فيدجي كذلك وجهها شطر انتاج السكر بعد فشل زراعة القطن التي بنيت عليها الآمال اثناء الحرب الانفصالية .

ولكن اوقيانيا اعتبرت في الدرجة الاولى قادرة على انتاج جوز النارجيل ، وقد تكلم بعضهم عن حضارة النارجيل ، اذ ان هذه الشجرة تؤمن معيشة سكان الجزر ليس بتوفيرها غذاء وشراباً كحولياً فحسب ، بل مواد بناء البيوت والمادة الخام التي يستخدمونها في صناعة شتى الادوات ايضاً . وفي العديد من الجزر اعتاش البلديون من تقديم الجوز الى زعمائهم المتعاملين مع التجار . وبسبب نقص اليد العاملة في « ساموا » لجأت مؤسسة غودفروا الهامبورغية ، الى العمال الميلانيزيين والصينيين ، دون ان تحقق نجاحاً كبيراً على كل حال ؛ ولجأت جزر فيدجي الى جزر « سليمان » للحصول على اليد العاملة .

كانت الحاجة اشدّ إلحاحاً الى اليد العاملة لاستثمار باطن الارض . فبعد ان اكتشف صيادو الحيتان الغوانو في ألوف الجزر الصخرية ، المارية والمقفرة احياناً ، عمدت بعض الشركات الاميركية الى استخراج هذا السهاد الثمين : وتوجب لذلك الاقتراب من الشاطئ عبر الصخور الناتئة فوق سطح البحر ، وتأمين العيش بمواد غذائية تستحضر مرة كل ثلاثة أو أربعة أشهر من هونولولو أو من « ابيا » ، ونقل اكياس السهاد الى مكان رسو السفن؛ فوقعت ضحايا كثيرة جداً بين البولينيزيين لا سيما في جزر « فنيكس » . وحوالي السنة ١٩٠٠ كثرت الكلام عن الفوسفات في « نورو » و« اوقيان » حيث استحضر عمال يابانيون لاستخراجه . ويوشر في كاليدونيا الجديدة استخراج النيكل والكروم والكوبلت ، وقد اعاقه عداؤه « كاناك » الذين لم يسلموا كذلك باستملاكات الاراضي للمهاجرين الفرنسيين من أجل زراعة شجرة البن وتربية المواشي ؛ وفي اعقاب ثورة خطيرة نشبت في السنة ١٨٧٨ ، طُلب العمال الصينيون بواسطة بيوت القمار ومحاشش الافيون في هونغ كونغ وكانتون .

تقريص المجتمعات القديمة
واقفار اوقيانيا حتى
التقسيم الاستعماري

لا يرد تأخر تقسيم الجزر الى انتظار تقدم وسائل المواصلات واقامة
خطوط تجارية منظمة واكتشاف بعض الثروات رده الى ركود
الاحوال التجارية الذي حرك المنافسة والمطامع بين السنة ١٨٨٠
و ١٨٩٥. ففي السنة ١٨٥٠ كانت تاهيتي وحدها خاضعة لحماية، وحين

قررت باريس ضم كاليدونيا الجديدة اليها وقفت اوستراليا موقفاً معارضاً. ولم يقدم البريطانيون
بجاس على ضم جزر فيدجي. ورفض بيسارك مساندة مؤسسة «هانسن» التي اقترحت عليه
تأسيس مستعمرة في غينيا الجديدة. الا ان دخول المانيا الحلبة، عشية افلاس مؤسسة غودفروا
في جزر ساموا، هو الذي استعجل عملية التقسيم بين بريطانيا العظمى وفرنسا و المانيا والولايات
المتحدة. وكانت الدبلوماسية كافية لتنفيذ هذا العمل.

على غرار افريقيا ما بين خطي السرطان والجدي، عانت اوقيانيا الكثير من الولايات التي
حلت وفتكت بسكانها. اجل ان في تقديرات الرواد الاولين ما يشير الريبة؛ افلم يقدر كوك
سكان تاهيتي بـ ٢٠٠.٠٠٠ نسمة وسكان هاواي بـ ٣٠٠.٠٠٠ - ٤٠٠.٠٠٠ نسمة؟ ففي السنة
١٩٠٠ لم يتجاوز سكان هذا الارخبيل الاخير الـ ١٢٥.٠٠٠ نسمة، وما كان هذا العدد ليضم الا
٢٠٠٠٠ بلدي فقط. وليس من شك في ان اراضي كثيرة قد فقدت ثلاثة ارباع السكان، ان لم
تفقدهم عن بكرة ابيهم. وحين تنقلب النسبة فمعنى ذلك ان الهجرة تملأ الفراغ. فكما ات
اوستراليا (اوستراليا وزيلندا الجديدة) قد اصبحت انكلوساكسونية بعد انقراض التاسمانيين
والاوستراليين والموري، أو سيرهم في طريق الانقراض، كذلك جاء الخلاسيون والآسيويون
يميدون إعمار معظم الفرادييس الصغيرة المدنفة على الاقفار.

أجل لم يكن تدني نسبة الولادات حدثاً جديداً بسبب تضافر الحروب واكل لحوم البشر
والامراض على ايقاف انطلاقة ارتفاع عدد السكان. ولكن المهاجرين المستعمرين قد زادوا في
الطين بسة. فقد قتلوا الاهلين أو انهكهم بالاشغال الالزامية الشاقة او ابعدهم بأعداد
كبيرة (من اجل استخراج الغوانو، اختطف البيرويون والشيليون نصف اهالي جزيرة
« الفصح » وثلاثة ارباع اهالي جزيرة « نوكوليلي » في أرخبيل الـ « التيس »؛ وكادت ميلانيزيا
تقفر كذلك بسبب حاجة اوستراليا الى اليد العاملة). وباعوا اسلحة قتالة ومشروبات روحية.
واذا هم لم ينقلوا امراض السفلس والسل والتدرن الرئوي التي يرجح انها قديمة العهد في الجزر،
فقد نقلوا الجدري والحصبة بكل تأكيد. وقد أورد « لوتي » انطباع بشرية في حنالة
الاحتضار بسبب ما كان لجرده مخالطة البيض، وما جاؤوا به من مصطلحات واعراف ورموز،
من اثر المحلالي فاسد. وكان مقدراً كذلك لـ « غوغين » و « البدائي »، الذي جاء الى تاهيتي
يتوسل فيها « الانحطاب والهدوء والفن »، « غوغين »، « البربري » الذي حقد على حضارة مزعجة،
ان يعاني الكثير من الواجبات الثقيلة المفروضة على البلديين ومن الصفائح الادارية.

« لم تلبث حياتي في « بابيت » ان اصبحت وقرأ يضايقني . كنت مرة اخرى في أوروبا - أوروبا التي اعتقدت بأنني حصلت على حريقي بمفادرتها - وقد زادت على بشاعتها الاثره الاستعمارية والتقليد المضحك السخري لأخلاقنا وطرائقنا ورذائلنا والأعينا الحضارية التي تثير الاستهزاء ... » . فإين نحن من الاسطورة التاهيتية التي رواها بوغنفيل ، لا بل هل كان حرياً بنا الاكتفاء بتوصية ديدرو : « تاجروا معهم ، واشتروا منتجاتهم ، واحملوا لهم منتجاتكم ، ولا تقيدوهم » ؟

الفصل الثامن

الهند وآسيا الشرقية أمام التوسع الغربي

« كنت اعتقد آنذاك بأن السيطرة الانكليزية مفيدة
بالتتبع لأولئك الذين تبسط عليهم » .
(غاندي ، « اختبارات الحقيقة ») .

توزع نصف البشر على السهول - الكبرى والصغرى - من مناطق
الهند والشرق الاقصى في آسيا . لذلك كانت نسبة كثافة السكان
مرتفعة في بعض هذه المناطق المعروفة بمناطق الرياح الموسمية . فنحن
نعرف ، بفضل كتاب « احصاءات هندية » ، ان الكثافة قدرت في السنة ١٨٩١ بـ ١٥٣ نسمة في
كل كيلومتر مربع من الاقاليم الخاضعة للإدارة البريطانية و ٢٠٠ وحتى ٣٣٠ احيانا في
الكيلومتر المربع حيث يتجمع ٦٧٪ من السكان في ٣١٪ من مجموع مساحة البلاد . ويمكن
اعتماد الارقام والنسب نفسها في اليابان وجاوا وصين الولايات الـ ١٨ والمناطق الدلتاوية في شبه
الجزيرة الهندية الصينية . ويلاحظ من جهة ثانية ان ٢٢٢ مليوناً هندياً من اصل ٢٨٢ اقاموا في
قرى لا يتجاوز سكانها الـ ٢٠٠٠ نسمة . وهذا يعني ان سواد الآسيويين من اهل الارياف .

تتألف طبقة الفلاحين هذه في الدرجة الاولى من اهل قرار يتعاطون الزراعة ولكنهم يحقرون
- الا في اليابان - زراعة الغابات (لان الغابة نطاق بري) ويرفضون كل ما يذكر بالحياة
الراعية الخليفة بالبدو أو أشباه البدو في المناطق الجافة ، الذين تبعد عنهم تقاليد معيشية
راسخة . ويلاحظ ان سكان اشباه الجزر يقرون الجاموس والبقر الهندي في اعمال الحراثة
ويستهلكون زبدة منقاة ، ولكن سكان الهند لا يأكلون اللحوم . أما سكان آسيا الشرقية ،
الذين يربون الطيور الداجنة والختير - الذي يحرمه الاسلام - فلا يعرفون كيف تحلب البقرة

ويفضلون الاسماك . فنحن من ثم امام « حضارة نبات » قوامها غذاء من الحبوب والبقول وأدوات يكاد المعدن لا يدخل فيها : حضارة الارز الذي ينتج في كل مكان تقريباً ، وحضارة الحبوب الاخرى بعد ذلك ، وحضارة الخيزران الذي يستخدم استخدامات شتى . وبالإضافة الى ذلك ، اذا لم تجد تربية المواشي مكانا لها في هذا الاقتصاد ، فلأن هذا المكان ربما بسذا كبيرا جداً .

يرتكز كل شيء الى العمل البشري المضي . فزراعة الارز ، الشاقة بحد ذاتها ، تتطلب عناية فائقة . ولما كانت الارض نادرة وعزيرة وموضوع نزاع غنيف ومثقلة بالضرائب والمراية ومجزأة الى ما لا نهاية له (على العائلة ان تكتفي بـ ١٥٠ أراً في الهند ، و ٥٠ في اليابان) ، فإن و ٢٥ في كوريا ، وتبدأ الاملاك الكبرى اعتباراً من ٣ هكتارات في دلنا تونكين) ، فإن هذه الزراعة تصبح اشبه بعمل الحدائق الدقيق جداً الذي يتوخى الفلاح منه اكبر انتاج ممكن . ومهما يكن من مهارة الفلاحين ، فإن مثل هذا الصراع اليومي يجيء المفاجآت ويجر خيبة الامل احياناً . وهناك الحاجة الى الاسمدة التي تجعل من الدمال البشري مادة ثمينة في الصين . وهناك كذلك الصراع ضد المياه التي تأتي بالفيرين الخصب ، ولكنها تفسد الاراضي المزروعة (وفي اماكن كثيرة زاد قطع الغابات من خطر الفيضانات الخربة) : وقد حدثت ادهى كارثة في السنوات ١٨٥٠ - ١٨٥٣ حين انتقل نهر « هوانغ - هو » من مجراه الى مجرى « بي - تشي - لي » مبتلماً الوف الضحايا ومغفياً مناطق كاملة تحت طبقة كثيفة من الرمول . وتسببت الاعاصير اللولبية الهابة على السواحل والامواج المرتفعة المتلاطمة ، والزلازل في اليابان باضرار كبيرة أخرى دورية . ولكن مناطق الجذب القريبة في آسيا تترك أثرها الرهيب ايضاً . فسنوات الجفاف سنوات مجاعة في الصين والهند . وربما بلغ عدد ضحايا الاولى ١٤ مليوناً في السنة ١٨٤٩ ، وبين ٩ و ١٣ مليوناً في السنوات ١٨٧٧ - ١٨٧٩ بينا أتى الجراد بعد ذلك على مزروعات ١٣ ولاية من اصل ١٨ . أما في الثانية فقد نزلت البلية في مواعيد متقاربة : فقد اماتت أكثر من مليون نسمة في منطقة « اوريسا » في السنة ١٨٦٦ و ٤ ملايين في هند الامراء في السنة ١٨٦٨ ، وفتكت بـ ٢٠٠ الف رأس ماشية في « رادجبتانا » وحدها ؛ وحلت بـ ٤١ مليوناً هندياً في السنة ١٨٧٧ وأودت بحياة زهاء ٤ ملايين منهم ايضاً ؛ ولكن الفاقة شملت ٧٧٤ الف كيلومتر مربع و ٧٠ مليون نسمة في السنة ١٨٩٥ ؛ وفي السنوات ١٨٩١ - ١٩٠١ هلك نصف الاولاد الذين لم تجاوز اعمارهم ٥ سنوات في « بيرار » (وان بروكوفيف - وكان في سنه السادسة - ، الذي كان وقع ما حدث كبيراً عليه ، قد ألف حينذاك « القمص الهندي ») ، وفقدت المقاطعات المتحدة ٨٪ وولاية بومباي ٥٪ من سكانها . فلا عجب من ثم اذا ما توفق الفرنسيون ، في السنة ١٨٥٩ ، الى تجويع هوييه باحتلالهم دلنا ميكونغ حيث تتزود عاصمة « انسام » بالارز ، واذا ما أمل كوربيه باستسلام حكومة بكين اثناء حملة السنة ١٨٨٤ - ١٨٨٥ باعتراض طريق القوافل الآتية من كانتون . كانت التغذية نباتية وبالتالي سيئة جداً . وان الفسلاح في الصين

الجنوبية لم يستهلك الحنطة استهلاكه لا «كار - ليانغ» (نوع من الذرة البيضاء) ، كما ان فلاح الهند لم يستهلك الارز استهلاكه للجاورس أو لاصناف أخرى من الذرة البيضاء . واستهلك كذلك البقول المجففة التي تمشوا المعدة وتجنب اوجاعها . واعتبر الشاي ، على غرار الارز ، مادة بذخية احياناً . وقد استازم هذا الغذاء المتائل ابدأ ، العسير الهضم اجمالاً ، بعض التوابل وحساء البسل الصينية وحصية هضم الاسماك الذاتي المعروفة عند الفيتناميين باسم نووك - نام . وكان من المجمات الصيفية الدارجة طرح هذا السؤال : « هل تناولت الطعام ؟ » وقد وفر احتساء المشروبات الروحية وتسخين التبغ مزيداً من الانشراح ؛ كما وفر مضغ الفوفل والتبلل احياناً مستحباً . وقامت بين الهند والصين تجارة افيون رابحة .

بالاضافة الى سوء تغذيته ، لم يتوفر للاسيوي مسكن مريح . وقد يحدث احياناً في الصين ان تذيب امطار الصيف الغزيرة جدران مسكنه المبنية بالطين الجفف . وغالباً ما التهمت النيران في اليابان المساكن الخشبية الجميلة . أما الملابس ، وهو عادي اجمالاً ، فقد صنع في المنزل على العموم . وعاش شطر هام من السكان ، في المناطق الحارة ، مرتدين ثياباً رثة أو شبه عراة . وفي كل مكان شوهدت اعداد كبيرة من الزهاد والنسك والمتسولين . واذا كان البؤس من اسباب ارتفاع نسبة الولادات ، فانه يفسر في الوقت نفسه نسبة الوفيات المرتفعة ايضاً بين الاطفال وقصر الحياة . اصف إلى ذلك ان الأمراض التي يسهل انتشارها سوء التغذية وسوء التدابير الصحية تضم نتائجها الى نتائج المجاعة . فالكوليرا منتشرة ابدأ هنا أو هناك في الهند ؛ ويقدر بمضم انها فتكت كل سنة بـ ٦٪ من السكان بين السنة ١٨٨٢ والسنة ١٨٩٠ ؛ ولكنها غالباً ما انتشرت في الشرق الاقصى ، وحق في اليابان ، ايضاً . ولم يكن الطاعون أقل فتكاً ، بشكليته الدبيلي والرنوي ؛ فقد هلك زهاء ١٠٠ الف شخص سنوياً في الهند بين السنة ١٨٧٨ والسنة ١٨٨٧ ، و ٨٠١ الف في السنة ١٨٩١ و ٧٢١ الف في السنة ١٨٩٢ . وهو قد ظهر في الصين احياناً . وقد انتشر فيها انتشاراً واسماً بعد الحرب الروسية اليابانية . وغالباً ما انتشرت كذلك اوبئة التيفوس والحما التيفية والزحار والجذري . وسيطر الـ « بربري » (أو « كاكيه ») على المناطق المنخفضة بين ماليزيا واليابان . وحوالي السنة ١٩٠٠ اصيب ١٣ الف شخص بالجذام في الهند وأكثر من ٢٥ الفاً في الهند الصينية ؛ ولكن الصين كانت المركز الأول لهذا المرض . ويعتقد بعضهم ان الملاريا تسببت في البنغال بوفيات تفوق كل ما تسببت به كافة الأمراض السارية الأخرى ؛ يضاف الى ذلك انها كانت تعرض الاجسام للنزلة الوافدة . وهناك ، الى جانب هذه الأمراض كلها ، حيات فتاكة كثيرة .

رغب كل الناس في البيع بسبب نقص الوسائل النقدية . فقد امتلأت الطرقات بالفلاحين المترددين على الاسواق . وعوضاً عن استهلاك المواد التي لا تباع باسمار مرتفعة ، كان الفقير يعرضها بغية الحصول على بعض المال . وقد صرف ذهنه وفطنته في انتاج مصنوعات مختلفة لا تخلو من الذوق السليم . فانصرفت بعض القرى ، كما في الكونغو ، الى انتاج المصنوعات الجلدية ، بينما انصرف

غيرها الى صناعة المذارى والسلال والخزفيات والحدادة والحياكة . وكادت كل الأشياء تصنع باليد دونما حساب للوقت الذي تستغرقه صناعتها . ومهما كان من ضآلة المكسب ، فانه كان يوفر دخلا لا يستهان به . فهكذا أعد الشاي والتبغ وصنع الحرير في الصين واليابان ؛ وهكذا رأت النور المصنوعات التزيينية الكثيرة التي تم عن ذوق فني رفيع جداً . أما في المدن فقد تكدس العديد من الريفيين ، وتعرضوا للفاقة والامراض ، ولكنهم توفقوا الى الارتقاء احياناً بمزاولة الأعمال التجارية . ويجب اخيراً ان يخصى بالملايين اولئك الذين استخدموا ، كالحياوانات ، لنقل البضائع أو المسافرين بواسطة المركبات الخفيفة ذات العجلتين ، والنقلات الشراعية في الصين الشمالية ، والزوارق ذات المهاديف .

استمرار حالة الفقر والتزوحات الآسيوية؛ حاجات الاستثمار الأوروبية وجاذب العالم الجديد

كانت آسيا منذ القدم مستودعاً بشرياً كبيراً ، ومن ثم منطلقاً لتزوحات كثيرة : تزوحات النواقل باتجاه أوروبا والمتوسط ، وتزوحات سكان اشباه الجزر والأرخبيلات باتجاه جزر المحيط الكبير ، وتزوحات الصينيين الى الفلبين والجزر الماليزية . وخلال القرن التاسع عشر انقلبت الحركة في الجهة البرية ، ولكنها اتسعت على الطرقات البحرية ، في الوقت نفسه الذي تمازجت فيه حركة انتشار الأوروبيين وفتحت ابواب اميركا على مصراعيها امام الهجرة . اجل لقد واصل الغرب السيطرة على الجماهير الآسيوية ، ولكنه ، في الوقت نفسه ، اجتذب هذه الجماهير خارج مناطقها رغبة منه في معالجة حالة الفقر معالجة جزئية ، وجني مكاسب مهمة أيضاً . واذا لم يكن مرغوباً فيهم دائماً ولم يستقبوا استقبالاً جيداً ، فقد توزع المهاجرون الآسيويون ، من عمال مقترين أو تجار مهرة ، اما على ممتلكات الدول الاستعمارية ، واما على مختلف مناطق الأمريكتين . وهما إلغاء الرق ونقص اليد العاملة المحلية ما اتاحا لهم العمل بصورة عامة . ولما كان الهندي احد رعايا الامبراطورية البريطانية ، فقد بحث عن الإقامة في مستعمرات هذه الامبراطورية ما بين خطي الجسدي والسرطان : في جزيرة موريس ، أو افريقيا الجنوبية ، أو في الساحل الغربي من افريقيا ، أو في غويانا او في جزر المحيط الهادي . ولما كان الماليزي خاضعاً من جهته هولندا فقد طلبته للعمل في مغارس سورينام ، كما طلب الفيتنامي ، الخاضع لفرنسا ، للعمل في حقول ومناجم كاليدونيا الجديدة . وهي أوروبا التي فتحت باب الهجرة الصينية الكبرى بفتحها المرافئ الخمسة في السنة ١٨٤٢ بموجب معاهدة نانكين؛ وصادفت هذه الهجرة في الزمن عهد اضطرابات خطيرة في الامبراطورية السماوية . فمنذ السنة ١٨٤٦ ظهر العمال الآسيويون في كوبا والبيرو . ثم تضخم السيل وصب في اشباه الجزر والأرخبيلات القريبة في الجنوب الشرقي الآسيوي ، وفي جزر الباسيفيكي وشواطئ النائية . وما لبث ان اتجه شطر منشوريا بعد ان اعترض سبيله هنا وهناك . وظهر اليابانيون بدورهم في هاواي وكاليفورنيا وأستراليا ، على الرغم من نفورهم من مغادرة بلادهم

ولكن هجرة البؤس هذه لا تمثل سوى نسبة ضئيلة جداً من الجماهير الآسيوية . يضاف الى ذلك ان اكثرية المهاجرين قد سافروا على امل المودة وحافظوا على غريزة التضامن القومي .

ان جهود التقنيات ونقص الموارد يستتبعان ديمومة المؤسسات الاجتماعية التي
قوة التقليد تكرم بدورها التعلق بالماضي . فيصبح الرضى بتدبير الله الفضيلة السامية
الاولى . وقد قال « لاوتسو » : « ان من يكون قنوعاً يكون سعيداً ابداً » .

وتسهم حياة الجماعات ، الكلية القدرة ، في تغذية هذه الذمنية . فالفرد الخاضع لطبيعة لا يقوى عليها بسهولة ، يشعر بأنه ضعيف ومتروك لقواه وحدها . وهو لا يعيش الا بدلالة العائلة وبمجمية المفاريت المزلين ؛ ولا يقدم شيئاً على الاحترام البنوي وواجباته نحو اقربائه . ففي اليابان يكون الشخص « هي - نين » ، اي غير انساني ، اذا لم يلق بالقرية التي ولد فيها . والمسكن الجماعي هو الطراز المألوف لأنه يستجيب لرغبات التعاون على العناصر والاعداء . ومجد روح التعاون هذه في العمل الذي يغار على امتيازاته في المدينة والارياف على السواء . لا بل ان معظم الطبقات الهندية المغفلة ترتدي طابعا مهنيًا .

ولسلطة الدين تأثير مماثل . أجل ان الديانة الهندية تمر في أزمة . فالبراهما المثقفون ليسوا على اتصال بالجماهير التي يمتقرونها ، وتتساهل الطبقات الدنيا مع وثنية غليظة جداً حين لا تشجعها تشجيعاً . ويتميز سواد الملايين الخمسة من النساك والكهان الذين ضمتهم الهند حوالي ١٩٠٠ ، واعني بهم الـ « يوجي » ، بمخرقتهم وكسلهم . اما المعابد فتردان بمشاهد هجرية ؛ والمؤمنون يمسحون اجسامهم بزيل الابقار أو يشربون بول الحيوانات ، والحجاج يعبئون مياه الغانج الملوثة التي تطفو عليها جثث الموتى ، ثم ينشرون الاوبئة حيث يبرون . لقد عززت الديانة الهندية الطبقات المغفلة وشجعت الزواج في إطار الطبقة الواحدة وجملت من المرأة شخصاً متخلفاً وأقصتها الى الـ « زانا » . ولكنها حالت دون التبدل .

لا تدفع البوذية قط كذلك الى العمل لانها تعتبر الوجود شراً وتوصي بالحزم في الكفر بالمسرات الخادعة . تحمل على حياة التأمل والمحبة . أضف الى ذلك ان الشعب يكرم ارواح الطبيعة حتى في بورما وكمبوديا وسيام حيث تفوق الفرع المعروف بـ « هينايا نا » (المركب الصغير) ، وهو اقرب الفروع فلسفة الى فلسفة « غوتاما » غير الشخصية . وفي الصين تتفق بوذية الـ « ماهايانا » (المركب الكبير) - « فوكيو » في الصينية - مع سحر الـ « ين » والـ « يانغ » ، كما تتفق مع العبادتين الرسميتين الاخرين ، الـ « يوكياو » والـ « طاو - كياو » . وبينما تساعد الطاوية الانسان على تحمل المهانات ، تعين الكونفوشيوسية مبادئ الحكم البصير والضروري الذي تزيده السماء ويوافق التقليد . فلا حدود من ثم للسلطة الملكية لا في سيام ولا في كمبوديا . اما في اليابان فقد طابقت البوذية الخلق القومي : فان الـ « زن » الذي يرتدي طابعا صوفياً ومشهداً ، يتصل بالشتوية القديمة الشبيهة بمذهب الوهية الطبيعة والمنطوية على

عبادة الجود والآلهة الحماة الكثيرين ، بينما تنادي الكونغو وشيوسية ، خدمة للارستوقراطية ،
بالتفاني في سبيل الميكادو ابن الاله وموزع الاعمال .

لم تنجح أية ديانة من الديانات الآتية من الغرب في تحقيق السيطرة والنصر. ففي الهند اصطدمت
المسيحية بالطبقة المغفلة وبعبقدة الوهية الكون الهندية وبالمواقع التي استولى عليها الاسلام ؛ ولم
يجاوز تباعها المليونين في اواخر القرن التاسع عشر . وفي الشرق الأقصى اعتبرتها السلطات
خطراً ، ولم تتأثر بها الجماهير تأثراً يذكر . أما الاسلام فقد استمر في تقدمه في السهول حيث
بلغ مشايعوه ٦٠ مليوناً حوالى السنة ١٩٥٠ . ولكنه لم يتألق لا بعلم فقهاءه ولا بنقاوة ممارسته .
ومع تجنبه عبادة الاوثان ، تأثر بالديانة الهندية وسلّم بأمر كثيرة للعادات والاعراف المحلية .
واذا هو احتل المركز الاول في ماليزيا ، فإنه لم يفلح هنا أيضاً في ازالة الطغوس الهندية وعبادات
الارواح والحق الاندونيسي القديم .

ان آسيا هذه تنكمش على نفسها مادية وكارهة الاجانب . ولا يعني موقفها هذا انها
تريد حجب صورة عتيقة قد تحجّل منها ، ولكنها تحتمر « البربري » في سمو حكمتها .
فالأجنبي في نظرها كائن ادنى ، ونجس بصورة خاصة . والآسيوي يجيب الاوروبي والاميركي
الذين يدعوانه الى السير قدماً برفض تغيير حاله بالتطور .

اكّد اللورد « كورزون » في السنة ١٩٠٤ « ان السيطرة البريطانية في
الهند اعظم ما حققه الشعب الانكليزي ... سيطرة المعدالة التي وفرت
الامن والنظام والحكم السليم لقراية خمس الجنس البشري كله ... على
ايدي حكام لا يمثلون سوى عدد ضئيل بين الحكومين او بقعة زبد بيضاء صغيرة جداً في
خضم محيط قاتم وصاحب ... » .

ولكن الشؤون الهندية ما زالت في السنة ١٨١٥ بإدارة التاج وشركة من التجار معاً يرتبط
الحاكم العام بكلبيها ؛ وما زال كذلك وهم الامبراطورية المنولية قائماً . وسيدوم مثل هذا
الوضع الغامض حتى ثورة المهندين البلديين في الجيش البريطاني ، على الرغم من النفوذ الذي
ستتمتع به حكومة جلالته تدريجياً . انه لعهد امتد فيه الفتح البريطاني ، بحسب اتفاق الحاجات
الآنية ، وبدون تصميم ولا خطة ، الى كافة ارجاء شبه الجزيرة من جهة والى الاقاليم الشمالية
الغربية من جهة أخرى . وقد تحققت بفضل حروب دائمة ضد شعوب محاربة ، اسلامية بأكثريتها ،
كالمهرات والغوركا والسيخ . فأثارت القوضى والمجاعات والابتزازات على انواعها في انكلترا
ردود فعل قوية في الأوساط الاصلاحية والمنشسترية التي نسبت كل ذلك الى الشركة . اجل ان
مشروع « ماكولاي » التعليمي لتثقيف البلديين المعدين لتسلم الوظائف الهامة يمود لزمان فتح
خطوط الملاحة المنتظمة . ولكن نظام الهند لن يتبدل تبديلاً جذرياً الا في اعقاب ازمة خطيرة .
كان الحدث الحاسم من ثم الثورة التي اندلعت في اعقاب تمرد المهندين البلديين في الجيش

البريطاني في السنة ١٨٥٧ ، وكشفت الغناخ عن قلق عميق الجذور . فان إلغاء الرق نظرياً في الارياف بنية اخضاع الفلاح لضريبة ثابتة ، وغزو قطنيات لانكشاير الذي وجه ضربة قوية للصناعة اليدوية ، وزوال يد امراء كثيرين عاشت بقرهم البلاطات والميارة ، وإلغاء الاضاحي البشرية والانتعارات الدينية - نظرياً ايضاً - الذي صادف في الزمن اعتماد اختراعات «شيطانية» كالتلغراف مثلاً ، كل ذلك خلخل مجتمعاً محافظاً على التقاليد تنازلت الدعوة المسيحية من جهة والدعاة الرومانية المضادة والمقاومة الهندية من جهة اخرى . ثم جاء الاحجام عن تعيين خليفة للامبراطور المغولي الاخير ، والخوف من ارسال الفرق العسكرية الى القرم وخسائر الجيش البريطاني في هذه الحرب ، زيادة بالطين بلة . فنار بعض الجنود البلديين حين تسلموا البندقية الجديدة « انقيلد » التي كان فشكلها مدهوناً بشعم الخنزير كما يقول بعضهم او بشعم البقر كما يقول غيرهم . وقد أقض الامتحان مضاجع المستعمر الذي استخلص منه درساً مفيداً .

بعد إلغاء الشركة بموجب وثيقتي السنة ١٨٥٨ والسنة ١٨٦١ ، لم يمد الحاكم العام ، الذي اصبح نائب الملك ، ليرتبط الا بأمين سر دولة لشؤون الهند أطلق برلمان لندن يده فعمين حاكي مدراس ويومباي تعييناً مباشراً . وقد صدر التوجيه العام بعد ذلك عن الوطن الام ، ولكن ممثلي السلطة تمتوا بحرية كبرى في اتخاذ القرارات اللازمة محلياً . فاحتفظ الانكليز لأنفسهم بكافة المراكز العالية ونحلو للهنود عن الوظائف الثانوية في الادارة الاقليمية وفروع الادارة المركزية . وكان باستطاعة الهنود العمل في الادارة المدنية التي تتولى أعمال القيادة ، شرط احراز النجاح في امتحانات تجري في بريطانيا العظمى . واذا كان على الموظفين الاوروبيين معرفة لغات البلاد ، فقد كان من جهة ثانية على البلديين الموظفين في الادارة ان يدخلوا مدارس ثانوية توزع التعليم باللغة الانكليزية . ويتضح من برنامج ماكولاي ان المدارس الابتدائية لم تضم ، حوالي السنة ١٩٠٠ ، سوى ٤ ملايين تلميذ (نسبة الاميين بين الذكور ٩٠ بالمائة وبين الاناث ٩٩ بالمائة) ، بينما ضمت المدارس التكميلية والثانوية نصف مليون والجامعات اكثر من ٢٠٠ الف . ونظراً الى ان الضريبة العقارية هي التي تغذي الموازنة في الدرجة الاولى فكان ان الفلاح هو من يوفر المال لتعليم المثقفين الذين يتعاونون مع الدولة المستعمرة .

كادت الضرائب كلها توزع على الجماهير الريفية . وكان على هذه الاخيرة كذلك تأدية الرسوم غير المباشرة المفروضة على المشروبات الروحية والملح وتحمل ارتفاع الاسعار بصورة خاصة الناتج عن الرسوم الجمركية التي ألغيت لمدة وجيزة ثم ما لبثت ان فرضت مرة اخرى . ولكن تعهد الادارات العامة والجيش كان يستهلك اكثر من نصف الواردات .

ما زالت القوى العسكرية مؤلفة من عناصر بلدية يتولى قيادتها ضباط بريطانيون وتساندها فرق بريطانية . ولكن ثورة المهندسين البلديين أظهرت محاذير فقدان النسبة العددية بين البلديين والبريطانيين (كانت النسبة نسبة ١٠ الى ١) فخفض عدد البلديين . وانا صرفت العناية بالمقابلة الى اختيار المهندسين بالتفضيل من بين الشيخ والفوركا والبلوتش وحتى من بين افغانسي الحدود

الشالية ٥ ووضع الامراء البلديون تحت تصرف نائب الملك بين ٣٠٠٠٠٠ و ٤٠٠٠٠٠ رجل يتولى قيادتهم ضباط بريطانيون ويشتركون في المحافظة على الأمن ، ان لم يشتركوا في العمليات العسكرية الخارجية .

اذا نجح من ثم عدة آلاف من البريطانيين في ادارة امبراطورية واسعة ، فيجب الانسى ان الأجناس البشرية الكثيرة والمعتقدات الدينية المختلفة والطبقات الاجتماعية المغلقة واللغات المتعددة قد سهلت عمل المستعمر الذي عرف خير معرفة كيف يستفيد من هذا التنوع . فان الولايات التي اديرت مباشرة بمؤازرة موظفين بلديين كانت تحيط بالاقاليم التي استئسب الابقاء على ادارتها التقليدية . وشدت اسيا د هند الامراء هذه موثيق شخصية الى سيدهم الاكبر ، خليفة المغولي العظيم . فقد فازت فيكثوريا بلقب قيصر الهند ويمبن اخلاص اصحاب الاخذات .

ناهز عدد هذه الولايات الـ ٧٠٠ وبلغت مساحتها ١٥٠٠٠٠٠ كيلومتر مربع (مقابل مليونين للولايات البريطانية) وسكانها بين ٦٠ و ٧٠ مليون نسمة فقط مقابل ٢٨٠ (في السنة ١٨٩٠) . لم تدفع كلها الجزية ولكنها اعترفت كلها ببعض الأنظمة المتناولة الاخلاق وتنفيذ الاشغال العامة وجمع الضرائب وحرية التجارة . واحتفظت لندن لنفسها بحق التدخل في حال العصيان . وقد اصاب اللورد « مايو » حين قال : « ان الابقاء على الامراء البلديين في مراكزهم لا ينتقص من سلامة الامبراطورية بل يزيدا قوة » . ولذلك لم يرَ الوطن الام ضيراً في امتداح اخلاص اولئك الراجاوات الذين لم يجهل تمسكهم الكلي بصيانة امتيازاتهم . ولكن تبايناً مدهشاً يلاحظ بين هؤلاء الامراء : فالى جانب قوة وثروة ترافنكورو وكوشين اللتين تقدر دخولها السنوية بالملايين ، تظهر الولايات الـ ٨٨ التي تتألف منها منطقة كاتيفار مظهر غير مرض من الضعف والفقر . وقد راعت انكلترا بصورة خاصة شهامة سكان الجبال الشالية المتريبين المتحكمين بالمسالك المؤدية الى ايران او التيب؛ وصادقت امير كشمير السيخي الاصل وجندت من التيبال فرقا مشهورة بقيادة مهراجا من الغوركا واكتفت بإقامة مركز حراسة على مقربة من بوتان التي يتولى الحكم فيها احد عظماء اللاما . وجملة القول انها دخلت تقليد الحياة البطريركية والسلطة المطلقة الذي تتميز به كل سلطة قائمة . فاحتفظت من الماضي بما امكناها الاحتفاظ به .

استثمار الهند على ايدي البريطانيين
كاد المسكون بزمام السلطة لا يختلطون بالسكان . وقد اقام الانكليزي في مدينته الخاصة التي وفرت له ظروف حياة شبيهة

بها في الوطن الام . ففي كلكوتا برز الفرق الكبير بين « مدينة الطين » التي تكس البلديون في أكواخها وبين « مدينة القصور » — ذات الطراز اليوناني الجديد — مجداتها العامة الجميلة وشبكة اقينتها . وبرز الفرق كذلك بين « المدينة السوداء » الغير المرتبة في بومباي ، وبين مالابار هل ، « موطن السلطة والاناقة والثروة » ، التي أقصى عنها أثرياء التجار الفارسيين أنفسهم . وقامت كذلك دلهي الجديدة قبالة عاصمة الاباطرة المغوليين القديمة . وجهزت مساكن صيفية

في الجبال .

إلا ان هذا البعد بين الحكام والمحكومين لم يمنع الاول من إثبات وجودهم بإيجاد اقتصاد جديد يحترم أشكال النشاط القديمة ويوفر لها في الوقت نفسه فوائد هامة . فقد استوردت الهند من قبل شطراً هاماً من مخزون الفضة العالمي لأنها كانت تبيع أكثر مما تشتري إلى حد بعيد . ولكن السيطرة الأجنبية قلبت هذا الاتجاه رأساً على عقب : فالأمراء أدوا ضرائب كبرى ؛ وركلاء الشركة ، والموظفون من بعدهم ، قبضوا رواتب مرتفعة ، وجاءت البضائع « المصنوعة في انكلترا » تنافس المصنوعات الهندية بنجاح . فباتت الهند من ثم مدينة ؛ وتوجب عليها عقد القروض لتسد نفقات الوجود البريطاني ؛ واستثمر الوطن الام أمواله استثماراً راجحاً في أسواق حصل منها على منتجات متنوعة . اجل ان انخفاض سعر الفضة قد زاد من حجم الصادرات ، ولكنه زاد من ثقل الدين أيضاً . وهي الشركة البريطانية التي رفعت طيلة القرن مستوى معيشتها على حساب ملايين الآسيويين .

اعتبر اللورد لورنس بأنه اتى عملاً بطولياً بانتقاله من كلكتوا إلى دلهي في مسدة اسبوعين فقط . ولا عجب في ذلك اذ ان أحد أعضاء مجلس العموم قد أكد في حينه « ان حكوتية انكليزية واحدة مجهزة بطرقات مطروقة لا تتوفر للهند كلها » . ولكن شبكة صغرى رأت النور في عهد دالوزي ، فسهل وجود « طريق الخرطوم الكبير » بين البنغال وبنجاب قبح الثورة الكبرى . فالخط الحديدي كان لعمري خير أداة للدولة المستعمرة : اذ ان الراحة والسرعة والاسعار المعتدلة قد جعلت من الخطوط ، التي بلغ طولها ٤٠٠٠٠ كيلومتر في السنة ١٩٠٠ ، أفضل شبكة خطوط حديدية في آسيا . وزودت المرافء الكبرى بتجهيزات جيدة : فقد بني سد مثلابن اليابسة والجزيرة القائمة عليها بومباي .

كان هنالك شغل شاغل آخر هو مقاومة المياه والجفاف معاً ، اذ ان السدود والخزانات والاقنية القديمة كانت غير كافية وفي حالة سيئة . فتمت الحاجة إلى قناة توزيع في السهول الجافة . فأنشئ بين السنة ١٨٤٨ والسنة ١٨٥٥ ، على طول الف كيلومتر تقريباً ، الفرع الاول لقناة الفانج الممدوري ٢٧٥٠٠٠ هكتار . وأنشئت في عهد لاحق أقنية في البنجاب والسند املا من المسؤولين بأن تصبح يوماً امصاراً جديدة . ولكن اقامة السدود في وجه المياه في دلتا انهار شبه الجزيرة وسع كذلك المساحات الصالحة للزراعة . وقد اكتسبت الهند بفضل ذلك مليونين ونصف المليون من الهكتارات . اما في البنغال الكثيرة الامطار فقد توجب احتباس المياه . وفي دكان احتبست المياه وانشئت الخزانات . ودرجت من جهة ثانية امكانية استخدام الانهار للملاحة . وليست المقاصد المدروسة وحدها ما املى هذه الاعمال بل الحاجة الماسة الى محاربة المجاعات في الدرجة الاولى .

لا شك في ان المستعمر رأى فائدته في التخفيف من يؤس الفلاحين ؛ ولكن ما هدف اليه

في الدرجة الاولى هو تكثير ربيع الربيع ، الذي يمكن اضافته الى ربيع الخريف ، لان الربيع الاول يعطي الحنطة في الشمال الغربي و انتاج ارز ثانياً في المناطق الكثيرة الامطار : الا ان المواد الغذائية التي تستوقف الانتباه لا تغري السكان اغراء يذكر . فان المنتج الذي قد يصبح احد كبار ميارة القمح لا يحتاج الى مثل هذه الكمية لاستهلاكه . لقد مست الحاجة في المستعمرة الى السكر المتدني الاسعار ، ولكن رؤوس الاموال وظفت في مقاصب جزيرة موريس . ولذلك اعتبر الافيون اوفر نفعاً لان احتكاره يوفر للخزينة دخلاً كبيراً . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان المضاربة التجارية قد تحولت الى الشاي والبن في الدرجة الاولى : اجل ان الهندي لا يهوى قط هذه الاثربة ، ولكن بعض الشركات القوية استثمرتها في املاك واسعة واستخدمت لذلك يدأ عاملة وفيرة العدد وصدرتها الى اوروبا : واذا ما تأخرت زراعة شجر البن بعد السنة ١٨٨٥ ، فان زراعة شجر الشاي قد تقدمت تقدماً حثيثاً .

ليس ادعى الى الاسف من تأخر الصناعة البلدية امام مزاحمة المصنوعات الاوروبية . فبين السنة ١٨١٤ والسنة ١٨٤٥ هبط عدد النسائج المبيعة من ١ ٢٦٦ ٠٠٠ الى ٣٠٦ ٠٠٠ ، بينما ادخلت بريطانيا ٥١ مليون يارد بدلا من ٨٠٠ ٠٠٠ . وهبط عدد سكان داكا ، مدينة النسائج الناعمة ، من ١٥٠ ٠٠٠ الى ٣٥ ٠٠٠ . وكان هناك مادتان هامتان للنسيج : القنب الهندي والقطن . فأفاد الاول ، الذي صنعت منه أكياس الارز ، ليس من الحبوب المصدرة من بورما وجاوا فحسب ، بل من محول المواسم في الهند نفسها . اما الثاني فقد ارسخ ، منذ زمن بعيد ، شهرة البلاد ، وقد حققت الشركة ارباحاً طائلة ببيع النسائج القطنية العادية والنسائج الموصلية . ولكن انقلابا حدث منذ ان انتشرت الحياكة الآلية في لتكشاير . فأضطرت المستعمرة منذئذ الى بيع القطن الخام وابتياح الملابس . وعلى الرغم من قصر الالياف ودونية نوعها غزت شجرة القطن الاراضي السوداء حول بومباي بعد حرب الانفصال ، فاستهوت الفلاح الساهي وراء جمع المال واضرت بالزروعات الغذائية . ثم تمت صناعة الغزل الآلي بدورها بفضل التجهيزات المستوردة من انكلترا على الرغم من مقاومة منشستر الشديدة : وكانت هذه الصناعة ملك تجار اثرياء بينهم عدد كبير من الانكليز ، واشرف عليها اختصاصيون انكليز ايضا . اما القمح المعدني الذي استورد بجرأ من ذي قبل ، فلم يلبث ان استخرج من جوار بومباي وكلكوتا ، وقد وفر الوقود للقاطرات الحديدية .

اذالم نأخذ بعين الاعتبار سوى ارقام التجارة الخارجية ، بدت النهضة امرأ لا جدال فيه : فالمقايضات ارتفعت الى ٣ ٥٠٠ مليون في السنة ١٩٠٠ ، مقابل ٧٠٠ عند الغاء الشركة . ولكن الوصاية الاقتصادية تبرز في بيع حبوب باكثر من ٢٦٠ مليوناً ، بينما كانت البلاد جائعة ، وقطن خام ومنسوجات قطنية بـ ٣٠٠ مليون ، بينما هي اشترت نسائج بقيمة ٥٠٠ مليون .

لم يلبث سكان الهند ، الذين كانوا ١٠٠ مليون من قبل ، أن أصبحوا
 تطور الهند الاجتماعي وبقطة
 الرعي القومي الهندي
 ٣٠٠ مليون يؤمنون حاجاتهم الضرورية بصعوبة . انه لنمو مخيف
 بلغت نسبته ١٠٪ بين السنة ١٨٨١ والسنة ١٨٩١ مثلاً ، وستبلغ
 ١١٪ بين السنة ١٩٠١ والسنة ١٩١١ ، وان تدلت الى ١٪ بين السنة ١٨٦١ والسنة ١٨٧١ ،
 والى ١٦٪ بين السنة ١٨٩١ والسنة ١٩٠١ بسبب المجاعات الكبرى والوبئة الفتاكة . ولم تقو
 لا مقاومة البلايا ولا التقدم التقني بصورة عامة على تدارك ارتفاع عدد السكان المتزايد . أضف
 الى ذلك ان حال الفلاح لم يتبدل . فطرائق الاستثمار وأدوات العمل بقيت بدائية ؛ وانواع
 الحيوانات لم تحسن (وقد اوصى الاوروبيون بالآل يشربوا حليب الأبقار التي غالباً ما كانت مصابة
 بالسل) . ناهيك عن أن ثمن المساحة المزروعة فقط أعطى ريعين في السنة وعن ان ربع
 الاراضي الزراعية الجيدة والمهلمة فقط قد أعيد استثماره . ولم تفقد البلاد ، بفعل الهجرة
 والصناعة ، سوى نسبة ضئيلة من اليد العاملة ؛ واذا تقاضى عمال المشاغل والمعامل اجوراً متدنية
 (٤٠ و٠ فرنك الى ٧٥ و٠ للرجال ، و ٣٠ و٠ الى ٥٠ و٠ للنساء ، و ١٠ و٠ للأولاد المتراوحة
 اعمارهم بين ٥ سنوات و ١٢ سنة) ، فان العامل الزراعي المياوم كان اسوأ حالاً . وقد اعترف
 اللورد كورزون في السنة ١٩٠١ بأن معدل الدخل السنوي لا يتجاوز ٣٠ روبية أي ما يعادل
 ٥٠ فرنكاً .

على الرغم من أن الارض كانت ملك الدولة وأن المزارع يستثمرها لقاء دفع ائوة معينة ،
 فقد تكونت املاك كبرى منذ ان اسندت الادارة المغولية الى بعض الفلاحين (زمندار
 والتكدار) أمر جباية الرسوم وجعلت منهم كفلاء مسؤولين . وبعد ثورة المهندين البلديين
 صدرت سلسلة نصوص استهدفت تخفيف ادعاءات محتكري الاراضي . ولكن المستثمر الصغير
 (رايات واري) بات فريسة المرابي (مارواري) بعد تقدم الاقتصاد النقدي . فصدرت نصوص
 أخرى تحدد حقوق الدائن وتعفي من مصادرة المعدات الزراعية . إلا ان الزمندان والتالكدار
 الاقطاعيين ، والمرابين على انواعهم ، قد سيطروا في الواقع على الفلاحين الذين كانوا ابدأ تحت
 رحمة حصاد ميء .

سبق للورد بنتنك ان ثار على تضحية النساء المترملات وقتل الاطفال . ولكن « قانون
 الموافقة » الذي صدر في السنة ١٨٩٠ وحرّم الزواج قبل سن الثانية عشرة لم يعمل به قط ،
 واحجمت السلطات من جهة ثانية عن مساندة المصلح « مالاهايري » حين باشر حملته في هذا
 السبيل . وبغية تحسين حال الحجاج الذين كانوا يرتاحون من عناء السفر في الطرقات والساحات
 العامة ، فريسة التعب والجوع والمرض ، انشئت بعض المستشفيات ومحلات بيع المأكولات ؛
 وتحقق تقدم آخر بفضل السكة الحديدية . ونزولا عند طلب نقابات العمال وشطر من الرأي
 العام الانكليزي ، تقرر ت بعض التدابير لحماية العمال في السنتين ١٨٨١ و ١٨٩١ ، ولكن ارباب
 العمل لم يتقيدوا بها .

ان ما تفاخر به بريطانيا العظمى هو تحديدها قوانين الاحوال المدنية واصدارها قانوناً جزائياً اوروبي الطابع وإقرارها لجنة المحلفين في الدعاوى الجنائية وسماعها للهنود بالمظالم بلجنة مختلطة من المحلفين في الدعاوى التي يكون الاوروبيون اطرافاً فيها . لا بل رغب الهورد ريبون في ايلاء القضاة الهنود حق محاكمة الاوروبيين ، ولكن هؤلاء عارضوا ذلك .

لا مرء في أن هذا العالم المبرقش قد احرز بعض التقدم في طريق الوحدة . فقد حدث بعض الانصهار بفضل اتساع وسائل المواصلات الجديدة والنشاطات العصرية . وظهر بعض التجانس بفعل اعتماد المنتجات الأوروبية . ولم تفرض اللغة الانكليزية نفسها في الادارة وعالم الأعمال فحسب ، بل ان لهجات أخرى قد أخذت في الانتشار أيضاً كـ « غوجاراتي » في الغرب ، بفضل الفرس ، والهندوستاني (وكتابتها سريمة معتادة) في كل مكان تقريباً ، والـ « اوردو » التي تقابل الهندوستاني عند المسلمين . وأخرجت الصناعة من الذل بعض العناصر المنحدرة من الطبقات الدنيا ، فانفتحت الطبقة المغفلة بتلطف طابعها الديني ، وارتفعت أو انخفضت بدلالة دورها المهني . وبفضل المدرسة توصل العديد من الهنود الى تولي الوظائف العامة التي تستهويهم أو الى مزاولة الاعمال التجارية التي توفر لهم الثروات ، وألفت طبقة المثقفين الجسد (بايو) ، المنحدرة من اصل وضيع على العموم ، الافكار الأوروبية وابتقت المساواة في داخل الادارة المدنية . وكان المرسلون قد اسسوا الصحيفة الأولى باللغة الوطنية : فباتت الصحف تعد بالئات في السنة ١٩٠٠ ، وقد صدرت باللغة الانكليزية أو باللغات البلدية الرئيسية .

تفيدنا الاحصاءات وجداول ضريبة الدخل - التي أقرت في اواخر القرن - بأن كبار الملاكين العقاريين هم المعابد والاديرة والزمندار . فاذا مثلت الأجور نسبة ٣٠٪ من محصول الجباية ، فإن الدائنين والصارفة وكبار التجار يؤمنون ثلث هذا المحصول ، ويحدد دخل ١٣٤٠ شركة مساهمة ٥٧٥ مليوناً . وهكذا تمت الى جانب الراجا والنباب اللذين اضربها الفتح الانكليزي والتطور الاقتصادي نسبياً ، رأسمالية بلدية ، عقارية وتجارية وصناعية معاً ، اخذت تعي مصالحها .

ولا عجب من ثم اذا ما استهدفت اعتراض المستعمرة سياسة انكلترا الجبركية وانتقد « الحصرية » الجديدة ونظام الحماية المعكوس . فمئذ السنة ١٨٧٠ ، ارتسمت في الأفق حركة « سوادشي » التي هاجمت المصنوعات الانكليزية وعظمت الانتاج البلدي ، ولكن الاحرار المنشسترين ارادوا اطلاق حرية دخول المصنوعات الانكليزية الى الهند ومنحوا بالفضل امتيازات سياسية : فأقرت قوانين الحكم الذاتي المحلي التي بموجبها منحت المدن والنواحي ثم الولايات مجالس لتنتخبها الادارة والاعيان ؛ ثم انشأت لندن في السنة ١٨٩٢ ، الى جانب نائب الملك ، مجلساً تشريعياً يعين اعضاؤه بناء على اقتراح الهيئات الكبرى كغرف التجارة والبلديات ويتمتعون بصلاحيه درس الموازنة وطرح الأسئلة . أضف الى ذلك أن الحاجة قد مست الى مخالفة جمعية ، معروفة باسم المؤتمر ، اجتمعت للمرة الأولى في يومباي في السنة ١٨٨٥ وطالبت بتولي

الهند مراكز القيادة وبالمساواة القضائية وحرية الصحافة الكاملة ورقابة الموازنة الفعلية .

اعتقد البريطانيون زمناً طويلاً بأن الاختلافات الدينية وتعلق الجماهير بالماضي وانضمام المثقفين الى سياسة التعمان المخلص ستشل انطلاقة حركة قومية بلدية . وقد هوي عدد من المثقفين الهندو الأدب الانكليزي : فنظم « مدهو سودان داتا » الأشعار على طريقة بايرون ؛ وحل « داتا » آخر اسم « دات » واصبح استاذ اللغات الهندية في جامعة لندنت ونشر باللغة الانكليزية دراسات هامة حول حضارة بلاده . واشتهرت المدرسة الانكليزية الاسلامية التي اسسها السر سيد احمد خان في السنة ١٨٧٥ بانها تضاهي « اربعة جيوش » . وبذلت المحاولات كذلك في سبيل استغلال الاختلافات في داخل الديانة البراهمانية . فقد قوبل المتكلمون عن طرد الاجنبي ، لأنه يدنس مياه الفانج ويمنع تضحية الترملات ، بالمصلحين الذين استهوتهم الافكار الغربية . فلماذا التخوف من « براهما - سماج » ، شيعة « رام موهام راي » و« دبندراتا طاغور » الذين تأثروا برسالة يسوع فنادوا بمذهب الفساد الشامل الذي من شأنه التقريب بين المسيحيين والمسلمين والبراهمانيين وبتحسين مصير المرأة والغاء الطبقات المغفلة ؟ وكيف يجوز التشكي من شيعة « اريا - سماج » التي عين لها البانديت سارا سفاتي كذلك رسالة نبيلة هي تعليم الأخوة البشرية ، كأننا ما كان تعلقها بعبادات الجذود ؟ ومن جهة ثانية لم تبد صوفية راماكراشنا وتلميذه « فيفا كائندا » ، اللذين لم يتمسكا بمحرف العقيدة تمسكها بجزارتها ، اشد خطراً من وضعية « غوز » الذي رغب كذلك في « وحدة الشرق والغرب » ، أو من تصوف « ابي بزنت » . واذا كان رفض التعلق بالحياة أو اقله الزهد فيه قد تراجما شيئاً فشيئاً امام المحبة الفاعلة ، فيجب التهليل لمثل هذا التطور الذي حصل على مهل وعن غير قصد في الفكر الهندي .

بانتظار ذلك اصبحت المطالبات الهندية اعظم الحاحاً . ولا يعني ذلك ان المؤتمر الهندي قد حاد عن موقفه المتساهل : فالجماعات والابوئة اقضت مضجع الفئات النافذة التي تسيطر عليه والتي لا تطالب قط الا بمحفظها في ان يقال : « انا مواطن بريطاني » . ولكن حركة اشد عنفاً تمازجت منذ السنة ١٨٩٤ : فان « تيلاك » المنتسب الى طبقة براهمانية مقفلة ، والصحفي والخطيب اللاذع ، قد اسس جمعيات رياضية على غرار الـ « سو كول » ، وطالبه جهاراً بالاستقلال ودفع مناصريه الى الـ « سوادشي » وحقى الى الاغتيال . وقد اعتقد نائب الملك كورزون في السنة ١٩٠٤ ان باستطاعته التأكيد بخيلاء : « ان مهمتنا عادلة وسوف تستمر » . ولكن ذلك لم يحل دون صعوبات الغد التي ستواجهها السيطرة البريطانية .

بورما وماليزيا البريطانيان
حضنت امبراطورية الهند من الجهة الشرقية بسلسلة من الممتلكات :
جزر اندمان مع مينائها الطبيعي الكبير « بورت - بلير » واصلاحيتها
الكبرى للهندو والمسلمين والبوذيين ؛ وجزر نيكوبار الغير الصحية ؛ وارخبيل مرغي الذي
يتحكم ببرزخ « كرا » وساحل تناسريم ؛ وشبه جزيرة مالاكا وموقعها الهام ستغافورة ؛

واخيراً ساراواك الممتدة في طرف بحر الصين الجنوبي التي تراقبها انكلترا منذ استيلائها على جزيرة لابوان : واضيفت الى ساراواك « بورنيو الشمالية الانكليزية التي وليت عليها شركة ذات امتياز وراقبت ، بفضل سند كان ، الممر الكائن بين الفيليبين الاسبانية والانسولند النيولندية .

اذا ما نظرنا الى بورما من البحر لرأينا انها تضم دلتا الايراوادي الكبرى المشهورة بزراعة الارز وساحلا غنياً بشق انواع الاسماك . وجاورت البنغال من قبل مملكة بوذية اسسها «الوميرا» في القرن الثامن عشر ، فقرضت سيادتها على « اراكان » و « بيغو » و « تناسريم » وهددت « اسام » . وبعد حملة عسيرة ثبتت شركة الهند اقدامها في اسام ومانيبور واستولت على اراكان وتناسريم . ثم احتلت ، دون ان تصادف مقاومة ، بيغو المشهورة بالكاد الهندي الذي يستخرج منه صباغ قائم تصبغ به الاعمشة القطنية ، فتأسست من ثم بورما البريطانية . فانكفات مملكة بورما منذئذ الى الداخل ولم تتمتع بعد ذلك الابكيان مؤقت ، اذ ان الاستكشافات أثبتت اهمية المسالك المؤدية الى الميكونغ الاعلى والصين الجنوبية ، وغنى البلاد بالحجارة الكريمة وخشب النك : فكان الضم الذي حطم ، في السنة ١٨٨٥ ، محاولة «ميجي» واصطدام بمقاومة باسلة .

تضم بورما الجبلية ، بالاضافة الى « شان » و « كانتي » واليغويين ، عدداً من القبائل الوثنية . وقد استطاع البريطانيون الاعتماد على اليغويين و « كارين » للوقوف في وجه الكانتي عند الحدود الصينية و « الكارين » والمحرايين ؛ ولكنهم لم يحققوا التهدئة قبل توقيع اتفاقيات الحدود في السنة ١٨٩٣ . فوضعوا نصب أعينهم جعل الدلتا قادرة على تصدير الارز ؛ فست الحاجة الى طلب يد عاملة اضافية اتوا بها من البنغال ؛ فاصبحت رائعون من ثم احدى اهم اسواق الحبوب في آسيا الجنوبية . ونقل خشب النك الى « مولين » بواسطة الاثر التي نقل من قبل الى ضفافها على ظهور الفيلة . وفي جوار « ماندلاي » استخرجت الحجارة الكريمة وحفرت آبار البترول . وقد ابدى ليوتي هذه الملاحظة : « ما ان تحقق الفتح حتى بوشر العمل الجدي ؛ فبنيت ، انطلاقاً من المرافق ، مئات الكيوماترات من الخطوط الحديدية التي حاذت الايراوادي الى ابعد من ماندلاي وما لبثت ان اتصلت بكلكوئا . لم تضع دقيقة واحدة ، وقد طبقت الطريقة الادارية السليمة المتحننة على ايدي موظفين يعرفونها تمام المعرفة ولا يتلسون طريقهم ؛ فباستطاعة المهاجر المستعمر ان يأتي بعد ان أعد له سريره » .

ان شبه الجزيرة الماليزية ، القليلة السكان ، لم تلفت الانتباه بمرزاتها بقدر ما لفتته بمنازرها . فان استثمار النارجيل والتوابل قد تحقق منذ اوائل القرن بواسطة عبيد يباعون في جزيرة « بنانغ » ؛ ثم اتسعت زراعة قصب السكر وشجرة الشاي وشجرة البن ، فلجأ المسؤولون الى عمال هنود وسيلانيين . ثم تعرضت الاحراج لعملية نهب حقيقية . ولعكن ام حدث كان ظهور مناجم القصدير التي أمنت الشهرة لـ « مالاکا » . فتدخل البريطانيون حين حدثت الاضطرابات بين عمال المناجم الصينيين في « بيراك » ؛ وقضوا في الوقت نفسه على اعمال القرصنة الماليزية

في تلك الجهات .

وكانت جزيرة «بنانغ» التي احتلت في السنة ١٧٨٦ ، قد أثار اهتمام لسلي الذي سيرف باسم ولنتون ، فجددت « شركة الصهر المحدودة » تقنية القصدير في المعمل الذي كان الصينيون قد أسسوه فيها . ولكن سنغافورة فاقتها أهمية الى حد بعيد . فمنذ ان ابتاعها « رافلز » ، مثل شركة الهند ، من سلطان جوهور ، أصبحت قرية الصيادين هذه ، المحاطة بالمستنقعات والمياه ، سوقاً تجارية خارجية عظيمة تدفق عليها كل من تستهويهم التجارة ، والعمل في الزراعة والمناجم بموجب عقد اجار لمدة ثلاثمائة يوم . وفي السنة ١٨٦٩ احصى « لودوفيك دي بوفوار » في بروج بابل هذا ١٠٠ الف صيني و ٢٣ الف ماليزي و ١٥ الف هندي و ٧ آلاف جاواني و ٦ آلاف عربي وارمناً وفرساً ويهوداً ، وبضع مئات من الاوروبيين فقط . وقد بلغ عدد سكانها ١٦٠ الف نسمة في السنة ١٨٩٠ . وكان الناس يتجولون فيها بواسطة الحافلة الكهربائية أو « جنريكشا » اليابانية - كرسي ذو عجلتين يجره العامل الآسيوي الذي يضمنه هذا العمل . ومنذ السنة ١٩٠٠ اكتشف مصدر جديد للثروة هو مزارع اشجار المطاط التي اجتذبت رؤوس اموال كبرى وبدأ عاملة وفيرة . وبفضل هذه القاعدة البحرية ، راقبت بريطانيا العظمى مستعمرات المضائق القريبة من اليابسة وحلف الدول الماليزية الاسلامية المحافظة على سلاطينها وراجاواتها . فوطدت تفوقها ونفوذها بين المحيط الهندي وبحار الشرق الاقصى عند مداخل الارخبيل الاندونيسي الواسع الاطراف .

ان الارخبيل الذي اعادته بريطانيا العظمى لهولندا في السنة ١٨١٥ شعوب الانسولند يجمع بين العالم الاوقيانوسي وآسيا معاً . وهو يقوم بين خطي السرطان والجدي ويؤلف الى الغرب جزءاً من منطقة الارياح الموسمية ويضم الى الشرق جزراً عديدة اكثر جفافاً . وتتجاور فيه مناطق مكتظة بالسكان ومناطق شبه مقفرة وتجانب حضارات زراعة الارز المتقدمة التي يتعاطاها اهل القرار حضارات الشعوب البدائية المتأخرة . وقد جاءه الاسلام من آسيا واقتطع فيه مناطق واسعة كثيرة السكان ، ولكن التأثيرات البراهمانية والبوذية القديمة قد طبعت روح البلدان الانسولندية ولغتها وفنها وتنظيمها بطابع لايطمس ولا ينطمس .

هنا كما في كافة أنحاء آسيا القريبة ، تعاطى السكان البدائيون قطف الثمار والقنص والصيد . الا انهم تطوروا احياناً ؛ ونورد هنا مثل الـ « كو - بو » في سومطرا الذين تحولوا الى زراعة الارز . ولم يختلف نوع معيشة بعض الشعوب الاندونيسية اختلافاً كبيراً : كالا « باساب » في بورنيو مثلاً . ولكن معظم هذه الشعوب زاول اقله زراعة الـ « لادانغ » في الاراضي الحرجية المحرقة : هذا ما فعله الـ « داياك » في بورنيو الذين لم يؤمنوا معيشتهم من زوارقهم او من جمع محاصيل الغابات او من طحين نخل الهند ؛ وهكذا فعل كذلك الـ « باناك » في سومطرا الذين اهدى ربهم الى الدين المسيحي على ايدي المرسلين اللوثريين . وانتشرت في معظم المناطق

الجبليّة زراعة الـ « ساوا » المول فيها على المياه المخزنة ؛ وقد نهضت بها الجواميس في الغرب والثيران في الشرق ؛ ولكنها استلّمت نقل الفراس ونزع الاعشاب المضرة ؛ وثبتت الفلاح في ارضه : فعالباً ما بني المسكن على الاوتاد وتحصنت القرية . وانتشرت كذلك في كل مكان تقنيات صناعة الخشب اليدوية وصناعة الخزف وصناعة المذارى والسلال ؛ واشتهرت سفار الخناجر المعروفة بالخناجر الماليزية ومجوهرات سلطنة « بروني » في شمالي بورنيو .

الماليزيون هم الاندونيسيون المستوطنون الشواطىء الذين اختلطوا بالشعوب الاخرى وتطوروا بتأثير الحضارات الهندية والعربية والصينية ، والاوروبية اخيراً . اجل قد يحدث لهم ان يحبوا الارض ويمتوتوا بزراعتها ؛ ولكنهم يؤثرون البحر والتجارة والصيد وحتى القرصنة ؛ وينهمكون بشغف في المقامرة واللعب والمنبهات . ولبت الانتباه انك تجد في جاوا وحدها الامثلة الثلاثة ، سوداني الغرب الذي يناقض بطبعه الحشن جاواني الوسط الهادىء الكسول ، بينما يبذل المادوري الشرقي ، اليايس الطينة ، مزيداً من الجهد في العمل .

ان الحضارة الهندية الغنية بذكرياتها قد عرفت الديمومة في وسط جاوا بابنتها وشغل المعادن الثمينة والرقصات والمسرح « واجانغ » . وخلقت كذلك الطبقة المغفلة وروح الطاعة للراجا . وفي بالي حافظت الديانة البراهمانية على حرارتها التي جعلها الايمان المتأصل بالارواح اشدّ تحميساً وتهيبجاً . وقد تمتع العرب ، على قلة عددهم ، بنفوذ اكتسبوه من دين اصبح مسيطراً ومن مواهبهم التجارية . وقد وجدوا حتى في « المولوك » التي تصدر القرنفل والقرفة وجوز الطيب الى اوروبا . وهو اسلام غوجرات الذي انتشر في الجزر الكبرى . وكان له اشباعه المتعصبون في انجبه من أعمال شمال سومطرا وفي « بالمجارسن » من أعمال جنوب بورنيو وفي لومبوك . وقد واصل بنجاح نسي هدي الوثنيين . وأرسل الى مكة عدداً كبيراً من الحجاج وضم اليه المهاجرين الى الهند الاسلامية . وأقام سلطنات قاومت الاوروبيين مقاومة غير متمادلة . ولم يفت الهولنديين الاستفادة من هذه الامكانات .

ارتفع عدد الصينيين من ١٠٠ الف في السنة ١٨٠٠ الى ٥٠٠ الف في السنة ١٩٠٠ . وقد خشيمهم الماليزيون ، وغالباً ما زاحموا العرب في التجارة ، وكانوا وسطاء نافعين في اعين الهولنديين لاقامة العلاقات بالامبراطورية السهاوية ، فقتنوا املاكاً واسعة وباشروا استثمار باطن الارض باللجوء الى العمل الازامي .

ترك الهولنديون بملء رضام شركة الهند الشرقية « تحرث البحار » . وانما استثمار الهند التيرلندية اكرهوا شيئاً فشيئاً على احتلال الجزر الكبرى والصغرى احتلالاً قلمياً . وعلى الرغم من ذلك فقد حصروا بمجودم المسكري فترة طويلة ؛ الا انهم اضطروا بعد السنة ١٨٧٠ الى استباق دول - ألمانيا وبريطانيا العظمى في الدرجة الاولى - قد تنازعهم امتلاك الاقاليم التي لما يرفرف فوقها العلم الهولندي . اصف الى ذلك انهم أرغموا من جهة ثانية على جمع قوامهم في سومطرا حيث

صادفوا خصوماً أقوياء . فأت سلاطين اتجه ، في طرف الجزيرة الشمالي الشرقي ، قد دافعوا بعناد عن استقلال شجعه البريطانيون في البلاد . أما في جاوا فقد انتهى عهد الحروب منذ السنة ١٨٢٩ بخضوع سلطان « جوجا كارا » . وفي بورنيو ، حيث سبقت انكلترا هولندا من الجهة الشمالية ، ثبتت هولندا اقدمها في شاطيء « بالجر ماسن » المشهور بفلفله وماسه ؛ ثم اخضعت بصعوبة المناطق الفنية بالذهب المعروفة بـ « الصينية » : سامبا ولنداك ؛ وان ما استهواها في بالجر ماسن هو الماس قبل الفلفل ؛ ولكن المناطق الداخلية في هذه الارض الكبرى بقيت باثرة ومقفرة . وكذلك لم يخضع الا « طوراجا » في « السيليب » للادارة المقامة في « ما كاسار » الى الجنوب وفي ميناهاسا الى الشمال . وعلى الرغم من قرب بالي ولومبوك من جاوا ، فانها لم تخضعاً نهائياً الا في السنة ١٨٩٤ والسنة ١٩٠٨ . ولم تسيطر هولندا الا سيطرة اسمية على جزر السوند الشرقية حتى اليوم الذي جرت فيه القسمة بينها وبين البرتغال التي احتفظت بشرقي تيمور . وما عادت هولندا لتهتم بـ « فلوريس » و « سومبا » و « مملكتها في غينيا الجديدة » . فان عالم البايو قد أخذ همه تجار امستردام الذين اكتفوا بالمكاسب التي ما زالت المولوك توفرها لهم ؛ وقد اقتصر الاحتلال عملياً على الجزر الصغرى الفنية بالتوابل : ترنات ، باندا ، ولاسيا امبوان ، وتستننى منها سيرام وهالما - هيرا الجبلية والمطاطان بالغابات . وفي الحقيقة انتقل مركز الثقل الاقتصادي نهائياً من المولوك هذه ، التي فقدت منزلتها ، الى الجزء الغربي من الانسولند ولاسيا جاوا .

اثاء الاحتلال البريطاني ، قام « رافلز » ، الحاكم بالوكالة ، الميثاق الاستعماري الاحتكاري وشجع التجارة الحرة واستبدل الضرائب بضريبة عقارية تحدد وفاقاً لمسح الاراضي .

بعد السنة ١٨١٥ توجب على الهولنديين بذل مجهود عسكري ومجهود مالي كبيرين . فعادوا من ثم الى الروح التجارية والاحتكار . ولم يكن المطلوب ان لا تكلف المستعمرات الوطن الام شيئاً فحسب ، بل ان توفي قسطها في اثاره ايضاً . اضعف الى ذلك ان « فان دن بوش » ، الذي كان على اتفاق مع الملك غليوم الاول ، لم يأت بجديد : فجدد هذا الاخير امتياز شركة الهند الشرقية وأعطاه شركة نيرلندية ذات امتياز ؛ وعمم نظام المزروعات الالزامية الذي لم يلفه الاكليز . فكان على الفلاح ان يعمل في الاراضي المخصصة لهذه المزروعات على ان يعفى من الضريبة العقارية . فبدأ هذا البرنامج وكأنه مستوحى من الاستبداد المستنير وذهب بعضهم الى حد اعتباره برنامجاً يستهدف خير البشر .

لعمل زراعة المناطق الحارة ، التي ادارها الاوروبيون وأعدوا منتجاتها للتصدير ، لم تعرف في أي مكان آخر مثل النجاح الذي عرفته . ولما كانت سياسة حكومة لاهاي لم تهدف الى تشجيع استعمار التوطين ، فهو الموظف من كان وراء نمو الاقتصاد الذي خضع لنشاط منتظم ومنطقي . فمن التطبيقات الموقفة للعلوم الطبيعية تحسين انواع البن وانتقاء اصناف القصب بغية

حمايتها من طفيلي خفي الوباء ، وتبليد الكينا البوليفية بانتظار تبليد شجرة المطاط البرازيلية . وقد وفر البن والشاي والتبغ والنيلىج والسكر والفلفل والقرفة ارباحاً طائلة (فائض بلغ ٨٣٢ مليون فنورين بين السنة ١٨٣٠ والسنة ١٨٧٧) . فكان للاختبار اثره حتى بعد ان استهدفه النقد : فان كتاب الانكليزي « موني » ، « جاوا » ، او كيف يجب ان تدار المستعمرة ، الذي صدر في السنة ١٨٦١ ، قد أثار حركة في الرأي العام اللندني من اجل ادخال النظام الى جزيرة جامايكا السائرة في طريق الهبوط والى الهند التي طولب بزراعة النيلىج فيها .

ولكن التجاوزات اصبحت فاحشة . فان الرواية التي نشرها « ادوارد دويس - دكر » ، باسم « مولتاوي » ، المستعمار ، وتحت عنوان « ماكس هافلار » ، قد وفر لها مجرد عناية واسعة في السنة ١٨٦٠ ، حين كانت المبادئ المعادية للرق آخذة في الانتشار . فمنذ السنة ١٨٤٣ باتت الهند النيولندية تعاني من الجذب ، لا بل كانت السنتان ١٨٤٩ و ١٨٥٠ سنتين مرعبتين . ولم يعد ممكناً اخفاء ابتزازات زعماء القرى الذين اعتبروا وكلاء مسؤولين والذين حصلوا على اراض وراثية مكافأة لهم على خدماتهم ، اقطعهم ايها الموظفون الهولنديون مقابل انتقاضات ، ومتعهدو المغارس - الذين قد يكونون صينيين احياناً : فقد فرض ميثان وحتى ثلاثمائة يوم عملاً ، وصودر الاشخاص لاجل تمييز الطرقات والمرافىء ، واستمر في المطالبة بدفع الضريبة العقارية ، وما زال الوكلاء البلديون ، المختارون من بين الاقطاعيين ، يلجأون الى الاقتسارات ويحبون بقايا ضرائب السنوات السابقة .

في هذه الاثناء حدثت الازمة الاقتصادية في اوروبا بين السنة ١٨٤٥ والسنة ١٨٤٨ . وبموجب ملحق لدستور هولندا الجديد انتزعت من التاج ادارة الشؤون الاستعمارية . فكان ذلك بمثابة انكار لنظام « فان دن بوش » . وقضت قوانين زراعية بالغاء الاعمال الزراعية الالزامية ، كما زالت الحقوق التفضيلية بفضل النظام الجمركي الحر . ولكن الدولة والشركة ذات الامتياز قواريتنا مجرد توار أمام بعض الشركات الرأسمالية التي لم تتخل ، من حيث المبدأ ، عن العمل الالزامي ، ولم تسلم به بادية ذي بدء الا في زراعة الشاي والنيلىج والتبغ والتوابل ، اعتباراً منها أن عدداً من هذه المنتجات اقل دخلاً ؛ وعلى الرغم من ذلك فقد خصصت مساحات اضافية لزراعة شجرة البن وقصب السكر وشجرة الكينا ، كما اتسمت زراعة التبغ اتساعاً عظيماً في سومطرا ؛ ثم انخفض انتاج السكر والبن بدورها بسبب انخفاض اسعارها . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان رؤوس الاموال اخذت توظف في حفر آبار البترول وفي مناجم القصدير ومغارس اشجار المطاط . وتحول الانتباه ، دون ان يتحول عن جاوا ، الى الاراضي الواسعة الاخرى التي اخذت امكاناتها الكبرى تبرز شيئاً فشيئاً .

ولكن الواقع الهام ما زال الاولوية الجاوانية . ففي الجزيرة البالغة مساحتها ١٣٠ الف كيلومتر مربع ، كان عدد السكان زهاء ٢٨ مليون نسمة مقابل ٥ ملايين في أوائل القرن : ومما يجعل هذه الكثافة جديرة بالاعتبار ان جزر الارخبيل الاجرى كانت شه مقفرة . وقد

تباهى الهولنديون بالنتيجة التي عزوها الى ظروف صحية وغذائية دونها الظروف المتوفرة للهند . اما الحقيقة فهي ان جاوا ، المتوسطة المساحة ، كانت أفضل إعداداً لادارة حازمة ولتجهيز أوفر دخلا . أضف الى ذلك ان خبرة دائرة الشؤون المائية في هولندا قد ساعدت كثيراً على تجنب تجدد المجاعات الكبرى بفضل تحقيق مشروع ري عظيم . اجل لم يدخل المدرسة سوى أقلية ضئيلة ، ولكن التلقيح ضد الجدري قد اعتمد بنجاح ، والكوليرا والطاعون قد كوفحا ببعض الجدوى ايضاً . ولا مرأه كذلك في نفعية المستعمر ، ولكنه احترم النظام الاجتماعي جهده الامكان مكثفياً بالتوفيق بينه وبين حاجاته الخاصة . وعلى غرار البريطانيين في الهند ، احسن معاملة السلاطين الذين قبلوا بخدمته : ٤. فقط في جاوا ، ولا اقل من ١٤٣ في سومطرا . وقد ذكر « بوفوار » ان سلاطين جاوا انما هم « رهائن عاجزة رفعها المستعمرون على قواعد مرتفعة بغية تويه الميثاق العظيم الذي يربط ، بالقوة والهمة معا ، بين العرق المسود وأسياده الاوروبيين » . واحيط الوكلاء بالاحترام وأغدق عليهم المال ، ولكنهم كانوا عرضة للعلز ، وقد اختيروا من بين العائلات الكبرى بغية نقل رغبات البيض الى زعماء القرى الذين مارسوا السلطة الفعلية الوحيدة برقابة الموظفين النيرلنديين .

ادار هذا الاستعمار عدد محدود جداً من الهولنديين لم يجاوز ٦٠ ألفاً مقابل ٣٠٠ الف صيني وزهاء ٣٠ مليون بلدي . وقد بقيت الدوائر والحازن في باتافيا قريبة من المدينة القديمة والمرفاً . ولكن المدن المرتفعة ، كـ « ولتردن » المشهورة بمساكنها المحفوفة بالحدائق ، و « بويتنورغ » حيث يقيم الحاكم العام ، قد وفرت لمواليد الوطن الام الرفاهية والصحة في منطقة استوائية المناخ .

نهاية السيطرة الاسبانية في الفلبين على نقيض الهولنديين ، حاول الاسبانيون ، في ممتلكاتهم الفلبينية القديمة ، تمثيل السكان البلديين . فقد نجح اكليروس غيور وقوي في تبشير الـ « تاغال » اللطفاء . ولكنه تمثيل على بعض السطحية في الواقع : اذ ان عدم اكثراث الشعب النسبي قد سهل عمل « الاب » الذي حاول من جهة ثانية حماية رعيته من الزعيم البلدي . وتميزت الادارة بالحمول والبلادة . فلم تقرر مدريد الاستيلاء على « مندناو » و « جولو » حيث سيطر الاسلام في اوساط الـ « موروس » (الذين يقابلهم الهنود) الا رداً على احتلال بورنيو وسيليب احتلالاً فعلياً . وبقي داخل « لوسون » موطن الـ « ايفوغاو » « المتوحشين » الذين برعوا في زراعة الارز في السطوح الترابية المتعاقبة .

تبدو الحياة في مانिला مرحة وميسورة . ولكن التجارة ليست في ايدي الاسبانيين : فمنذ السنة ١٨١١ لا تتجه أية سفينة كبيرة نحو اسبانيا الجديدة ، بينما تنقل السفن الانكليزية والاميركية الـ « اباكا » (او قنب مانिला) والسكر ، وتأتي بالارز والنساج . وبالنظر الى تزايد عدد السكان تزايداً سريعاً (بلغوا ٥ ملايين في السنة ١٨٩٠) ، يتفاجأ الشقاء والضيق

وفي السنة ١٨٧٢ تستلزم خطورة الاضطرابات إرسال قوى مسلحة اضافية . وفي عهد لاحق تسبب ثلاثة حصائد ماحلة متوالية في جدوبة وعوز خطيرين .

نشأت طبقة خلاسية انيقة تلم بالاسبانية ، لم تحف استيائها من تهامل الوطن الام وامتيازات الاكليروس . والحال نفت مدريد بسدون ترو الى لوسون بعض المتادين بالحرية والاباحيين والماسونيين ، الذين اسهموا في نشر فكرة محاربة الاكليروس . وفي السنة ١٨٩٦ ، اعلنت بعض الجمعيات السرية (« كاتيبونام ») ثورة شاملة لم تقم بسهولة ؛ لابل ان الشوار ، بقيادة اغنالدو ، لم يلقوا السلاح الا بعد الحصول على وعد ببعض الاصلاحات . وحين لم يتحقق الوعد المقطوع لهم ، تحولوا الى الاميركيين الذين ساعدوهم على طرد الاسبانيين . فخاب املمهم مرة أخرى اذ ان الاميركيين رفضوا التخلي عن الارخبيل . فنشب آنذاك صراع جديد ضار ؛ ولكن الفيليبينيين هزموا في السنة ١٩٠٢ فاستبدلوا نيراً بآخر .

كان احد الشعوب الـ « تاي » او فر حظاً من جيرانه بنجاحته من الوصاية
الدول السيامية
الاستعمارية . وهو مدين بهذه النعمة لموقعه الجغرافي في وسط شبه الجزيرة الهندية الصينية ، بين بورما الخاضعة للسيطرة البريطانية ، والجزء الشرقي من شبه الجزيرة هذه الذي احتلته فرنسا .

تنطبق سيام جغرافيا على حوض « مينام » الذي استوطنه الـ « تاي » واسسوا فيه عدداً من الممالك حصول « كسينغهاي » في الشمال و « اقو - تيا » في الجنوب . ثم حدث ان هزم البورمانيون السياميين واخضعوهم ، فأسس هؤلاء إمارة جديدة مركزها بانكوك ، وبشرت سلالتهم الجديدة (سلالة شاكري) حركة توسعية باتجاه نهر ميكونغ وشبه الجزيرة الماليزية مخضعين في الوقت نفسه المنطقتين الجنوبيتين الجبلتين : مينام العليا وميننغ . وفي عهد مونفكوت اقبلوا حدودهم في وجه الارساليات التبشيرية المسيحية ، ولكنهم وقعوا معاهدات تجارية مع الدول الأوروبية وحاربوا فيتنام التي تقدمت بدورها نحو الغرب انطلاقاً من الجبال الأنامية من اجل السيطرة على كمبوديا . وتوصلوا في فترة من الزمن الى السيطرة على دول لاوس . وبُعيد التدخل البريطاني في « بيغو » ونزول الفرنسيين في كوشنشين ، اختار « شونلونغكورن » ، الذي ربتة امرأة انكليزية وعلم اولاده في انكلترا ، الاعتماد نهائياً على لندن : فجهز بعض السفن الصغيرة بالمدافع وزود جيوشه ببنادق « موزر » . وحين اصر على الاحتفاظ بولايتي « باتبانغ » و « سيمراب » الكمبوديتين سعت ملكية « بنوم - بنه » وراء الاعتماد على فرنسا . فاضطر الى التراجع في السنة ١٨٩٣ ، ولكنه احتفظ بمنفذ عريض الى الميكونغ عبر حوض « سيمون » .

لم يكن عدد سكان سيام مرتفعاً - ستة ملايين نسمة (اي بمعدل ١٠ في الكيلومتر المربع) - وقد شمل ثلثاً من التاي الودعاء والصبراء والمجاملين والراغبين في الاحتفالات والدائنين ببودية تتفق وسلطة الرهبان ، وثلثاً آخر من الصينيين ارباب الاعمال في بانكوك ، وثلثاً أخيراً من الاقليات البورمانية والماليزية واللاوسية المقيمة عند حدود البلاد . وكانت الدولة السيامية

ملكية بطريركية : فان الملك ، « سيد الاشخاص والممتلكات » ، يتولى الحكم مع طبقة من النبلاء ، بينما تفرض على جامير الفلاحين اعمال التسخير الملكية التي توازي شهرين أو ثلاثة اشهر عملا . وقد صدرت البلاد الارز وخشب التلك . واقتضت زمنا طويلا الى الطرقات والخطوط الحديدية ، ولكن مؤسسة المانية جهزتها بشبكة تليفرافية . وقد تأمنت علاقتها الاقتصادية بالخارج بواسطة سنغافوره .

في الشرق ، كما في الغرب والوسط ، تبرز المضادة القوية بين فيتنام ولاوس وكمبوديا قبل التدخل الفرنسي التي تنازعها - كما يدل على ذلك اسمها - النفوذان الهندي والصيني . واذا كان النفوذ الاول قد اتسع في حوضي مينام وميكونغ في عهد الامبراطورية الخميرية ، فان ردة الفعل التي حدثت لمصلحة النفوذ الثاني توافقت تقدم الفيتناميين على طول الساحل الشرقي وفي دلتا الانهر . اما التاي - سواء اعتنقوا البراهمانية ام لا - والبدائيين فقد احتموا بالجبال .

ان التجمعات البشرية الكثيفة في دلتا الانهر قد اعطت الشعب الفيتنامي ، المزدهم فيها ، تفوقا لا جدال فيه . فعوالي السنة ١٨٩٠ قدرت كثافة السكان في تونكين بـ ٥٠ نسمة في الكيلومتر المربع ، وفي كوشنشين بـ ٣٠ ، وفي اتام بين ٢٠ و ٣٠ ، وجلهم في البلدان الثلاث من الفيتناميين ، مقابل ١٠ فقط في كمبوديا و ٣ في لاوس ؛ وبلغت الكثافة بين ١٥٠ و ٢٠٠ في دلتا النهر الاحمر . اما في كمبوديا فقد ضم سهل « بنوم - بنه » ثلاثة ارباع سكان المملكة .

خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر ، وبينما كانت الدولة السيامية آخذة في التجدد في حوض مينام ، توطدت شيئا فشيئا اركان امبراطورية فيتنامية مركزة الى امتلاك تونكين في الشمال واتام في الوسط وكوشنشين في الجنوب . وقد نهض بهذا العمل « نفوين - انه » الذي حمل بعد ذلك اسم « جيا - لونغ » ، وكان اشهر ممثل لسلالة نفوين التي تولت الحكم في هويه . فطلب اسلحة من الفرنسيين من اجل تحقيق الوحدة ؛ ثم ولى وجهه شطر الصين ليلتمس منها التنصيب التقليدي وقبل منها باسم فيتنام (ومعناها بلاد الجنوب) واقتبس عنها مجموعة قوانينها وتنظيمها السياسي - الاداري وسخر النظام لاعادة بناء السدود في تونكين وانشاء الطرق وتجزين الارز . فتجبر ورفض هدايا لويس الثامن عشر ولكنه عرف الجميل فأكرم الفرنسيين الباقين في خدمته ..

تربع من ثم على عرش فيتنام ملك مارس ، على غرار امبراطور الصين ، سلطة مستمدة من السماء ، وكان عليه ممارستها من اجل خير كافة رعاياه . ولكنه استند عمليا الى المثقفين المختارين عن طريق المباراة بين اولئك الذين حصلوا العلم في مدرسة تلقن الواجبات نحو العائلة والنوالة . وأسهمت روح القانون ، الذي نشر في السنة ١٨١٢ ، في تحويل نشاط هذا الحصر

شطر التقليد الفلسفي والاخلاقي بالتميز على التجديدات التقنية . فاصبح واجب الملكية المطلقة ، والحالة هذه ، ضمان حياة الجماعة المرتكزة الى زراعة الارز وعبادة الجدود .

استلزم زراعة الارز المنتجة طاقة بشرية عظيمة ، اذ ان الصيد والصناعة البدوية ما كانا امورا سوى دخول محدودة وان كانت جلية الفائدة . وقامت في كوشنشين ، المحتلة حديثاً ، املاك كبرى كان مزارعوها (تاديان) المدينون تحت رحمة المرابين . وقد شد التضامن الضروري من أجل تنظيم العمل روابط الجماعة ، واتاحت التعاريفات (هوي) مواجهة الحاجات الملحة . وألف الـ « هو » او الـ « تو » الخلية العائلية التي تكتنف حياة الفرد في جميع مظاهرها ؛ وما زالت السلطة الأبوية اقوى سلطة حتى بعد ان حد منها قانون جيا - لونج ؛ وقد جاء في احد الامثال السائرة ان سلطة الملك تنحني امام العرف المحلي .

تحذر خلفاء جيا - لونج من مغالطة الاوروبيين ، بدافع من حرصهم على صيانة مؤسسات امبراطوريتهم ، فانتهجوا سياسة اضطهاد المرسلين وحظروا المسيحية . وقد جاء في مرسوم السنة ١٨٣٣ ان « هذه الديانة مجموعة من الأكاذيب » . وجزم « تو - دوك » بدوره في السنة ١٨٥٠ بانها « ديانة فاسدة لانها لا تتطوي على واجب عبادة الانسباء المتوفين » . لذلك ارتدت حملة السنة ١٨٥٨ ، التي استهلت التدخل الفرنسي في شؤون بلاد يطلق عليها الغرب اسم انام ، طابع الحرب الصليبية .

لم يبق من الامبراطورية الخميرية القديمة سوى مملكة على بعض الصغر مقصورة على منطقة الميكونغ بين كوشنشين وشلالات « خون » . وبعد ان فقدت كوشنشين ، ابي منفذها الى البحر ، تعرضت هذه المملكة لغزو السياميين المتقدمين حتى « تونلي - ساب » . ثم خضعت لسيطرة سيامية فيلنامية مشتركة عقبها حماية سيامية حقيقية . ولم يتمكن الملك « نورودوم » من التخلص من وصاية بانكوك الا بطلب حماية فرنسا .

بوجب حماية السنة ١٨٦٣ حق لفرنسا ان تتمثل بمقيم عام في بنوم - بنه كما حصلت على حرية التجارة والتملك لمواطنيها وحرية العبادة والتعليم للكنيسة الكاثوليكية . ولم يطرأ في الظاهر اي تغيير على التنظيم التسلسلي الذي يضمن تلاحم الدولة . ولكن هذه الاخيرة فتت في عضدها بفعل خلافات العائلة الملكية ودسائس الزبانية التي توجب على السلالة مراعاة حانها . ولم تتصف الحياة العائلية بصفتها الالزامية في فيتنام ، وقد حمل الفرد اسماً شخصياً . فتوزع السكان ، ولم تعرف زراعة الارز نشاطها في دلتا الانهر . آثر الكبودي تربية الثيران والابقار الهندية ، والسيد في البحيرة الكبرى الغنية بالاسماك ، والقبض على الفيلة وترويضها . وتميزت البلاد في الدرجة الاولى بروح بوذية تأملية هي روح « المركب الصغير » . وقد وفر مثل هذه العبادة تعزية كبرى للدمومنين . فان هذا الشعب الوديع والبيد والمولع من جهة ثانية بالرقص والمسرح والموسيقى قد انحنى دون مقاومة عنيدة امام الاحتلال الاوروبي .

اختلط الـ « مان » والـ « ميو » بالشعبين الذين اتيا من الصين وعاشا حياة بدوية زراعية تعرف

بدري ، وواصلوا اغاراتهم عبر الجبال المرتفعة خلال النصف الاول من القرن . وتجمّعوا ، شان التاي والـ « موونغ » ، في الوديان اللاموسية حيث يزرع الارز بمزيد من السهولة . وقد توفرت لهؤلاء الأخيرين تقنيات أكثر تطوراً من تقنيات الجبلين الذين لحقوا بهم ، او من تقنيات البدائيين (هؤلاء الـ « خا » هم انفسهم الـ « موي » الذين يتكلم عنهم الفيتناميون ، والـ « بنونسخ » الذين يتكلم عنهم الكبوديون ، وقد انتشروا حتى في اناج الجنوبية بين مجاز « آي - لاو » والـ « دوناي ») . وان ما ميز التاي والموونغ اجتماعياً هو التنظيم الاقطاعي الذي بموجبه زرع الاسياد ارضهم بتسخير الفلاحين وأخضعوا الخنا لنظام الفدادية . اما التاي الذين تأثروا تأثراً عميقاً بالروح البوذية وعاشوا في سهول الاحواض فبعيشتهم شبيهة ببعيشة الكبوديين . واما المرأة فمغناجة وتحب التزين وتتمتع بجمرية كبرى ، وتسكن مع زوجها في بيت اهلها .

ان تقسيم البلاد الطبيعي ليفسر تجزئتها الى امارات عجزت ابدأ عن الاتحاد في دولة واحدة . وعلى غرار كمبوديا ، تعرضت اللاموس لفزوات السياميين والفيتناميين معاً بسبب رغبة هؤلاء واولئك في الوصول الى المكونغ الاوسط . ولكن نائب القنصل الفرنسي ، « اوغست بافي » ، توفى الى وصل تونكين ولاوس وادخال الميو والتاي الجبلين في منطقة النفوذ الفرنسي ، فوضعت لاوس تحت الحماية الفرنسية في السنة ١٨٩٠ ، وانحنت سيام في السنة ١٨٩٣ .

في الوقت الذي تحررت فيه الضفة الشرقية لميكونغ الاوسط من ارائل عهد الهند الصينية الفرنسية ، سيطرة السيامية ، انجزت فرنسا تأسيس اتحاد هندو - صيني ضم تحت اسم الهند الصينية بلدانا وشعوباً غير متلاحمة .

توفى اميرالات الامبراطورية الثانية ، بوسائل محدودة جداً ، وبمناسبة حرب ضد الصين ، الى احتلال نصف كوشنشين ؛ وبعد ذلك بفترة قصيرة سقط النصف الثاني بدون قتال . ولم تستلزم الحماية على كمبوديا عملية عسكرية . ولكن الاستيلاء على اناج وتونكين كان من الصعوبة بمكان : اذ لم يعتمد الامبراطور « تو - دوك » ، على مساندة الصينيين فحسب ، بل توجب على الجيش الفرنسي اجتياز مناطق جبلية وعرة والمخاربة في مناطق ثائية قاسية المناخ بمجولة الموارد . فحتى بعد انهاء الصين ، وبعد اقامة الحماية في تونكين واناغ ، استمر القتال حتى السنة ١٨٩٦ ، عنيفاً ومضنياً ، في الجبال القريبة من الحدود الصينية ، ولم تتوقف المقاومة الا بعد ان طبق « غالباي » ورئيس اركان حربه « ليوتي » خطة « بقعة الزيت » . واقتضى من جهة ثانية قمع ثورة نشبت في شمالي اناج . وحاولت كمبوديا نفسها القيام بثورة للتخلص من معاهدة حماية جديدة قاسية الشروط . وهكذا توصلت فرنسا ، بعد صراع ودبلوماسية استغرقا اربعين سنة ، الى السيطرة على امبراطورية اوسع مساحة من اراضيها ، يتراوح سكانها بين ١٢ و ١٤ مليوناً موزعين توزيعاً غير متساو على المحاء الهند الصينية المختلفة .

لم يكن لفرنسا مذهب استعماري في آسيا . فحتى السنة ١٨٨٧ ، ارتبطت كوشنشين

وكبوديا بوزارة الحربية والمستعمرات ، وانام وتونكين بوزارة الخارجية . ولما كانت سياسة الحماية بواسطة الزعماء البلديين سياسة ذات حظوة حين تم الاستيلاء على كوشنشين ، عمد الاميرال « بونار » ، على تقيض سلفه الاميرال « شارنر » ، الى اعادة الادارة المحلية الى زعماء القرى . ولكن اندلاع الثورة اوقف الاختبار . فاتجه الاميرال « دي لاغاردبير » حينذاك الى اعتماد طريقة الابقاء على السلطات البلدية وربطها بادارات فرنسية يشرف عليها حاكم يعاونه مجلس استشاري خاص . ولما كان القانون الفرنسي لا يطبق الا على الفرنسيين ، ابقى على القانون المحلي بمد ان خففت العقوبات التي يفرضها . واتاحت اعمال المساحة توزيع الضريبة توزيعاً عادلاً ، وتألقت بعض فرق الجيش الانامية . وفي السنة ١٨٧٩ ، بعد ان آلت الادارة الى المدنيين ، احتفظ الموظفون الفرنسيون بادارة الشؤون العامة يعاونهم الاعيان الاناميون . والقيت اعمال التسخير في الطرق ، وانما مست الحاجة الى تغذية الموازنة الاستعمارية باحتكار ادارة الافيون والمواد الكحولية وبواسطة الرسوم على تصدير الارز ؛ فحدثت بعض التجاوزات .

اصبحت الحماية اكثر تضييقاً في كبوديا في السنة ١٨٨٤ . وحين فقد الملك حقه المانع في تملك الارض ، لم يلبث ان اصبح في وضع مالي على بعض الصعوبة .

بوشر في الوقت نفسه تطبيق نظام الحماية على امبراطورية انام . فترأس المقيم العام في « هويه » مجلس الوزراء واشرف على ادارة دوائر الجمرک والاشغال العامة . ونعمت تونكين باستقلال اداري ، كما أقرت لها موازنة خاصة . وقد حاول « بول برت » ، الفيزيولوجي الثابفة والكريم الاخلاق ، استمالة عواطف السكان . فأقام علائق ودية بالامبراطور الجديد « دونغ - خانه » المتحلي بالظرافة واللطف ، الذي قربه اليه ؛ ولكنه لم يتمكن من التغلب على عداء المجلس . وخفف من وطأة اعمال التسخير ، ووزع المساعدات المالية على الولايات التي خربتها الحرب ، واعفى من الضرائب المتأخرة ، واعاد بناء السدود . وكان علمانياً ، فاحترم العبادة البلدية وأوجب احترام الحربة الدينية . ورغب في التغلب على تقليدية المثقفين ، فأسس اكاديمية تونكينية لتنشئة معاوني الادارة الفرنسية وفتح مدارس فرنسية انامية على غرار المدارس المفتوحة في كوشنشين . وبعد محاولته تحقيق التهدئة في مناطق انسام الشمالية والجنوبية ، توفي بسبب اصابته بمرض الزحار . وقد قاومه بعض المهاجرين المستعمرين والزعماء المحليين معاً .

في السنة ١٨٨٧ ، ورغبة في تخفيض النفقات وتنسيق نشاط الاقاليم غير المترابطة ترابطاً وثيقاً ، وجه « أتيان » ووزارة المستعمرات اللوم القاسي إلى ال « كي دورساي » ، فأنشأ البرلمان الفرنسي الاتحاد الهندي الصيني وأسند ادارته إلى حاكم عام . ثم ما لبثت الدولة المستعمرة ان ضمت إلى هذا الاتحاد مدن توران وهانوي وهايفونغ المحصنة الهامة . ولكن الافتقار إلى موازنة عامة شل عمل الحكام العاميين الاولين الذين تعاقبوا تعاقباً سريعاً . الا ان « لانسان »

الذي آثر « على الحماية الماضية اللامبالية والجاهزة » « حماية امينة على احترام القوانين والاعراف والعقيدة والتنظيم الاجتماعي والسياسي والاداري في امبراطورية آنام » ، التمس محبة رعاياه او اقله ثقتهم : فأعفي من منصبه . وكان روسو اول من استحصل على قرض استعماري فصار بالهند الصينية نحو طريقة « دومر » الحازمة .

يوشر بادىء ذي بدء ، استثمار مناجم الفحم في « هونغاي » . ثم اكتشفت معادن مختلفة في تونكين لم تتوفر رؤوس الاموال لاستخراجها . ونقلت شحنة الشاي الاولى إلى فرنسا في السنة ١٨٩٤ . واذا كان صحيحاً من جهة ثانية ان الشبكة التلغرافية قد انشئت وان سايقون تمت نواً اوروبياً ، وان هايقونغ جهاز ميناؤها ، فان هانوي ليست بعد سوى مجموعة من القرى المتجاورة التي تحتاج الى مجهود تجهيزي كبير . واذا فاقت صادرات كوشنشين وارداتها ، فان كفة الواردات في الميزان التجاري في آنام وتونكين ما زالت راجحة .

ويجب الاعتراف بان البؤس قد تعاضم بتزايد الكثافة وان الاعيان لم يلقوا سلاحهم الا ظاهرياً .

بينما انتهت امبراطورية الهند المغولية الى الانحلال في القرن
الامبراطورية الصينية القديمة التاسع عشر ، اعادت السلالة المنشورية بناء الامبراطورية
الصينية ، اوسع الدول الآسيوية اطلاقاً الى حد بعيد . وقد ضمت اليها ممتلكات خارجية واسعة - منشوريا ، منغوليا سن - كيانغ ، تبت - امنت حمايتها من جهة بدو البورات ، فناءت بثقلها على مصائر الهند الصينية ، وتدخلت في النيبال ، وعقدت مع روسيا اتفاقات تعترف لها بمحدود ال « أمور » وخط « ساينسك » والاتلي ، فكانت في الحقيقة « ارض الوسط » (تشونغ كوو) ، او « الامبراطورية الكبيرة الخالصة » (تا تسنغ كوو) ، البالغة مساحتها ١١ مليون كيلومتر مربع ونصف المليون ، والحماية من السماء . ومع ان شخصاً واحداً لا يستطيع تقدير عدد سكانها ، فبمقدورنا ان نعلمها في المرتبة العددية الاولى (بين ٣٠٠ و ٤٠٠ مليون نسمة) .

وألفت كذلك أكبر مجتمع قروي في العالم ، منكب خير انكباب على العمل من أجل تأمين الغذاء اليومي في إطار العائلة والقرية وفي كنف الجدود ، وناظر الى السلطة الامبراطورية الحامية كما الى شر لا بد منه . واذا لم يكن هناك من شعور قومي ، فان هذه الجماعات المقاربة الكثيرة قد أحست ، بثقة وزهو ، بشعور انتسابها الى حضارة محترمة يكمن سر تفوقها في انها تعرف وتحفظ سر كل حكمة . يضاف الى ذلك انها استمدت قوتها من ضخامة عدد السكان نفسها . وأساعت الفاتح بالسهولة نفسها التي ازدرت بها بالاجنبي . وقد عرفت البقاء بالرغم من الكوارث الطبيعية والثورات السياسية ، حتى ولو اوجبت عليها دفع اثقل ضريبة ممكنة للبؤس والمرض والمجاعة .

على غرار معظم السلالات التي اختارتها الصين ، او بالاحرى قبلت بها ، شعرت السلالة

المنشورية ببعدها عن الشعب وارتباطها به في آن واحد بميثاق محبة متبادلة. وقد عاش الامبراطور في بكين في المدينة المحرمة ، اسير عادات بروتوكولية مهيبه تحميه وتراقبه معاً « البيارق » التي تسيطر حامياتها العسكرية على الولايات . ولكنه « هوانغ - تي » ، اي انه يعرف الخير ويستطيع توفيره . ويكفيه التقيد بالاوامر المدونة في الكتب الكونفوشيوسية التي تقوم مقام الدستور ، شأن الاوامر القرآنية . ومن حيث لم تكن هناك طبقة اشراف وراثية ، عول على الاستئصال في تعيين من يطلب منه خدمة السلطة اي تحديد الكلمة الواجب قولها والحركة الواجب القيام بها والمعادة الواجب اتباعها : ابواب الامتحان مفتوحة للجميع وبمكنة افقر الناس ان يصبح نائب الملك . ولكن كبار الموظفين ، بالاضافة الى اختيارهم بنتيجة امتحان عن ظهر القلب ، وبدون اي شرط خلقي او ذهني ، قد التقوا في الواقع هيئة متسلسلة السلطات ، ملزمة بالشكليات الضيقة ، متمردة نقل الاوامر ، ومسؤولة تجاه الرؤساء لا المرؤوسين . وعلى الرغم من واجب التجمل بالفضيلة ، لم يكن بالامكان تلافي الفساد. فكيف يؤمن الموظف معيشته ؟ لقد كان يتقاضى مرتباً ضئيلاً فاستغل نفوذه وقبض اجور خدماته وابتز اموال المكلفين . أضف إلى ذلك ان السلطة اعترفت ببيع الوظائف ، لا بل حددت اسعارها بمرسوم صدر في السنة ١٨٣٨ .

بيد ان آفة الدولة وآفة الموظفين الكبرى كانت الفقر والافلاس . فلا عجب من ثم إذا سادت الفوضى سيادة مزمنة . واذا صح انها كانت دواء لتطلبات السلطات ، فانها لم تحم الفلاح من الاختلاسات ، بل تخلت عنه للاقتسارات . فيكفي ان يكون الامبراطور ضعيفاً او محاطاً بعمالين فاسدين حتى تتسع وتنمو . ويبدو ان الاباطرة المنشوريين كانوا بدورهم ، منذ اواخر القرن الثامن عشر ، ضحايا حياة البلاط الملأى بالدسائس الوحشية في معظم الاحيان . ولما كان الامبراطور يحتلر خليفته على هواه ، فقد اطلق العنان للمزاحات وهو بعد في قيد الحياة ؛ وفي حال القصور الشرعي تنتهي السلطة إلى من يعرف كيف يضع يده عليها ، رجلاً كان ام امرأة . لذلك ما زالت الاحولة الحريرية هي طريقة الحكم . فيستنتج من كل ذلك ان ظاهر النظام ليس الا وهماً خادعاً : ولا تستطيع شتى اشكال التهذيب المدروسة اخفاء التشويش الذي يشل الجهاز الحاكم .

وهناك واقع خطير آخر : اعني به تدني عدد صغار الفلاحين الملاكين وانتقال الارض تدريجياً إلى ايدي ممثلي الادارة الذين يتعاطون المراهبة اثناء جمعهم الضريبة واحقاقهم الحق . وكان من هزال الامن ان الكوارث الطبيعية والاضطرابات تعرض اراضي الجماعات لجشع الطامعين باحتكار الارض . اجل لقد حارب « كيان - يونغ » كبار الملاكين ؛ ولكن هؤلاء عادوا من بعده الى المهجوم مجالهم تزايد عدد السكان الذي حد من مساحة الاملاك الصغرى ومن موارد كل عائلة . وزاد في الطين بلة ان نمو التجارة مع الخارج ادى الى انخفاض قيمة الاراضي : فاستفاد اثرياء التجار من ذلك وضاربوا على قيمة الـ « تايل » الفضي التي تختلف بين سنة واخرى وبين

منطقة واخرى ، وربحوا كذلك من بيع السلع التي يبيعها الفلاح - وهو غالباً ما يكون صناعياً يدوياً - في المدينة مقابل بعض النقود النحاسية (سايبك) ، دون ان يفرض ذلك إلى تملص النشاط الصناعي من قيود تنظيمه الخائس. وقد نجم عن ارتفاع هؤلاء الاعيان والزعماء الريفين تقوية الاثرة الاقلية التي قاومت ابدًا قيام سلطة مركزية على بعض القوة، بسبب اتساع مساحة الامبراطورية .

لا تقوى وحدة الحضارة لعمرى على إلغاء التنوع . وفي صين الولايات الثمانية عشر ، تختلف الصين الشمالية عن الصين الجنوبية . فان تربة الاولى الصفراء والمخصابة لم تكفها مؤونة المجاعات بسبب جفافها واقتارها الى الاسمدة وفيضانات الانهر الكبرى المخربة احياناً . وان هذه الصين التي لا تنتج حريراً جيداً ، والتي لا تنعشها الحياة البحرية قط ، عمدت ابدًا الى مهاجمة المرتفعات الغربية ، وتطلعت الى « شان - سي » الغنية بالمناجم ، والمنحدرات التي يستطيع الاستثمار الريفي استثمارها ؛ صين ممرضة لهجمات البدو ، اختارت السلالة المنشورية الاقامة فيها ، قريباً من منشوريا التي توفر لها جنود الحاميات العسكرية . ويقابلها صين حارة ورطبة وكثيرة النواتى . وقد توفرت للشمال طرقا ومسالك تسير عليها العربية الثقيلة ذات العجلتين والنقالة الشرعية ؛ اما هنا فتوجب اللجوء الى الحمل المضي او الى الزورق الشرعي الذي امن المعيشة عن طريق الصيد والمساحة لعدد كبير عاثم من السكان . وعاشت « هو - نان » في عزلة كارهة الاجانب ؛ وتوفرت « تشي - كيانغ » مرافئ كثيرة السكان والحركة ، ومنحدرات تغطيها اشجار الشاي ؛ وهناك « ندان - هوي » و « كيانغ - سو » و « فو - كيان » - ويطلق عليها اسم « الازهار العجيبة الثلاث » - التي تتعاطى كلها زراعة الارز والقطن وتربية دودة القز ؛ والى اقصى الجنوب قامت « كوانغ - تونغ » التي استفادت من الاحتكار الذي استحصل عليه تجارها وتعاملت مع الاوروبيين عن طريق « ما كاور » .

الى الغرب من المناطق الكثيفة السكان ، انتصبت مناطق الحدود الجبلية القليلة الكثافة . فقد ثبت الصينيون اقدمهم في حوض « سي - تشوان » الاحمر الاعلى الذي يشاع الكثير عن موارده المختلفة ؛ وامتدت حول هذا الحوض مناطق واسعة ما كان الصينيون ليشعروا فيها بأنهم في بلادهم حقاً : ففي قلب « كوي - تشيو » و « يونان » اللتين يجب اجتيازهما مروراً بـ « طريق العشرة آلاف سلم » لبلوغ تونكين ، يختلط الـ « لولو » والـ « ميار - تسو » والـ « تاي » بأبناء الامبراطورية السهاوية الذين يكثر بينهم الخلاسيون ؛ وابعد الى الشمال تمتد « كان - سو » و « شن - سي » اللتان تؤلفان حدود امكانيات الزراعة الصينية وتصلحان لتربية المواشي كما في البورات ، على الرغم من تربتها الرسوبية . اضيف الى ذلك ان الاسلام استقر من جهة في كان - سو ، ومن جهة اخرى في يو - نان ؛ ويبدو ان هذا التسرب المزدوج كان خطراً على بوذية وكونفوشيوسية الشرق الاقصى ، بينما وصل « الشياطين البيض » الى مداخل الصين عن طريق البحر وطريق سيبيريا في آن واحد .

دفاع الامبراطورية الصينية عن
ممتلكاتها الخارجية

بين خملايا وسيبيريا خضع جزء كبير من آسيا الوسطى
للصين منذ توسع السلالة المنشورية الجديد في القرن الثامن
عشر . ولكن ما حدث هو ان بستاني السهل الاصفر اهل

هذه المساحات او تعرض لغزوات البدو الفجائية . اضع الى ذلك ان هذه الاراضي كانت
منطقة استعمارية في نظر اهل القرار الصينيين الممولين في معيشتهم على الحبوب والاسماك ،
دونما اكثرثات لتربية المواشي التي توفر الحليب فيسبغت هنا حضارة الالبان والحيام التي
استخدمت الحصان والجمال والقطاس لاعمال النقل ؛ ولو فرضنا ان الصيني عرف ساكن هذه
الخلوات بالحنطة والذرة البيضاء ، لاعدهما لطعامه بزبدة نامسة .

وكانت الصين موجودة في هضبة التيبب الشديدة البرد والمقفرة في ثلاثة ارباع مساحتها .
فأرسلت اليها المقيمين او « امبوان » ؛ ونصبت ال « دالاي - لاما » ، زعم أعظم طائفة بوذية
تصليبا وتسلطا ، الذي يمتلك الارض ويحيي العشر ويشرف على التجارة وبييع المعجزات
والصلوات . وصدرت اليها الشاي والتبغ . وأدركت اشعاع اللاما الروحي على العالم البوذي ؛
فضمنت راحة الحجاج الذين يسلكون طريقا مخيفة تؤدي الى التيبب من « سي - تشوان » او
من « كان - سو » ؛ وراقبت علائق التيبب بالهند بواسطة مجازات لاداك ونيبال وبوتان . الا
ان الاتفاق بين الانكليز ودول مناطق خملايا قد أثار حفيظتها . وحين اضطر نائب الملك في
الهند ، بمد زيارة موفد اللاما لبطرسبرغ ، ردا لزيارة بعض البوذيين ال « بوريات » ، وال « كلموك » ،
الى التيبب ، الى الاستيلاء على سيكيم والقيام بمناورة عسكرية في لاسا في السنة ١٩٠٤ ، قبلت
بكين ظاهريا باتفاق ينطوي على اقصاء كل دولة اخرى ، ولكنها عادت فاحتلت لاسا عسكريا
منذ السنة ١٩١٠ . فكانت لها الكلمة الفصل مرة أخرى .

تناول الضغط الروسي مناطق الحدود الطويلة الممتدة بين بامير والامور حيث كانت
الامبراطوريتان متقابلتين وجها لوجه . ولكنه تقابل بعيدا تضححت معالمه بتوطد سلطة القيصر
على سيبيريا وتركستان الغربية . فقد وصلت الاورال ببايكال ، بين البورات وال « تايفا » ، وعبر
الانهار الكبرى ، طريق ال « تراكت » السيبيرية البالغة ١٦٠٠ كيلومتر طولاً . وأسهم سجن
الحكوم عليهم بالاشغال الشاقة في نرتشنسك ، وممقل « تشيتا » الذي جهزه رجال ثورة كانون
الاول ، والاندفاع الجماعي وراء البحث عن الذهب في الالتيان باتجاه ال « لينا » وال « فيتيم » ،
واستمرار نفي المجرمين السياسيين ، في توطين السلافين الاولين بين ال « تونغوز » وال « بوريات »
الرعاة المتشبتين بين منغوليا والدائرة القطبية الشمالية . وأسس القوزاق في الوقت نفسه
ال « فويسكوس » في نقاط عدة من الحدود وتعاطوا الزراعة وتربية المواشي والقنص والصيد .
وفي مؤخرتهم وسع ألوف الفلاحين القرئي ، باتجاه الشرق ، اراضي زراعة الحبوب التي تكمل
الاراضي الاوروبية السوداء ، بينما انشئت المدن الكبرى المتميزة بساكنها الخشبية وشوارعها
الضيقة ، « اومسك » ، « تومسك » ، و « كراسنويارسك » و « اركوتسك » ، التي ألفت

سلسلة من المحطات نحو الشرق الأقصى . وبعد ذلك امتدت اراضي شرقي بايكال الغنية بالمناجم والمواشي ، التي تتصل بالمناطق البحرية وأماكن صيد الاسماك فيها ، وحتى بالاسكا نفسها . ومنذ السنة ١٨٩١ انشئ أطول خط حديدي في العالم بغية تأمين المواصلات في كندا الثانية هذه على غرار « الخط الكندي الباسيفيكي » ، فجاء يعبر عن تصميم روسيا القيصرية على التوسع قرب الممتلكات الصيلية الخارجية ، اعني بها سن - كيانغ ومنغوليا ومنشوريا .

حرصت بكين على مراقبة طرق القوافل وطرق الغزو هذه . وان سي - كيانغ التي عرفت قديماً باسم « سرندي » هي تركستان الشرقية التي اقام فيها الروس والتي تصلها بالغرب مجازات سهلة . فمن جهة تؤدي طريق الشمال (بي - لو) عبر زنفاريا وكولجا واورومتشي ، الى « لان - تشيو » ؛ ومن جهة ثانية تمر طريق الجنوب (نان - لو) ، عبر « ترك - دافان » (مرقاً الحور) ، في قشغر وتسير بموازاة التاريم الى ان تؤدي كذلك الى كان - سو وشن - سي . وان هذه الطرق التي اقام على جوانبها الرعاة وأهل القرار تمر كذلك في عدد من الواحات .

في نان - لوتولى زراعة السهول الرسوبية الضيقة اكلة خبز الخنطة او الذرة الصفراء الغارسيو المنشأ والمولعون بالـ « بيلاف » - الارز المتبل بالفلفل الاحمر - : جماعات سارتية شرقية ، وجماعات سوغديانية اعتمدت لهجة تركية قريبة من لهجة الاوزبك السارتيه . وكان رعاة « التنطاخ » اتراكاً ايضاً . فتطلع هؤلاء واؤلك نحو الغرب الذي ابتاعوا منه الحبوب والاسلحة والادوات وباعوا منه الاصواف والجلود والطنافس واللبود . وقد سيطر على هذه المناطق اسلام غير متطلب ، اذ ان المرأة حرة ولا تتستر بالحجاب قط . وتجانست المدينة الاسلامية والمدينة الصينية على غير تعامل . واحدى بهذه المناطق خطر خانات فرغانا . لذلك فرض اباطرة القرن الثامن عشر الجزية على زعماء القبائل هؤلاء . ولكن امتداد النفوذ الصيني كان سريع الزوال .

على غرار قشغاريا ، عانت زونفارياريا الامرين من نتائج حروب الصينيين ضد المغول الغربيين ، المعروفين باسم « الوثنيين » ايضاً ، الذين ردوا في النهاية الى ما وراء الالتي . فأقيمت حاميات عسكرية صينية في كولجا وبي - لو ؛ ووطن كبار المسؤولين الصينيين في الجهة الشمالية من تيان - شان مغولا من التوغورت الآتين من الفولغا ولا سيما من الـ « دونغان » الفلاحين والصناعيين اليدويين المجتهدين ، ولكن المرتفعات بقيت مأهولة بالرعاة القازاق المسلمين والكلموك البوذيين . وما لبثت العلاقات ان اقيمت بينهم وبين المراكز الروسية المبنية على طول نهر « ايلي » ، وان فتحت معاهدة كولجا ، التي ابرمتها بكين في السنة ١٨٦٠ ، ابواب الـ « بي - لو » امام التجارة الاجنبية .

كانت آسيا العليا الاسلامية في حالة هيجان شديد حين اقتربت جيوش القيصر منها . ففي السنة ١٨٦٢ ، اندلعت ثورة في قشغاريا لم يلبث ان تولى قيادتها زعيم دونغاني اسمه يعقوب الذي يبدو انه سعى وراء اطماع سياسية كبرى : اعتمد على خان كوكند الذي زوده بالاسلحة

والاعتدة، وبراسل سلطان الأستانة وحتى حكومة الهند، وابتغى تأسيس امبراطورية «الوثية» جديدة تعترض الطريقين المؤديتين الى سن - كيانغ. فاحتل زونغاريا ثم سارقدمأ نحو «بامير». فاعترف الروس به وأستقادوا من الفرصة السالحة للاستيلاء على كوجلا. ولكن الرد الصيني جاء عنيفاً منذ السنة ١٨٧٧. فهزم يعقوب وقتل، وتخلت روسيا عن كوجلا بعد ان استحصلت على حق تعيين قناصل يمثلونها في بي - لو رنان - لو. فعمدت بكين ببراءة الى توطين جماعات منشورية وفلاحين آتين من وادي التاريم وتجاراً آتين من كان - سو وتركت للقضاة المسلمين حق الفصل في الدعاوى، ولكنها احتفظت لنفسها ببلء كافة مراكز القيادة.

اذا احدث في جامعة كاران منبر لتعليم الصينية، فانها قد علمت اللغة المغولية أيضاً. لقد ولى الزمان الذي كان فيه الفارس المغولي يمتطي حصانه الضليع ويتسلح بالقوس والرمح ويؤسس الامبراطوريات. فان القبائل (خوشوم)، المتضامنة او المتحالفة بقيادة امراءها الوراثةيين، تعيش حياة خشنة حول الاخبية (بورت) اللبدي المرتبة بشكل «أول» متجرعة حليب الفرس الممض او حليب النعجة الخائر وبائة الاصواف من الصينيين. وقد شجعت بكين البوذية التي اضعفت الروح الحربية بحملها عدداً كبيراً من هؤلاء المشردين على التبتل. فبات اللاماء في وجه المحاررين، خير اعوان الامبراطور الذي نصّب الخانات وأدمم ببعض المساعدات المالية. وتمتعت اديرة «اورغا» بشهرة عظيمة، وقد اقام الـ «جيتو - تومبا»، الذي كان تجسيدا لبوذا، على غرار الدالاي. - لاما، في دير «كورن». وقد مرت طريق الحجاج من التيبب الى منغوليا في «كوم - بوم» على مقربة من سن - نغ حيث عاش رسول الجمعية اللاماوية. وكان لهؤلاء الرهبان فدائيرهم الذين يعنون بقطعان الماشية؛ وقد بلغوا ١٠٠٠٠٠ في اورغا. وقد ارتدت طابع الاهمية نفسه طريق الشاي الكبرى التي تؤدي من بكين الى «قلغان» والى اورغا أيضاً، ثم تنقسم الى فرعين احدهما باتجاه بايكال والآخر باتجاه كويدو وحوض الاوبي. وقد ذهب المستعمرون الصينيون في تقدمهم حتى مشارف «غوبي» الجنوبية حول الاوردوس. ولكن روسيا لم تبق عادمة النشاط والحركة. فقد استخدمت البوريات المغوليين وادخلتهم في فرق القوزاق وسانددت «خامبا - لاما» «كياختا» التابعة لاورغا وانشأت مصلحة بريدية بين هذه المدينة و «تيان - تسن»؛ وحاولت استمالة امراء منغوليا الخارجية الخاضعين لنفوذ الاورغا، ولن يقر لها قرار حتى يعلنوا استقلالهم عن بكين بعد سقوط المنشوريين في السنة ١٩١١.

الا ان الهجاز المنشوري الواسع قد استمواها اكثر من كل هذه المناطق. اجبل لقد اعترفت به للصين في السنة ١٨٥٨. ولكن هذا السهل الخصب لا يمكن ان يترك الى ما لا نهاية له لرعاة وقناصة مصريين على موقفهم العدائي لا يستثمرون المناجم والغابات ويحيطون انفسهم بمناطق حدود مقفرة تجنباً لوقوع مراعيهم في ايدي الفلاحين الصينيين الطامعين في زراعة الـ «كاو - ليانغ» والذرة البيضاء والبسلى، وحتى الحنطة. فشجع رفع القيود المفروضة على الهجرة

هدفق المستعمرين الآتين من « بي - تشي - لي » ومن « شان - تونغ » . وسهلت الخطوط الحديدية التي بناها الروس هذا الغزو السلمي أيضاً . وفي السنة ١٨٩٥ أصبحت منشوريا لعمرى موضوع نزاع دولي منذ ان اخذت اليابان وروسيا تنازعاتها .

وفي بحار الباسيفيكي الساحلية اعتبرت الصين كذلك جزيرة فورموزا وشبه جزيرة كوريا منطقتين تابعتين لها . ففي فورموزا - تاي - وان - قام صينيوفو - كيان شيئاً فشيئاً باستعمار الاراضي ، فدفعوا امامهم لا « يفوروت » والا « هاكا » البرابرة الذين لجأوا الى المرتفعات . وكانت « تشوسيان » ، « بلاد الهدوء الصباحي » ، مملكة خاضعة لسلطة بكين ، منعزلة جهد المستطاع ، تخشى المطامع اليابانية ، وتنصبر على السيادة الصينية النائية : وقد بلغ سكانها بين ٩ و ١٢ مليون فلاح متكاسلين يكادون لا يحصلون على قوتهم الضروري ولا يعنون العناية الكافية بطرقهم وجسورهم ، ويبيعون من الصين الا « جن - سانغ » ، المقوي المشهور ، والورق الذي يستخدمونه لغايات كثيرة ، ويرغبون في الملابس الزاهية . وقد كتب « دو كروك » : « ان سيول لمعمل كبير لتبييض النسيج لا تتوقف فيه تكتكة المحاضيج قط » . واشهرت البلاد بنسائها الانيقات الحرصات على العناية بشعرهن ، ورجالها الفيد اللحيانيين . وكانت ملكية مطلقة خفف من وطأتها كبار المسؤولين المثقفين ثقافة صينية . وقاومت كوريا التبشير بالديانة المسيحية ، لا بل عمدت الى اضطهاد اوجب على الغربيين القيام بتناورات بحرية في مياهها الاقليمية . ولكن الخطر احدثق بها ، بعد السنة ١٨٧٠ ، من جهة اليابان التي ارغمتها على السماح لها باستخدام ثلاثة مرافئ ، على الرغم من اعتراضات الصين . وان موقع كوريا وضعفها قد جعلها ، كما حدث من ذي قبل ، فريسة اليابان ، او أية تسلطية أخرى ، كلما عجزت الصين عن حمايتها .

اتضح انحطاط السلطة الامبراطورية في الصين في اوائل القرن التاسع عشر . ولعل ابتزازات كبار الموظفين وتجاوزاتهم والغفلة والشنونة العامة تفسر سوء حالة الطرق وخراب تحصينات المدن وفقدان الأمن ونقص الحبوب المتكرر في الشمال الذي جعل الحاجة اشد الحاجة الى أرز المناطق الجنوبية . وكان كذلك لجشع كبار الملاكين العقاريين والتجار نصيبه في تفاقم سوء حالة الجماهير .

تباشر التدخل الاوروبي في الصين
وارلى أزمت الامبراطورية الصينية
ثورات الا « تايبينغ » والمسلمين

برزت منذ ذلك الحين مظاهر العداء لسلالة الا « تسنغ » ، ولا سيما في الصين الجنوبية حيث كان نفوذ الاباطرة المنشورين ضعيفاً وحيث تأسست جمعيات سرية كثيرة (الثالث ، النياوفر الابيض ، السراط المستقيم) اتخذت شعاراً لها : « لنقلبن التسنغ ونميدن المنغ » ، ولكنها لم تحف قط كراهيتها للاجنبي . الا ان تدخل الاجانب بالذات هو ما اثار الازمة ، والعون الذي تلقته بكين من هؤلاء الأجانب أنفسهم هو ما ضمن لها الخلاص .

بعد التنازلات التي أُسلم بها لكراهية الأجانب ، ساءت العلاقات بهؤلاء بسبب تحريم الدعابة المسيحية (١٨١٤) ورفض التفاوض مع الدول الأوروبية على قدم المساواة . وقد شكى الأجانب من تزايد متطلبات جمعية الـ « كوهونغ » الحاصلة على احتكار التجارة في كانتون . وفي سبيل زيادة حجم مكاسبها ، حاولت شركة الهند الانكليزية ، التي كانت تشتري الشاي والخزف الصيني والحرائر والقطنيات الصفراء والصمغ ، تصريف الأفيون في الصين على الرغم من المنع الذي استهدف هذا العقار . فاعترضت بكين ، وأورد الامبراطور في احدى مذكراته في السنة ١٨٣٨ : « ان هذا الشعب (الانكليزي) الذي ليس لديه ما يؤمن به معيشتة يسمى وراء استعباد البلدان الأخرى باضماغ سكانها اولاً ... » ، ولكن ما أقلق الحكام الصينيين اقلاقاً مماثلاً على الأقل هو انقلاب سعر المعدن الأبيض . فكان الرد من ثم على التهريب المطلق العنان الذي انصرف اليه الانكليز تحطيم صناديق الأفيون . فأفضى ذلك الى توجيه حملة عسكرية حاصرت كانتون ثم ضربت نانكين بالقنابل امام تصلب بكين . فوقعت في نانكين في السنة ١٨٤٢ اولى « المعاهدات غير المتساوية » التي فتحت خمسة مرافئ ، وألغت احتكار الكوهونغ واكرهت الصين ، بالإضافة الى ذلك ، الى التغلبي عن جزيرة هونغ - كونغ ودفع تعويض حربي .

ألحقت « حرب الأفيون » الضرر بالصين ، ووجهت في الوقت نفسه ضربة قاسية لنفوذ السلالة المنشورية التي أعطت الدول الأخرى حق حرية التجارة في المرافئ المفتوحة . ولكن غليان الشعب تزايد باطراد . فشكى المحافظون ، الذين قالموا في كبرياتهم من النذل الذي لحق بالامبراطورية السماوية ، اتفاق السلطات المبيعة مع « البرابرة » ، تجار الأفيون والكتيب المقدسة والبنادق ، وشاري المال لمستعمراتهم . وبينما اخذ استيراد المصنوعات الأوروبية والاميركية يلحق أذى كبيراً بالصناعي اليدوي ، زاد خروج الفضة من البلاد في سوء حالة المزارعين والمكلفين الذين اضطروا الى إيفاء ما عليهم نقداً معدنياً اكثر ندرة . أجل لقد جمع تجار المرافئ الثروات ، ولكن واردات الحكومة هبطت حين توجب عليها دفع قيمة التعويض الحربي .

كانت حركة التايبنغ من ثم ثورة بؤساء وفلاحين فقراء انضم اليهم معوزو المدن والملاحون والحمالون وعمال المناجم وحتى الافاقون والقراصنة والفارون من الجندي . ولكنها جرت وراءها ، في كل مكان تقريباً ، المثقفين والملاكين العقاريين والتجار المعادين لبكين . وشاعت بعض التنبؤات حول عودة المنغ وقص ثوار كثيرون ضفيرة الشعر التي فرضها التسنغ عربونا للخضوع . وقد عرف الثوار باسم رجال « تاي - بنغ تيان - كو » ، أي رجال « المملكة السماوية للسلم الاكبر » ، وهي جمعية تأسست في كوانغ - سي بين الفلاحين الـ « ها كا » ، « الاتين من الصين الوسطى » ، الواقفين في وجه الفلاحين المهلبين الذين تساندهم بكين . فساروا وراء « هونغ هيو - شوان » الذي قرأ الكتاب المقدس وحفظ منه التوحيد وشمول مملكة الله .

وانتقدوا كونفوشيوسية كبار الموظفين الأنانية ، فحرروا المرأة وحرموا الأفيون والميسر واعتمدوا روزنامة مستوحاة من روزنامة الغربية ووضعوا نصب أعينهم تنمية التجارة والصناعة ، ولكنهم نادوا كذلك بشيوعية زراعية بدائية واقتبسوا عن الصين القديمة الأولى بعض المؤسسات السياسية والعسكرية . ولن يلبث مثل هذا البرنامج ان يبعد عنهم العناصر المتمسكة بالتقليد .

الا انهم احرزوا في البدء نجاحاً صاعقاً . ففي أقل من سنتين ، انطلقوا من كوانغ - سي وهزموا اعداءهم في كافة انحاء حوض يانغ - تسي ، واستولوا على هان - سكيو ثم على نانكين ونظموا حكومة تولت إعادة توزيع الاراضي لمصلحة جماعات الفلاحين وانشأت صناعة دولة تنتج للمستودعات العامة المعدة لتموين جيش مبني على الخدمة العسكرية الالزامية . ولكن التايبنغ اخطأوا هدفهم بتفويتهم فرصة قلب الامبراطور الضعيف « هيان - فونغ » . ولعل جنودهم انقوا من المخاطرة بنفوسهم في السهل الكبير . ولكن مهما يكن من الأمر فان سيرم على بكين قد انتهى الى الفشل بسبب تأخره وسوء تنظيمه . ولم تحرز الثورة بعد ذلك تقدماً يذكر لانها ضعفت بفعل الاثر الاقليمية التي اضععت عليها الاهداف الواجب بلوغها، وامتعض المثقفين والأغنياء الذين اخافتهم سياستها الاصلاحية المتطرفة، وامتعض الفلاحين الذين اضطرت بدورها الى فرض ضرائب ثقيلة عليهم . يضاف الى ذلك من جهة ثانية انها اعيقت في مؤخرتها، ابتداء من السنة ١٨٥٦ ، بثورة أخرى هي ثورة المسلمين في يونان التي اندلعت بين عمال مناجم كبريت الرصاص المزوج بالفضة . وما لبث الاسلام الصيني بأجمعه ، في كان - سو وسن - كيانغ ان انضم اليها .

ولكن بكين سوف تتمكن من الصمود . فقد ناصرها بادية ذي بدء إقطاعيو هو - نان الذين جندوا الجيوش ووقفوا في وجه التايبنغ ، ثم الثغف حولها كافة كبار الموظفين الذين توحدوا امام الخطر ورفعوا علم الكونفوشيوسية . الا ان الوضع سيبقى متأزماً طالما هي لا تستطيع الاستمانة بالاجنبي . والحال استفاد هذا الاخير من الازمة ليفرض رقابة جمركية حقيقية ، ثم تعلل بحرق المعاهدات ليقوم بمناورة جديدة تثبت قوته . فاستولى الفرنسيون والانكليز على تيان - تسن ثم تقدموا حق بكين حيث اجتاحوا « القصر الصيفي » . وقد ارغمت الامبراطورية على فتح مرافئ جديدة ودفع تعويض حربي جديد والتسليم بوجود ممثلي الدول في عاصمتها ، بينما حصل الروس على الولاية البحرية واسسوا فيها فلاديفوستوك على شاطئ بحر اليابان . فكان ان اللورد « إلجن » ، الذي سبق لوالده ان نهب الاكروبول في اثينا، والذي تأثر هو نفسه بكنوز القصر الصيفي ، كتب في صحيفته ان التجارة « تمارس في ظروف فاحشة بالنسبة للصينيين ومفسدة للاخلاق بالنسبة لمواطنيه . وعلى الرغم من ذلك ، فان السيد الحقيقي لعلائق الصين بالعالم اصبح منذ ذاك التاريخ السير « روبرت هارت » ، مفتش الجمارك البحرية العام . وجي في مثل هذه الظروف ان « البرابرة » ما كانوا ليقفوا الى جانب

التاينغ . يضاف الى ذلك ان تحولاً قد طرأ على موقفهم حين آثر المرسلون والرأسماليون استتباب النظام في ظل سلطة تخضع لرقابة شديدة . ثم ان نجاحات الثورة الاسلامية قد اخذت تقض مضاجعهم ، فتكون بينهم وبين بكين تضامن لم يكن لمصلحة نانكين . فتدفقت الاسلحة والمتطوعون على المسكر الامبراطوري ، واشرف الاميركي « وورد » والماجور البريطاني غوردون - الذي سيشتهر باسم غوردون باشا - على العمليات العسكرية التي انتهت بسحق العصيان .

الا ان قمع الثورة الاسلامية سيتطلب سنوات طويلة . اجل لقد عقد من قبل اتفاق في يونان مع السلطات الامبراطورية ، الا ان القتال تجدد باشراف زعماء جدد حمل احدى لقب السلطان . وفي سن - كيانغ مضى يعقوب في المقاومة حتى السنة ١٨٧٧ . فاجتبت ولايات كاملة ، ودمرت بعض المدن كـ « سو - تشو » و« نانكين » و« يونانغو » . وكانت آثار الحراب لا تزال ظاهرة في يونان حوالى السنة ١٩٠٠ . وقد عقب هذه الحروب مجاعة السنة ١٨٧٧ - ٧٨ الرهيبة التي جاءت ضفتاً على إبالة .

فخرجت الصين من المحنة منهوكة القوى وخاضعة لوصاية تكاد لا تكون مقنعة ، اعني بها وصاية الغرب .

منذ السنة ١٨٧٠ حتى السنة ١٨٩٥ ، عرفت الصين هدوءاً نسبيّاً أتاح بروز رأسمالية بلدية وانتشار آراء الاعصلاح والتجديد في الاوساط التي تعاملت مع « البرابرة » ورافقت باذنباه التطورات المدهشة التي كانت اليابان مسرحاً لها .

استمر التعاون بين الغرب وبكين في الحقل العسكري . وقد أقلق تفوق البيض المفروض « لن تساو - سن » ، فاستصدر منذ السنة ١٨٤٤ ، ١٢ مجلداً من « حوليات الامم البحرية المصورة » . كما ان المدفعية العصرية احدثت انطباعاً عظيماً . فتجنّد بعض الشبان في الوحدات البحرية البريطانية او تلقوا دروسهم في سان - شامون والـ « كروزو » ، بينما اسند نائب الملك في فو - كيان الى بعض ضباط البحرية الفرنسية امر بناء دار صناعة بحرية في فو - تشيو سوف يضربها « كوربيه » بالقتال في السنة ١٨٨٤ . ونقلت مؤلفات علمية عديدة بعناية معهد أسسه القس الاميركي « و.ا.ب. مارتن » : فعلمت الاصول الدبلوماسية ، ولقن اللغات الأوروبية بعض موظفي وزارة الشؤون الخارجية - « تسونغ - لي - يان » - التي انشأتها الامبراطورية بعد المعاهدة . ثم اخذ يسود الاعتقاد بأنه يكفي الحصول على سر التقنيات الغربية للعودة بالبلاد الى الاستقلال .

ولكن علاقة وثيقة جداً لوحظت بين اوساط الاعمال الاجنبية وبعض كبار الموظفين .

ففي السنة ١٨٦٢ ، عين تسنغ - كوو - فان ، الذي لعب دوراً هاماً في الحرب ضد التايبينغ ، عدداً من المهندسين البريطانيين ، واسس اول دار صناعة بحرية على النهر الأزرق في نانكين . وبعد مرور ثلاث سنوات بدأت « شركة « كيانفان » لأعمال الاحواض والمهندسة » عملها في شنغاي . وفتح « تشانغ - تسي - تونغ » ، حاكم هونان ، مصنعاً للغزل ومصنع حياكة آلية في « او - تشانغ » ، ثم دار الصناعة البحرية في « هان - يانغ » . وكانت « لي - هونغ - تشانغ » ، مثال الموظف الفطن ، فأقام ، بوصفه ناظر التجارة ، علاقات ودية بينه وبين رقابسة الجمارك ، ولم يتم بتأسيس دور الصناعة البحرية ومصانع الغزل فعسب ، بل بتشجيع شركة « الملاحة البحرية لتجار الصين » ، وانشاء خط بين تيان - تسن وشنغاي بالاتفاق مع « شركة التلغراف الشمالية الكبرى » . قادت مكاسب المقايضة الداخلية من ثم الى قيام مشاريع عمرية استألت الرأسمالين الاوروبيين والاميركيين استمالة شديدة .

خضع هذا النشاط للسيطرة الانكليزية . ففي هذا العهد استطاعت منشستر الادعاء بالبأس « السيارين » واحتلت لندن المرتبة الاولى كمستودع للشاي الصيني واحتلت مركز الصدارة في تجارة الحراير التي اهتم بها « ارتشيبالد لتل » ، ممد الطريق للملاحة البخارية في « يانغ - تسي » الأعلى . وانطلقت هونغ - كونغ انطلاقة قوية وسريمة عانت منها كانتون وما كوو . فأصبحت أكبر مستودع للبضائع ومركزاً مصرفياً اشع في كافة أنحاء الشرق الأقصى . وقد تولى مصرف « جاردين - ماتسون » ، ومصرف « هونغ كونغ وشانغاي » المرتبط بـ « مصرف شبه الجزيرة والشرق » ، البت بكافة المعاملات . وبفضل حسن ادارة حاكمها « هنري بوتنغسر » ، مثلت الجزيرة ، التي لا تتجاوز مساحتها ٧٥ كيلومتراً مربعاً ، بأحواضها وأرصفاتها وابنتها الكبرى ، أنتصاراً على الصخر الفرانتي والحميات والقراصنة . ثم انطلقت شانغاي بدورها . فانتشر نقدها ، ال « تايل » ، في كافة أنحاء الصين . وتجاورت المؤسسات البريطانية والفرنسية والاميركية على طول رصيف جميل - بوند - قامت أمامه احواض السفن والمعامل . أما المدينة الصينية المحاذية فقد حافظت داخل أسوارها على حوائطها المضاءة بمصابيح ورقية والمعرف عنها بعناوين عمودية ، كما حافظت على قذارتها وروائحها النتنة . وبفضل نشاط الملاحة دبت الحياة في مياه النهر الأزرق الوحلة بين شنغاي وهان - كيو ، المركز الصناعي الآخر الآخذ في النمو . واما تيان - تسن والمرافئ الشمالية فستنال في عهد لاحق قسطها من هذا النمو .

مائة وثلاثون مليوناً في السنة ١٨٤٢ ، وأكثر من مليار في السنة ١٨٨٠ : ان هذه الارقام خير دليل على نجاحات التجارة الخارجية . الا ان الميزان التجاري ما زال في عجز : فان شراء القطنيات والافيون والارز قد ضخم حجم الواردات تضحياً مفرطاً . اذ الى ذلك ان بكين قد عمدت الى صك كمية متزايدة من النقد الفضي للتمكن من القيام بتعهداتها . وهبطت قيمة التايل الى نصف سعره بين السنة ١٨٦٥ والسنة ١٨٩٥ : فشجع ذلك عمليات التصدير ، ولكن البلاد استسلمت اكثر فأكثر الى الرأسمال الاجنبي عن طريق القروض وتوظيف الاموال .

ان الهجرة الى الصين ، المحدودة جداً بالنسبة لسكان هذه الاخيرة ، قد اصطدمت بمقبتين هامتين هما الفقر وكرهية الاجنبي . فان انشاء الخطوط الحديدية قد اعتبره العديد من الصينيين خرقاً للقدسيات : اذ ان التنين الصيني لن يقتفر لاولئك الذين يفرزون المسامير اللولبية والمسامير الخشبية في ظهره . وقد انتزع خط تبرعت به مؤسسة انكليزية في شنغهاي لا يصال هذا المرفأ بـ « اوسونغ » . وتعرض أحد بائعي الاراضي للضرب بالحيزران حتى الموت . ولم يباشر بناء خط بكين - تيان - تسن الا في السنة ١٨٨١ ، ولن يوصل بالشبكة المنشورية الا في السنة ١٩٠٧ .

نشبت نزاعات سنوية بين الحكومة الامبراطورية وبين هذه او تلك من الدول . وغالباً ما انحنت بكين أمام نفوذ التقليديين الذين ما كانوا ليرضوا بالتسليم بتدخل الدول الاجنبية في شؤون البلاد . ولم يكن بالامكان تجنب الحرب مع فرنسا بصدده الهند الصينية . ولكن تبيجتها المؤسفة لم تهدى الافكار . وان في الصور الدعائية الجدرانية التي تمثل الخنزير بي - سو مصلوباً ، وتعديات الجماهير على الخطوط الحديدية والخطوط التلغرافية ، والمظاهرات العنانية بمناسبة تدشين الملاحة البخارية على اليانغ تسي ، لدليلا على المشاعر السامة التي لم يحاول البلاط مقاومتها كما يتضح من تقارير السفارات .

حدثت الازمة الكبرى الثانية حين هزمت الصين في حربها الكورية ضد اليابان في السنة ١٨٩٤ - ٩٥ ، فأقعدتها الاوروبيون مرة أخرى منتهزين الفرصة للاستفادة اكثر فأكثر على حسابها . وترد الازمة الى ان معاهدة الصلح ، حتى بعد اعادة النظر فيها ، قد قضت بالتخلي عن فورموزا ، واعطاء اليابان مركزاً ممتازاً في الحقل التجاري ، ودفع تعويض حربي كبير جداً . ولما كانت بكين عاجزة عن تسديد المبلغ المطلوب منها ، لم تستطع حرمان مقرضها من الفوائد التي سلمت بها للمنتصر عليها . فأسرعت الدول الى اقتسام المقائم : هذا ما يعرف بتجزئة الصين . وعلى الرغم من اعتراضات اليابان ومن مناداة الولايات المتحدة بسياسة الباب المفتوح ، تخلت الصين عن بعض الاقاليم لقاء عقود تأجيرية لمدة ٩٩ سنة ، فأقامت روسيا والمانيا وبريطانيا العظمى في رأسي لياو - تونغ وشان - تونغ ، الاولى في بورت - ارثور والثانية في كياو - تشيو والثالثة في اواي - هاي - اواي ، بينما أقامت فرنسا في هكوانغ - تشيو قبالة جزيرة هاي - نان . ووافق هذا الاقسام نفوذ اقتصادي سريع الخطى : فتح مناطق واسعة للتجارة ، وانشاء مؤسسات صناعية كثيرة (بعد ان حصلت اليابان على هذا الحق) ، وبناء خطوط حديدية جديدة ، واستثمار المناجم . وبرز توسع الرأسمال الغربي عملياً بتأسيس ثمانية مصارف هامة يدخل في عدادها المصرف الروسي الصيني الذي اسهم الفرنسيون في تمويله والذي اهتم بصورة خاصة بالمواصلات بين سيبيريا وبورت - ارثور عبر منشوريا ، فتميزت المعاملات التجارية وانتاج المصانع بالنشاط . ولكن الصناعة اليدوية انتهت الى الاضمحلال وميزان المقايضات بقي في عجز .

سلمت اوساط الاعمال وبعض المثقفين باضطراب الصين الى الاتفاق مع الاجانب ، فانشرت

مؤلفات كانغ - يو - أواي التي أوصت بإصلاح التعليم ، وطالبت باقتفاء أثر المستبدين المستنيرين ولا سيما بطرس الأكبر ، واستهدفت مداراة كبرياء الصينيين بإرشادهم الى الدور الذي باستطاعتهم ان يلعبوه في المستقبل على مسرح العالم . وندد تشانغ - تشي - لانغ بالتمسك المفرط بالشكليات ونادى بدراسة الثقليات .

وهكذا حدثت في السنة ١٨٩٨ المحاولة المعروفة بمحاولة المائة يوم ، اي فترة الاسبوع المعدودة التي فرض خلالها كانغ - يو - أواي المتمتع بثقة الامبراطور الفتي كوانغ - سيو ، اصلاح الامتحانات ، وتبسيط الانظمة القضائية ، واحداث دوائر اقتصادية ، وتجديد الجيش ، ونشر الاخبار المتعلقة بالدول الاجنبية . ولكن الامبراطورة الام ، تسو - هي ، قاومت المحاولة بمساعدة التقليديين والعسكريين المنشورين : فأرغمت الامبراطور على الاستقالة . أما الجماهير فلم تحرك ساكناً .

ما زالت هذه الجماهير متأثرة بالدعاوة لكراهية الاجانب . فقد حققت شيعة « قبضة اليد » للسلام والعدالة ، التي اعلنت عداها لغزو البرابرة البيض ، نفوذاً متزايداً في كافة الولايات الشالية . وقد شجعها الانقلاب الذي قامت به تسو - هي ، فأتت أعمال عنف كثيرة ، مخربة الخطوط الحديدية ، ومحرقه الابنية ، ومتعرضة للبشرين وللصينيين المعتقدن الدين المسيحي . وقاترت بكين تلبية لندائها وحاصرت السفارات . فوجهت الدول ضد « الملاكين » جيشاً دولياً دخل العاصمة . ولم يتخلص البلاط من هذه الورطة الا بتسليمه ، بوساطة لي - هونغ - تشانغ ، بحل الجمعيات المعادية للأجانب ، ومنع استيراد الاسلحة والاعتدة ، ودفع تمويض حربي ثالث قيمته ١٣٧٥ مليوناً .

وجملة القول إن ازمة السنوات ١٨٩٤ - ١٩٠١ انتهت كما ابتدأت بمذلة ومهانة . فمن اجل محاربة التاينغ لجأت السلالة الى اوروبا واستسلمت لمشيئتها . اما الآن فعمبناً اعلنت عداها للأجانب . وقد فقدت نهائياً كل امل حين سلكت الصين القديمة طريق الاصلاحات السياسية ، تحت ضغط القوى الاقتصادية والاجتماعية المصرية .

على غرار الصين ، خرجت اليابان نهائياً من عزلتها . وهو وجه اليابان القديع المحبوب وازمتها الاجنبي كذلك من أرغمها على فتح بابها . وانما توفرت هنا الشروط اللازمة لنهضة حقيقية .

تطيب الحياة فيها على ما يظهر . فان الارخبيل الذي ترتفع فيه الجبال ينقشه البحر بازميل امواجه . ويبسط عليه تآلف النور والرطوبة وتواءات الارض زينة نباتات تلفت الانتباه باختلاف انواعها وازيمها . ففي الجنوب يجعل الصيف منه احدى ولايات آسيا الحارة ؛ وفي الشمال ينزل الشتاء عليه ثلوج آسيا الباردة ؛ ولكن الربيع والخريف يستمران استمراراً كافياً لان يبقى المريج مزهراً ، وال « هارا » ، التي يرتفع فوقها ال « فوجي » ساطعاً ، مثاراً لسنحر

العيون السامي . كما أن جواً بحارياً في اغلب الاحيان يقرب الآفاق ويحيط بسر غامض ووم تخيلي المساكن الخشبية الصغيرة الواهية والانيقة والنظيفة ، والمعابد والاديرة والقصور المحفوفة بالأشجار ، وأعمال السكان . ويطلب لهؤلاء ، الذين لا يتصنعون قط ، البحث في كل شيء عن الناحية المضحكة وحتى الماجنة ؛ ويجدون لذتهم في النكات الغليظة ، ويولمون بالصور الهزلية والالقاب ، ويعبرون عن الـ « تسوكي » ، واعني به تلك النقوش الهزلية الصغيرة التي يزينة بها الازرار ، عن الذوق اللطيف الذي يتحلى به شعب مرح ومرهف الحس ، كما تعبر عنه الصور المطبوعة على الخشب .

أجل ان الارض تتزلزل (تهدم ١٠٠ الف بيت وفني ٣٠ الف شخص فيما يبدو في السنة ١٨٥٥) ، وتحتاج الـ « تسونامي » السواحل (تسبب احد هذه التيارات البحرية المتلاطمة الامواج في مقتل ٣٠ الف نسمة في السنة ١٨٨٥) ، ويقابل بركان فوجي الهساديء بركات « أساما » الغضوب ، وتلف الحرائق الاكواخ الخشبية (أحرق ٥٠ الف كوخ في شتاء السنة ١٨٨١ - ٨٢ وحده) . الا ان الاستعمارات المقننة اقل من ان تعبر عن جميل الكائنات التي يسعدها السكنى في ارض « الشمس الشارقة » ، المباركة من الآلهة ، حيث يوجد كل شخص في مكانه ، ابتداء من الـ « ارشيتو تنو » ، « الاله الحي بين البشر » ، حتى اوضع الفلاحين الذين الذين ينتجون الارز ، مروراً بالـ « ساي - اي - تاي شوغون » ، القائد المنتصر على البرابرة ، وصاحب الفضل الاول في استقلال البلاد ، المصون بمساعدة الـ « دايموس » العظام والاساموراي ، البواسل . وقد تملقت اليابان بعاداتها ومؤسساتها التي اقتبست بعضها عن الصين من ذي قبل دون ان تخضع لها . ثم جاء الاوروبيون : فراقبتهم بفضول ، وربما فكرت باقامة العلاقات معهم ولكنها اقصتهم حين خيل لها ان موجبات وجودها التقليدية مهددة بالخطر .

ان هذه العزلة المتوحشة حصرت « نيبون » في حضارة مرعلها الزمان لا يججب عيونها ما تنطوي عليه من جمال . ففي الارخبيل الصغير الذي تحتل الغابات والصخور ثلاثة ارباعه ، خاض ٣٠ مليون نسمة معركة قاسية لتأمين قوتهم اليومي . اضع الى ذلك ان الاجهاس وقتل الاطفال كانا علاجين مشينين حرمتها الانظمة واستخدما استخداما سهلا : وقد اشير الى هذه المالتوسية التي افضى اليها تزايد عدد السكان باسم « مايبكي » الذي يعني فن تخفيف الخضار .

ارتكز كل شيء الى زراعة غاية في التدقيق وغير كافية معاً . ووفر البحر الاسماك والاصداف والملح وحتى الاشنة التي استخراج منها نوع من السماد . ولكن الارز كان موضوع اعتبار تفضيلي . ولم تشكل الصناعة سوى تكملة لعمل الحقول ؛ وليس هنالك بالاضافة الى ذلك سوى مشاغل نادرة تصنع فيها الاسلحة والنقود . وقضى التنظيم الاجتماعي الشديد بأن تتوفر لكل شخص كمية المواد الاستهلاكية اللازمة له ، ولكنه شل كل نشاط ابتكاري

وعاد للسلطة الشوغونية (باكوفو) امر توزيع الارز . وكان الفلاح موضوع تكريم ، ولكنه خضع لرقابة مزعجة . وبالإضافة إلى ان الاراضي كلها كانت ملك الاسياد ، وان طبقة الدايموس للنبلاء استوفت اتاوات عينية ، وان طبقة من الملاكين غير المستثمرين قد تألفت واحتفظت بجزء من الحصيد فان هذا الحصيد دخل الانبار العامة ، بمد احتفاظ المنتج بالكمية الضرورية لتأمين معيشته . وقد حظر ترك الاراضي الصالحة للزراعة مواتا ، واستبدال الارز بزراعة اخرى ، ومفادرة ارض المزارعة دون اذن صريح بذلك . ولكن على الرغم من سهر يبدو على الاحتفاظ بالطابع الدائم لارض المزارعة هذه ، فقد رهن الدايموس اراضيهم المذخرة ، وزاد وضع المستثمر سوءاً .

سعت السلطة الشوغونية منذ زمن بعيد وراء ارغام الدايموس على الطاعة : وقد كوفىء الامناء منهم بـ « كوكو » الارز . وحافظت طبقة المحاربين على امتياز حمل السيوف المعوقين ، ولكنها الزمت بالخدمة وارغم اعضاؤها على الاقامة في بيدو سنة بعد اخرى ، وترك الرهائن فيها اثناء غيابهم . وبسبب بطالتها اصبحت فاسدة الاخلاق وسريعة الغضب . واذا توفى الـ « توكوغاوا » إلى اخضاع ارباب القصور في كوانتو - « بلاد الشرق » بالنسبة لـ « فوجي » - فان السلطة السيدية قد حافظت على كل امتيازاتها تقريباً إلى الغرب من هوندو وفي « كيو - سيو » .

تفسر ندرة النقد ورقابة سوق الارز القوة المتزايدة التي تمتع بها التجار اصحاب الامتيازات والصيارفة او « شونين » (اشتقاقاً : رجال المدن) . وكان من جملة اسباب اقفال البلاد استدراك خروج النقد . ولم يكن مركز النشاط التجاري ناغازاكي ، حيث عقدت بعض الصفقات مع الخارج ، ويبدو نفسها على الرغم من قوة جمعية تجار الارز بالجمل فيها ، الـ « فودازاشي » ، بل اوساكا التي لقبته بـ « خزانة مؤونة الامبراطورية » بالنظر إلى اهمية انبارها العامة . وكان اعظم الشونين نفوذاً الـ « تويبا » او وكلاء النقل البحري ، لان الارباح سلكت طريق البحر بسبب نقص حيوانات النقل وكثرة ضرائب المرور السيدية . وتعاطى بعض التجار تجارة النقد بأقراض الدايموس من اثمان الارز المتجمعة لديهم . واستمروا في احتكار الاراضي وابتزاز اموال المزارعين . وقد ورد في نص يرتقي إلى السنة ١٨١٦ ذكر « البورجوازيين الادنياء النسب » و « انساب المرابين » بين مشتري الالغاب الشرقية . فانار فرار سكان الارياف إلى المدن المخاوف الكثيرة لانه زاد من صعوبات التموين .

روج ارتقاء اثرياء العامين وضائقة النبلاء الفقراء الروايات والقصص والرسوم الشعبية الطابع ، البذيئة حيناً ، والهجائية حيناً آخر . وبينها استمرت الـ « نو » او المأساة المقدسة في طريق الانحدار ، انقطع الادب والفن إلى وصف الاخلاق بعرض الرذائل او بالاستهزاء بالانحرافات . فأبدع « ايكو » في وصف حياة الجماهير . واذا ما نظر التقليديون إلى « هوكوزاي » الحازم نظرهم إلى لمصور القدر ، فلانه ينتمي إلى مدرسة « اوكيو - يي » المتبدلة ويرسم كل ما

يرى ، حتى أكثر الحرف ضعة .

الا ان ردة فعل استهدفت الكونفوشيوسية التي اعتبرها موتووري مصدراً للاخلاق المترامية . وعلى نقيض مدرسة الـ « كنفاكوسا » التي ما زالت تطري تكشف الفلسفة الصينية ، رجعت مدرسة الـ « فاغا كوسا » إلى الاصول القومية واعادت الاعتبار لتعاليم الـ « شنتو » . وان موتووري ، الذي اسهم اكثر من اي شخص آخر في تكوين الـ « فا يون » اي اللغة اليابانية المكتوبة ، قد اشار بقوة ، في كتابه « كوجيكي » ، الى حقوق السلالة المنزوية في كيوتو والمعتمضة بالصمت . ثم جاء « هيراتا » بعده يشيد بدوره بالعبادة الامبراطورية . وضمت المدرسة الجديدة عدداً من مؤرخي الحوليات ، معاصري مؤرخي اوروبا الرومنطيقية وعلمائها الواسعي الاطلاع ، الذين حاولوا ايقاظ الماضي المجيد . وبينما تادى حزب الـ « ميتو » ، الذي كان يمت بصلة الى الـ « توكوغاوا » ، باصلاحات من شأنها بعث اليابان القديمة وفاقاً لتعاليم الفيلسوف « هودزيتا » ، مكنت شنتوية مدرسة « كاغوشيا » عند كبار الدايموس في المناطق الجنوبية الغربية ، ولا سيما « ساتسونا » و « شيو شيو » ، الحاقدين على بيدو ، الذين اقاموا علاقت وثيقة بأوساط الاعمال في ناغازاكي . فنمت من ثم حركة عاطفة على إحياء الامبراطورية ، صادقة كانت ام غير صادقة في رغبتها في إنقاذ القيم الاساسية للحضارة القومية .

الا ان الظروف عاكست السلطة الشوغونية اثناء عهد « تجمو » الذي يوافق النصف الاول من القرن التاسع عشر . ومن حيث ان كلفة المعيشة ارتفعت ارتفاعاً حثيثاً مطرداً ، فقد قوبل تفخّل البعض ، اكثر فاكثراً ، ببؤس البعض الآخر . فبين السنة ١٨٣٠ والسنة ١٨٤٠ ، تجددت المجاعات الكبرى التي حدثت في اواخر القرن السابق وتحللتها اضطرابات على جانب من الاهمية . فهاجم الـ « ساموراي » والشعب جماعة الـ « شونين » . وفي اوزاكا ، صب الثوار جام غضبهم على صير في موسر يدعى « ميتسوي » . فأصدرت بيدو اوامرها الى الفلاحين بالعودة الى اراضيهم ، ولكنها عبثاً حاولت قضاء وطرها من الاغنياء بواسطة نصوص تحسد من النفقات المفرطة ، وفرض ضريبة استثنائية ، والغاء ديونها الخاصة إلغاء جزئياً ؛ وعبثاً ألغت امتيازات جسيمات التجار والتجارة الكبرى بغية تخفيض الاسعار عن طريق المنافسة : فقد ابطلت كافة التدابير حوالي السنة ١٨٥٠ امام مقاومة يبدو انها ضمت اوزاكا والدايموس في المناطق الجنوبية الغربية . وجملة القول ان السلطة الشوغونية قد فقدت المزيد من اعتبارها حين جاء التدخل الاجنبي يعقده مهمتها ويخدم مصلحة خصومها .

كانت المقايضات المادية بين اليابان والعالم الخارجي عادمة
الاهمية . فقد خشيت بيدو خروج النقد وفرضت رسوماً
جمركية مرتفعة . ولكن احوال المهربين كانت آخذة في التوسع .
الا ان نفوذ البيض قد افاد من الفضول الذي اثاره دخول ادواتهم العلمية وكتبهم . ففي

فتح اليابان للاجانب
وانهيار السلطة الشوغونية

السنة ١٨١٠ اجازت الحكومة فتح مكتب ترجمة خرّج الترجمة وقراء المؤلفات الأجنبية . ومن هولندا أتى بالأحصنة والبطاطا والتلقيح أيضاً . وان اوغاتا الذي مارس هذا الاخير ، قد اسس مدرسة للطب في اوزاكا وصنع ملقط جنين بالاستناد الى رسم . وفي ناغازاكي ، فتحت مدرسة عنيت بتعليم اللغة الهولندية التجارية بصورة خاصة ، وفي ييدو فتحت مدرسة اخرى عنيت بالتفضيل بالدروس العلمية . وفي السنة ١٨٤٢ املت الروزنامة القمرية الشيبه بالروزنامة الصينية . وفي السنتين ١٨٤٧ و ١٨٤٨ ظهر التصوير وفقاً لطريقة « داغير » وصناعة الثقاب الفوسفوري والزجاج . والى العهد نفسه يعود اول مصنع للبنادق والمدافع جهزه « اينفاوا » الذي اتزل الى البحر سفينة بخارية مزودة بآلة ابتاعها من الهولنديين ، واكب على تحصين جون ييدو . واعرب بعضهم عن اعجابهم بما اتاه الغرب . فتذوق الرسام « شيبا - كوكان » رسوم الهولنديين ونقوشهم النحاسية وقلدها . والف « متسوجولي - غنبو » كتاباً شاد فيه بذكر الدول الاوروبية . وصودر كتاب « يازوو - دو كوغو » (مناجاة ريفي عموز لنفسه) لمؤلفه « سوغيتا - غانباكو » الذي كان اول من كتب بحثاً في علم التشريح باللغة اليابانية . وقد صادقه الرسام « واتانابه - كازان » الذي يروي انه مات مسمماً لانه اسس جمعية غايتها نشر الافكار الاجنبية . واحرقت المخطوطة الاصلية للصحيفة التي نشر فيها آراء معادية للنظام القائم . ولكن هل باستطاعة اليابان ان تقوم بما عجزت عنه الصين وتقاوم مناورة عسكرية بحرية ؟

منذ زمن بعيد اخذ الروس يقتربون شيئاً فشيئاً ، مترددين الى شواطئ سيبريا الغربية ومقيمين في الكوريل ، ثم في ساكalin ، في المياه الغنية بالاسماك . وجاءت سفن بريطانية تطلب تمكينها من التمون . ولكن المرافىء اليابانية كانت توفر التسهيلات المغرية للاميركيين بصورة خاصة ، على طريق الشاي البحرية . وبعد حرب الافيون اضطر الشوغون الى التخلي عن فكرة منع ال « ريو - كيو » . فسبقت واشنطن انكلترا وروسيا وارسلت الكومودور « بري » يتظاهر في خليج ييدو وارغمت الباكوفو المنحور على فتح « هاكودات » « وشيمودا » في السنة ١٨٥٤ . وعلى الرغم من وجود هذين الميناهن في اطراف البلاد ، فان الخطوة الاولى قد خطيت ، ووقعت اتفاقات ماثلة وتكميلية اتاحت للدول ، بعد فترة قصيرة ، الوصول الى ناغازاكي ويوكوهاما ونييغاتا ، وتمهد مقيمين في ايدو واوزاكا ، وتعاطي التجارة مباشرة شريطة تسديد الرسوم المتوجبة . فاضطرت امبراطورية الشمس المشرقة بدورها الى توقيع معاهدات غير متساوية .

ادت هذه التنازلات الى تزايد كراهية الاجانب وثقلت وطأة الازمة الاقتصادية وعجلت ردة الفعل ضد السلطة الشوغونية التي دفعا « ابي تاوسوكي » الحاذق الى مصافحة يد الغربين دونها وجل . فاستقبل نبا المعاهدات بصورة عامة كاهانة تلحق بالبلاد . وخاف العديد من الصناعيين اليديويين والتجار من المناقصة وخافوا على امتيازاتهم . فلم يُمتد على الاجانب فحسب ، بل اقنع الدايموس الامبراطور بالامتناع عن ابرام الاتفاقات ؛ ومن جهة ثانية أخذ دايموس المناطق

الجنوبية الغربية على انفسهم إقفال مضيق « سيمونوساكي » . فكان الجواب قيام بعض السفن الحربية بقصف تحصينات المضيق بالقنابل ومراقبة الملاحه في مياه اوزاكا ، فأبرمت الاتفاقات وخفضت الرسوم الجمركية . فبدأ عجز اليابان وكأنه غير قابل للمعالجة .

ولكن اليابان تعرضت لهزة اقتصادية ايضاً . فمن جهة تسببت الواردات في خروج النقد وألحقت ضرراً كبيراً بالصناعة البلدية ؛ ومن جهة ثانية ادت الصادرات الى ارتفاع سعر الحرير والقطن والحنطة . واذا علمت ان النسبة بين الذهب والفضة كانت نسبة ٨ الى ١ الى ١٥ الى ١ ، تبين لك ان المقايضة وفرت ارباحاً طائلة للأجانب الذين عمدوا الى اخراج الذهب . فحدث اندفاع حقيقي وراء ذهب اليابان ، تأثرت به كافة طبقات المجتمع تأثراً متفاوتاً . واختل الامن وسادت الفوضى ؛ فتمددت الافلاسات ، وجابت زمر الساموراي البلاد معتدية على الاشخاص والممتلكات . وتوفرت عناصر الحرب الاهلية بفعل استطاعة انصار الشوغون وخصومه الحصول على الاسلحة والاعتدة بواسطة الرأسماليين ، من أمثال ميتسوي ، الذين لم ينتصروا لاهذه الفئة ولا لتلك . ومن غرب ما حدث ان الدايمبوس الراغبين في الاصلاح الامبراطوري قد اضطروا ، في سبيل تحقيق غايتهم ، الى سلوك السبيل الذي اخذوا على ال « توكوغاوا » ، ساوكة . والحقيقة هي ان كل شيء آل الى احداث تبديل عميق . وهكذا اندلعت ثورة السنة ١٨٦٨ التي خرج الامبراطور الشاب موتسو هيتو في اعقابها ، بعد زوال السلطة الشوغونية ، من مقره في كيوتو وجاء يتولى الحكم في بيدو التي اطلق عليها اسم طوكيو (عاصمة الشرق) .

استلم النظام الجديد السلطة في جو البلبلة هذا ، ولم تتوفر له لا القوة « الميجي » العسكرية ولا الموارد المالية الكافية بمقاومة تدخل مسلح ممكن ، فلم يكن باستطاعته قطع علائقه بالدول . ومنذ السنة ١٨٦٨ ، حرص الميكادو على تسكين روعها حيال نواياه : الميجي يعني عهد الانوار ، وبالتالي عهد التعاون مع الدول المتطورة .

من هو بالضبط ذلك الذي سار باليابان في طريق التجدد ياترى ؟ لقد تكلم بعضهم عن استبداد مستنير كان من شأنه ، باسم أجل تقليد وطني ، المحافظة على استقلال الامة بواسطة التغييرات الضرورية ، وضمن مقام سام لامبراطورية الشمس المشرقة بين الامم . ولا يجوز الانخداع بأهمية « ميثاق البنود الخمسة » الذي وافق عليه موتسو هيتو بنية اتاحة « التعاون بين الحكام والحكومين » . فالواقع هو ان بعض الاحزاب حلت محل غيرها رغبة منها في السيطرة بمساعدة بعض الرأسماليين الخذاق وفي كنف الامم الامبراطوري الساحر . وقد استخدمت في الحقيقة ثلاث قوى : زعماء الحركة المنتسبين الى النبلاء والراغبين في اقامة النظام الجديد ، ورجال المال الحرصين على تطوير الاقتصاد ، وروح التضحية عند الجماهير .

بيدو ان حزبي ساتسوما وشوشيو قد تقاسما السلطة . فقد وجهت الامبراطور فئة محدودة

من المستشارين الاقوياء : وقد ألفت ما يعرف بالـ «جنرو» او قيادة المشرفين على انتقاء الموظفين (وسوف يتكلم الامير كيون عن : « امتحان الدماغ ») . وكانت هذه الفئة توجد البعثات الى اوربا للاطلاع على كل شيء ، فتعود وفي جمعيتها مخططات جريئة لاعادة التنظيم . وكانت بدورها تفصل في كافة الامور ، لأنها لا تضع اي حد لامتيازات الميكادو الذي لا تميز بمصالح الدولة عن مصالحه . وقد برز من بين كبار هؤلاء الموظفين او كويوشيميشي ، و « ايتاغاكبي » و « ايتو هيروبومي » . وعلى الرغم من أن الجنرو انبثق من الاقطاعيين ، فانه الفسى اقطاعية اعتبرها بالية ووضعها في خدمة الامبراطور . ولن يكون هناك بعد اليوم سوى طبقة نبلاء الخدمة المدنية ، الشبيهة بالـ « تشين » ، التي ستمنح في المستقبل القاباً ثرفية بحجة وفاقاً للطريقة الاوروبية . واذا اصبح المزارعون اصحاب الاراضي التي يزرعونها ، فان مجموع اعبائهم الاميرية آل الى خزانة الدولة التي وضعت يدها بالاضافة الى ذلك على ممتلكات الجمعيات البوذية . فأتاح هذا الاصلاح الاجتماعي الواسع رفع الادارات العامة الى مصاف الادارات العصرية : تبديل الاقطاعات بالولايات ، تجنيد جيش عن طريق التقييد السنوي للشبان البالغين سن ابتداء الخدمة العسكرية ، احداث تعليم قادر على تخريج مسؤولين اكفاء . وقد اقتبس ذلك عن فرنسا والمانيا بسبب شهرة الاولى ببركزيتها والثانية بصفات موظفيها ، كما أتى من انكلترا أو اميركا بمعظم الفنين والقسم الاكبر من الادوات والتجهيزات . ولكن هذا الهيكل المتين كان تحت رحمة وضع مالي واقتصادي سيء .

ما كان المشرفون على الميجي ليجهلوا أهمية المسألة الزراعية ، ولم يفتهم ان قمع ثورة الفلاحين ليس حلالها . فان الحرب الاهلية قد أضرت باعمال الزراعة ، والثورة خيبت آمال سكان الارياق الذين باتوا احراراً في ان يزرعوا كما يطيب لهم الزرع ، ويشترى ويبيعوا ، ويمتلكوا الاراضي التي كانوا يتصرفون فيها تصرف المستثمرين فقط ودون انقطاع ، والزمو بالخدمة العسكرية وبدفع ضريبة نقدية دونها الاثوات القديمة أحياناً ، بصرف النظر عن الاثوات التي ما زال يحق للملاكين غير المستثمرين فرضها على مزارعيهم . وفقدوا كذلك حقوق الانتفاع من الغابات التي ضمها الميكادو الى املاكه ، فكان هو وهؤلاء الملاكين غير المستثمرين اول المستفيدين من الاصلاح . أضف الى ذلك ان مجاعة السنة ١٨٧٠ - ٧١ الكبرى كانت اكبر دليل على سوء حال الزراعة . فان زارع الارز في قطعة الارض الصغرى التي يملكها ما كان يستطيع تحسين ادواته وزيادة انتاجه : وان النظام الجديد قد سهل احتكار الرأسماليين للارض باقراره حرية بيع العقارات .

كان عهد الانوار كذلك عهد امثال ميتسوي وميتسويشي والمؤسسات الخمس أو الست الكبرى ، التي ساندت الاصلاح الامبراطوري . فقد كانت طوكيو بحاجة اليها لاصلاح سوق النقد وتمويل المؤسسات الصناعية والتجارية الجديدة . وفي الوقت الذي عقدت فيه قرضاً من لندن ضمنته بمحصول الجمارك ، لجأت الى القروض الداخلية وسمحت لبعض المصارف باصدار

أوراق نقدية . فأتاح لها التضخم النقدي وفاء ديونها ، ولكن المصارف الوطنية المستوحاة من المثال الأميركي ، ما لبثت ان ضاقت مقاليدها ، بينما ازدهرت المصارف الخاصة ، كمصرف ميتسوي مثلاً ، ووظفت أرباحها في المناجم وشركات الملاحة والمعامل . وكانت النتيجة انخفاض قيمة النقد الفضي الجديد ، «الدين» ، واستمرار خروج الذهب .

والحال انفت الروح السامورائية من التخلي عن الاقتصاد للرأسماليين . فبدلت من ثم في البدء محاولة تستهدف تنمية رأسمالية رسمية حقيقية . فأخضع النشاط لرقابة شديدة تمارسها الإدارة التي سعت جهدها لتأسيس شركات بمساعدة صغار النبلاء الذين كان يهيم ان تنزعهم من الفقر : وقد يؤلفون طبقة تجارية جديدة ، هي طبقة «الشيوزو» المتشعبة بالتعالم الكونفوشيوسية . فظهرت المبادرة الرسمية في كافة الاتجاهات : استثمار مناجم الفحم الحجري ، وإنتاج المعادن والمنسوجات (انشىء اول معمل لحياكة القطن الآلية على يد أحد الأسياد وبادوات انكليزية في السنة ١٨٦٧ ، ولكن الحكومة استت في السنة ١٨٧٢ معملاً نموذجياً لفزل الخيوط الحريرية تحت إشراف احد الفرنسيين) ، والزجاجيات ، والورق ، وصناعة الأسمت ، ومد الخطوط الحديدية والخطوط التلغرافية الأولى . واتجه الانتباه بصورة خاصة لسطر التسلح البري والبحري . ولكن ما لبثت الحكومة ان عدلت عن هذه السياسة التي أثقلت كاهل الموازنة وأثارت استياء أوساط الأعمال . وهكذا فقد عجزت شركة وطنية للنقل البحري عن منافسة شركة آل ميتسويشي ، كما ان آل ميتسوي استردوا أكبر مصنع لإنتاج الورق واداروه لحسابهم .

والحقيقة هي ان الميجي قد تعرض بين السنة ١٨٧٣ والسنة ١٨٧٧ لامتحان عسير . فعلى الرغم من الاضطرابات الريفية ، وبلية النقد المستمرة ، وعجز الميزان التجاري ، عرف الاقتصاد الياباني توسعاً بيتنا سهله التضخم وشجعته السلطة . ولكنه توسع عرضته للخطر أزمة السنة ١٨٧٣ العالمية . فان انخفاض حجم الصادرات والتباطؤ في بناء الخطوط الحديدية اثارا بعض القلق . وتعرضت حينذاك عدة مؤسسات حكومية للخطر . فحرض سايفو ، وزير الحرب المنتسب الى حزب ساتسوما ، والمولع بضرب السيف على الطريقة القديمة ، على القيام بعمل حربي إلهائي في الخارج ، ولكن الغلبة كانت لانصار السلام : فعدلت اليابان عن خوض غمار الحرب في كوريا . فانسحب سايفو من الوزارة مستاء واصبح زعيم معارضة قوامها الأشراف . وضمت هذه الأخيرة جمهوراً كبيراً من الساموراي الذين اغضبهم الإصلاح العسكري واضر بهم تحويل جعلاتهم الى صكوك دخل متدنية القيمة تدفعها الدولة . وفي سبيل تهدئة هذا الهيجان ، تأسس مجلس شيوخ وغزيت كوريا لفترة قصيرة . ولكن النزاع الحاسم انفجر في السنة ١٨٧٧ ، حين حرض سايفو ساتسوما على العصيان بعد اعراضه على هلهلة السياسة الخارجية وإلقاء السيفين واعتماد الأوساط السياسية البزة الأوروبية . فكان ذلك آخر ثورة اقطاعية اقليمية الطابع . وقد اغتيل او كوبر على أيدي رجال حزبه بالذات ، ولكن الميجي خرج منتصراً ، وانصر معه الاستبداد البيروقراطي . وارجأ اليكادو الى السنة ١٨٩٠ إعلان النظم الدستورية .

خرجت السلطة الامبراطورية راسية القواعد من هذه الازمة . الا انها اضطرت لأن تحسب حساباً متزايداً لادوساط الاعمال . فتخلت للمشاريع الخاصة عن عدد من المؤسسات التي كانت قد انشأتها . وسارت في تصميمها على تعديل موازنتها ، بينما لم تول قيمة الا « ين » في انخفاض مستمر ، فاكتفت بتقديم المساعدات المالية لانشاء خطوط مواصلات جديدة وتشجيع تأسيس المصارف المطلوب منها مساندة الصناعة والتجارة . فاستمر التحسن الاقتصادي على الرغم من الصعوبات المالية . وبين السنة ١٨٨٠ والسنة ١٨٩٠ اتضح وجه اليابان الجديد اتضحاً بيناً .

في السنة ١٨٩٤ ، وبفعل نزاعها مع الصين ، دخلت اليابان المسرح العالمي دخولاً يلفت الانظار والانتباه . فقد دقت ساعة توسعها الاستعماري . وتميزت اذ ذاك بخليط غريب من الحضارة التقليدية

مظاهر اليابان المتناقضة
قبيل توسعها

والطرائق المقتبسة عن الغرب .

واذا ظهر فيها حزبان معارضان منذ السنة ١٨٨٠ ، فان احدهما ، حزب الاحرار (جيوتو) قد استند الى آل ميتسوي ، والثاني ، الحزب التقدمي (كيشنتو) كان مرتبطاً بآل ميتسويشي . اما دستور السنة ١٨٨٩ ، وهو بمثابة تنازل للبورجوازية الكبرى الآخذة في التكون ، لم يول حق الاقتراع سوى نصف مليون منتخب ، مختارين من بين المكلفين البارزين ، ولم يتمتع الامبراطور ، الذي يكون الوزراء مسؤولين امامه ، بحق تعيين اعضاء المجلس الاعلى فحسب ، بل بحق دعوة مجلس الممثلين ، المنتخبين عن طريق التصويت العام ، وحله ايضاً ؛ لا بل تمتع بحق تجاهل هذا المجلس بتوقيعه مراسيم لها قوة القانون وبحق الامتناع عن توقيع القوانين المقررة بالتصويت . وبلاضافة الى اشرافه الكلي على الجيش والاسطول والعلاقات الخارجية ، حق له ، بعد الاستئناس برأي الجنرو ، اتخاذ مقررات هامة جداً .

انه كما في السابق فوق الخصومات وفوق البشر ، اذا جاز التعبير . والدستور ينص صراحة على انه « نازل من السماء ، مكبرم ومصون » ؛ ويضيف الى ذلك انه « لن يكون موضوع اي تأويل او نقاش » . كان في البدء يظهر علانية مرتدياً الثوب الصيني ؛ ولكنه حين اعتمد الزي الاوروبي لم يعترض عليه احد وبات السير على خطاه مظهرأ من مظاهر الادب . وقضى العرف بالسجود في حضرته (والزم الاجانب أنفسهم بالركوع في الشارع عند مروره) ، ولكنه قد يسمح لاحد المستشارين أو احد الوزراء بالظهور امامه بال « كيمونو » والسيجار في الفم وحتى القبعة فوق الرأس . وتقعد محبة الوطن كل معانيها اذا لم تقترن بعبادة الاقنوم المقدس . وفرض الخط الشريف الصادر في السنة ١٨٩٠ (شوكونغو) ، الذي يحدد القواعد الاخلاقية للمسلم الابتدائي ، ان يكتسب الولد « الاعتزاز القومي والاخلاص للسلالة والتضحية للوطن » . ويحذر الانتباه هنا الى ترابط هذه الصفات . واشتهر الياباني ، الذي أنف من التجريد ، بشغفه بالصورة⁴ ، كما ان الجماهير التي يسرها وجود الكائن المبارك من الله فيما بينها تشعر بقشعريرة صرعية . الا

ان الدولة توقفت في عهد الميجي عن رعاية الشنتوية ، والبوذية من قبلها ، وتساهلت تساهلا فعليا حيال المسيحية . ويرد ذلك الى الرغبة في الحصول من الاجانب على ابطال « الماهدات غير المتساوية » : وبما ان الشعب ، ولا سيما الحكام ، لم يقفوا سوى موقف اللامبالاة من رسالة المبشرين (لم يكن هناك سوى ١٠٠٠٠٠ مسيحي في السنة ١٨٩٠) ، لم يكن للبادرة ، الانتهازية ، أية أهمية جدية من الناحية الاجتماعية .

ان استبداد الدوائر والعسكريين لم يتداول لعمرى في موازنة الواردات والنفقات العامة الا مع المصالح الكبرى . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان الاحزاب تنازعت المراكز وغالبا ما ذكرت اعمال العنف الحكام بأن الشرف النيبوني لا يسلم ببعض التفاوضات المذلة مع الاجنبي . وقد حدث احيانا ان تعرض بعض كبار الزائرين للاغتيال . وفي ذلك الدليل على ان ذهنية الساموراي الفظة ما زالت تحتسى وراء ظواهر المؤسسات العصرية .

شكلت الكتابة العقبة الكداء في سبيل نشر التعليم نشرأ واسما بين الجماهير . فكل ما امكن تحقيقه في المدرسة الابتدائية هو معرفة واستنساخ ٥٠٠٠٠ حرف ضروري . ولذلك وجب صرف وقت طويل ومال وفير للارتقاء حتى مستوى المدارس التقنية والعليا التي تخرج كبار الموظفين وقادة الفكر .

ولذلك فان اقلية ضئيلة عرفت ما تدين به اليابان للغربيين . فكانت براعة التقليد اكثر موافقة في هذه الحالة ، لا سيما وان مخالطة الانكلوساكسون اسفرت عن نمو الجدارة العملية . فالهم طلبت طوكيو الفنيين والاطباء والاساتذة ، والهم فوضت امر تثقيف طلابها ؛ فانتشرت قوانينهم التي استطاعت المرأة اليابانية بفضلها ، على غرار الرجل ، التقدم بدعوى الطلاق . واعترف بالحرية الفردية ، ونشأت صحافة انطلقت انطلاقا سريعة . لا بل تناول البحث موضوع جعل اللغة الانكليزية لغة رسمية . وعلى اي حال ، فقد ترجمت مؤلفات كبار الفلاسفة والاقتصاديين والعلماء البريطانيين ترجمة زادت في صعوبتها لغة ظريفة تفتقر الى الوضوح . وقد سبق لـ « هيرابا » تلميذ موتوري ، ان اشاد بالاصلاح الامبراطوري في مؤلفاته التاريخية ؛ وجاء بعده « فوكوزاوا » ، الذي درس الفلسفة في انكلترا ونشر « شؤون غربية » ، فعمل النغمية في جامعة « كيو » ، وفي الصحيفة « جيجي » . وتبارى مع ناكامورا في ترجمة مؤلفات كثيرة . والى هذا التاريخ يعود استنثار « بنتهام » و « جون ستيوارت مل » و « هربرت سبنسر » باستحسان المثقفين اليابانيين التفضيلي ، واقدام « تسوبوشي شوي » على ترجمة شكسبير .

وفنتت فرنسا اليابانيين بفكرها وقوانينها . فاستهوت مادية فلاسفة دائرة معارفها « ناكايه » الذي احب كذلك « روسو » و « كونت » . وسوف تعرف تمثيلياته نجاحا عظيما دائما . ولكن الالمان احرزوا تقدما متزايدا بعد السنة ١٨٨٠ . فقد كان لاتصاراتهم العسكرية

وانضباطهم المدني وتحقيقاتهم التقنية اثر كبير في النفوس . فأرسلوا الى اليابان بدورهم الحقوقيين والاطباء والجراحين . ووفرت مؤلفات « ليست » التي ترجمت في السنة ١٨٨٥ - حين عباد « ايتو » من رحلة الى برلين وفيينا بمشروع دستور مقتبس عن الدستور الروسي - الحجج والادلة لانصار اقتصاد قومي خاضع لنظام الحماية . واعجب « كاتو هيرويوكي » بـ « هيفل » ومدرسته ولن يلبث « نيتشه » ان يستهوي اليابانيين .

الا ان هذا الاقتباس قد اضر في نواح عديدة بأصلية عبقرية الشعب . ففي القصة برزت النزعات نفسها التي برزت في اوربا يرافها استعداد طبيعي للرومنطيقية في مؤلفات « كودا روهان » ، ثم للواقعية في مؤلفات « شيازاكي توسون » و « تاهاما كاتاي » ، بينما اناسق « موري اوغاي » ، مترجم « إبسن » و « سترندبرغ » ، وراء التقليد التصوفي . وبجث الشعر عن اشكال جديدة (سنتاي - شي) في مؤلفات « يامادا » وشيازاكي ، بينما صمم « اوشيائي » و « شيكي مازواكا » على بمث الـ « تانكا » والـ « هاي - كاي » التقليديين . اما المسرح الذي حاول « شويو تسويوشي » اصلاحه ، فقد عرض بعض مشاهد الامانة الزوجية والبسالة الابيسة وعرف المشهدين الاجانب برقصات الـ « غيشا » ، ولكن ما انطوى عليه من عقم سوف يحلم الميكادو في السنة ١٩٠٧ على ايفاد مؤلفين مشهورين لدراسة الفن المسرحي في باريس .

درس الرسامون قواعد رسم الاشياء كما تراها العين ، وسعوا وراء تمثيل نواتج الظل والنور ، واستوحوا الطبيعة وحدها لان تمثيل العري كان محرماً : ولكن لم يحظ منهم بالاعجاب والرضى في المعارض الدولية لا مصورو المناظر الطبيعية المشهورون من امثال « هيروشيغي » و « هودا » و « كاواكوبو » ، ولا مصور الصور الهزلية « كيوزاي » من مدرسة « هوكوزاي » . واذا مسا زال هناك بعض منتجي المصنوعات التزيينية المهرة وبعض المصورين المائنين الموهوبين ، على طريقة « كلوانابي » و « شيبا يوما » ، وبعض النقاشين الاقوياء - يامادي كيزاي بصورة خاصة - فان صناعة الاسلحة قد فقدت علة وجودها ، وصناعة الخزفيات قد عانت من سماجة ذوق الشارين الاجانب ، والبناء لم يمد يحد في الدين مصدر وحي ، فقلد الانهاط الغربية المألوفة تقليداً أعمى في الحقل المدني . اما الـ « سامي - سن » (اعواد ذات ثلاثة اوتار) التي تصطبج الاغاني والرقصات ، فقد وجد المجتمع الرفيع ان عهدا قد ولى .

اقض مضجع البعض فساد الاخلاق في اوساط الطبقات الحاكمة نفسها ، ولكن احسب ان فضائل الجدود في الارياف ومحافظه هذه الارياف على سحرها لم يحمل الميجي على تحسين مصير سكان الارياف تحسيناً ملموساً . فالملك الصغير ، المرغم على دفع ضريبة عقارية ثقيلة والمحرور حق الانتماع من الاملاك المشاعية ، عاش حياة صعبة . وسواء كان جني الارز سيئاً أو الخفض سعر الحبوب ، اضطر الى رهن ارضه او الى بيعها . ولكن ٧٤٪ من املاك الفلاحين و ٧١٪ من الاراضي المستثمرة لم تتجاوز الهكتار مساحة . فاستثنى الافراد الارياء بأسعار بخسة . وبسبب ازدياد عدد السكان ، ارتفعت قيمة استئجار الاراضي الى ٥٠ وحتى ٦٠٪ من قيمة

المحاصيل ، فازدادت حالة المزارعين سوءاً على سوء . وتقاضت اليد العاملة المياومة ، التي استخدمها الملاك غير المستثمر اجوراً ضئيلة جداً (٠،٥٨ ، ين - ٤٠ ، فرنك - حوالي السنة ١٩٠٠) . ثم تحولت الزراعة نحو النباتات الصناعية التي تفضل الارز ريعاً ، لا سيما وان الارز نادراً ما يسد حاجة الاستهلاك . يضاف الى ذلك ان الفلاحين غالباً ما باعوه واكتفوا بالخصار والاسماك . ولكن مها كان من نشاطهم ومهارتهم في العمل ، فانهم ما كانوا ليعرفوا بالبحبوحة واليسار باستثمارهم اراضي تقدر بـ ١٢ آراً لكل عائلة تقريباً ، بعد ان حرّموا دخول نول الحياكة الصغير ، حتى ولو أخذنا بعين الاعتبار الدخل الذي وفرته لهم تربية دود القز . فلا عجب والحالة هذه اذا ما هاجروا الارياف نحو المدن مهاجرة مطردة السرعة .

كانت اليابان من ثم مسرح ثورة في توزيع السكان . فلم تضم المدن سوى ٢٥ ٪ من السكان في السنة ١٨٩٠ : ولكنها ضمت اكثر من ثلثهم بعد مرور عشر سنوات . ولما كان مجموع هؤلاء السكان قد ارتفع من ٣٠ الى قرابة ٤٥ مليوناً ، فان اكتظاظ الارياف بالسكان لم يتأثر تأثراً ملموساً بنمو المدن . وقد نجحت الحكومة في توطين ٨٠٠.٠٠٠ نسمة - من فقراء الساموراي والجنود الفلاحين - في جزيرة هوكايدو الباردة المناخ التي تصلح لتربية المواشي اكثر من زراعة الارز . وشجعت السفر الى كوريا وهاواي وكاليفورنيا . ولكن اليابانيين انفوا من الهجرة ، وآثروا تماطي نشاطات المدن .

على الرغم من ان مقر الميكادو القديم ، كيوتو ، قد بدأ لـ « بوسكيه » وكانه « فرساي خشبي ، متناسق ، كئيب ، محتضر ، خال من الحياة ... » ، فانه قد نما ، وغت يجانبه ضاحية « افاتا » التي قامت فيها مصانع حياكة ومعامل خزف وميناولك . وعلى المتوسط النيبوني ، سارت اوزاكا قدماً في تقدمها التجاري وألفت مع « كوبيه » مركزاً كبيراً للنشاطات النسيجية والبحرية : فقبالة ابراج القلعة الشوغونية التي تشرف على شوارعها المرصوفة بالقراميد واقنيتها التي بنيت فوقها آلاف الجسور الصغيرة المهدّبة ، قامت الابنية العامة التي اعتمد فيها الميجي الطراز الاوروبي . وكانت يوكوهاما بالامس مجرد قرية لصيادي الاسماك ، فاصبحت مرفأً للعاصمة بفضل مياها العميقة ، وجهزت بمصنع بحري ، واتاحت لها تجهزاتها البحرية الأخرى استقبال اكبر السفن محمولاً . اما طوكيو التي تأسست في احد المستنقعات في القرن الثامن عشر فقد تقاربت احيائها القديمة كما في المدن الصينية : الـ « سيرو » أو القصر الامبراطوري المحاط بالاسوار والحدائق ، والـ « سوتو - سيرو » مع الـ « يشكي » أو قصور اهل المقامات وكبار الموظفين ، والـ « مدزي » الذي كان - كما شاهد « هوبنر » في السنة ١٨٧٧ - « اختلاطاً من الشوارع المطروقة والمقفرة ، والحدائق ، والبساتين ، والمرزات والرياض والمعابد » ، والـ « هونجي » حيث تجاور المستودعات العامة اماكن اللحم والزهات . فقامت حول هذه الاحياء المساكن القرميدية والخشبية والمشاغل والمصانع . وقد عاش مليون نسمة في مساحة شاسعة (بين ٨ و ١٠ كيلومترات من الشمال الى الجنوب ومن الشرق الى الغرب) . وطافت

المدينة ابدأ الزوارق الشراعية في البحر والـ « جنريكيشا » ذات العجلتين في الشوارع ، ولكن خطوط الحافلة الكهربائية انشئت واستخدم الهاتف وانتشرت الاضاءة الكهربائية . واختلطت الازياء النيبونية والاوروبية . وما زال افراد المجتمع الرفيع يرتدون في منازلهم الـ « جويان » أي القميص القومية ، والـ « كيمونو » اي الثوب الضافي الاهداب ، وفي الاحتفالات الـ « كاورى » أي اللباس المشئى الذي لم يخل من التصنع . واذا ما ظهروا بالمروحة والمظلة ، والـ « جيتا » (قباقيب خشبية) في أرجلهم ، فانهم قد ارتدوا كذلك السترة القصيرة والسترة الطويلة المشقوقة الذيل المقتبستين عن البورجوازية الغربية . وما زالوا مولعين بالـ « سونتو » والـ « جودو » ؛ ولكنهم اخذوا يهتمون بالـ « كريكيت » وكرة السلة أيضا .

الى هذه المدن وضواحيها جاء سكان الارياف المعوزون يبحثون عن عمل يؤمنون به معيشتهم . فنشأت من ثم طبقة عاملة اضطرت الى الاكتفاء بأجور كادت لا تتجاوز أجور العمال الزراعيين المياومين . ففي طوكيو تكدست في غرف لا تزيد مساحتها عن مترين مربعين عائلات مؤلفة من أربعة أو خمسة اشخاص تتغذى بحساء وخضار مطهية تفيض عن حاجة الثكنات والمستشفيات لا تدفع ثمنها لها أكثر من فرنك واحد في اليوم . وقد رافق ارتفاع الاجور حركة الاسعار حتى السنة ١٨٨٧ ، ثم توقف بعد هذا التاريخ ، فاضطرت النساء والاولاد الى العمل أيضا . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان صناعيين كثيرين آثروا تغذية واسكان فلاحات شابات يخضعونهن لاقامة منفردة حقيقية . ولكن القاعدة التي اعتمدت هي عقد العمل لمدة ثلاث سنوات الذي لم يترك للعامل اية امكانية للاعتراض على شروط المعيشة المفروضة عليه . وصدرت في السنة ١٨٩٠ والسنة ١٩٠٠ قوانين تمنع منعاً باتاً كل محاولة « تحالف » وتعاقبها عقاباً صارماً .

في هذه الاثناء كانت بورجوازية الاعمال آخذة بالنمو . فبعد ان ورثت عن الدولة مشاريع عديدة ، حصلت على حق تأسيس شركات مساهمة . وهكذا توطدت سيطرة بعض المؤسسات الكبرى ، الـ « ريباتسو » ، التي استفادت من انخفاض الـ « ين » لتحقيق احتكار واسع في نطاقى الصناعة والتجارة بفضل وسائلها المصرفية . فكانت اليابان أسرع من روسيا نفسها في قطع أنواط التقدم ، وهي سوف تعرف رأسمالية الاحتكار في الوقت نفسه الذي سيعرفها فيه الغرب . وسوف توطد اوليغارشية الاثرياء هذه مراكزها بفضل الانطلاقة الشاملة التي ستمرفها اليابان بين السنة ١٨٩٥ والسنة ١٩١٤ .

ولكن الواقع الذي لا مفر منه هو ان الارخبيل الياباني ، شأن الارخبيل البريطاني ، كان مضطراً الى التصدير لتأمين حاجاته . وقد عانى من تقيده بماهدات لا تتيح له مقاومة المنافسة الاجنبية مقاومة فعالة . يضاف الى ذلك ان صناعته الحديثة المهده جداً كانت مفتقرة الى الفنين وبعض الخامات الهامة وحتى رؤوس الاموال . فعدت احياناً ان يبيع الارز للتمكن من شراء القطن والحديد والآلات . وقد زاد من ضرورة معادلة الميزان التجاري ان البلاد مدينة للخارج . فهو مستوى الحياة المتدني وكد الفقراء ما أتاحا تحقيق النهضة .

أظهرت الموازنة العبء الثقيل الذي تمثله الضريبة العقارية في الواردات ، ودفع المناخرات وتمهد القوى المسلحة في النفقات . ولكن التوسع بدأ للعديد من اليابانيين وكأنه حاجة ملحة . وإذا لم تستهو المغامرة الرأسمالين ، فربما استهوت العسكريين الغير على امتيازاتهم . فتقرر في السنة ١٨٩٤ اختيار وزيرى الحربية والبحرية بعد ذلك التاريخ من بين القادة وامراء البحر . وقد نشبت الحرب في السنة نفسها مع الصين . فهل يجب اعتبار هذه الحرب بمثابة عملية إلهاء؟ فمنذ انتخابات السنة ١٨٩٠ العامة تكون « حزب الشعب » ، المناوىء لرجال الجنود ، الذي انتقد الادارة الحكومية ، ثم توسع نفوذه مرة أخرى في شهر آذار من السنة ١٨٩٤ : حين اتضعت معارضة البورجوازيين الحزبي ساتسوما و شيو شيو . وسوف يحقق الحساس الوطني مرة اخرى الوحدة حول العرش الامبراطوري ، وهي الحرب الظافرة التي ستدفع الثمن .

منذ السنة ١٨٨٩ اصدر كبلنغ حكمه الصائب في اليابانيين : « انهم رجال خبيثاء قصار القامة يعرفون اكثر مما نتصور » .

احرزت اليابان انتصاراتها الاولى في شهر حزيران من السنة ١٨٩٤ . وفي شهر تموز وقعت مع انكلترا اتفاقية تجارية أبطلت احدى المعاهدات غير المتساوية ، ثم رشعت لان تحتل مركزها بين الدول المصرية المظلمى بفضل نظامها العسكري وتزعتها التوسعية .